وصايا الآباء إلى الأبناء

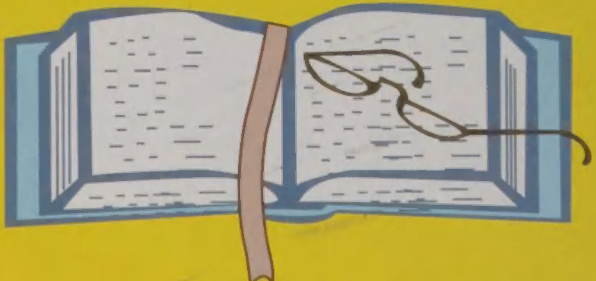

الدكتور: محمود شاكر سعيد

...امة للنشر والتوزيع
ت/ف: ٤٧٦٦٣٢٤ الرياض

مكتبة كشكول
الرياض ١١٤٩٥ ص.ب ٢٢٣٣٦

ح محمود شاكر سعيد ، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

سعيد ، محمود شاكر

وصايا الآباء في تربية الأبناء . - الرياض.

٢٩٨ ص، ١٧×٢٤ سم

ردمك : ٢-٢٩٨-٣٨-٩٩٦٠

١- الوصايا والحكم ٢- التربيـــة أ-العنوان

ديوي ٨١٨,٠٢ ٢١/٢٥١٤

رقم الايداع : ٢١/٢٥١٤

ردمك : ٢-٢٩٨-٣٨-٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعـــة الأولى

١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

* إلى كل "أب" جعل " وصاياه " لأبنائه هدية عطف ومحبة ، وأرادها نبراساً يهديهم الطريق ؛ إدراكاً منه بواجب الآباء ومسئولياتهم .

* وإلى أبنائي . . .

* وكل " ابن " آمن بأن توجيه والديه وإرشادهما مما يحقق له الخير كل الخير في حياته ، وأدرك أن عليه أن ينهل من "تجاربهما " و " حكمتهما " وأن يفيد من "توجيهاتهما " قبل أن يصبح يوماً فلا يجد إلا ذكراهما .

المقدمة

لقد عرفت البشرية " **فن الوصايا** " منذ أقدم العصور التاريخية ؛ لما للوصايا من صلة وثيقة بتربية الأبناء وإعدادهم للحياة، ولما تجسده من علاقة الألفة والمحبة بين الآباء وأبنائهم، وما لها من أثر فاعل في النفوس ؛ وبخاصة إذا كانت صادرة عن روح التجارب، وصدق التوجه، والإخلاص في النصح والإرشاد.

ومنذ أقدم العصور التاريخية ظهرت آراء الآباء وتوجيهاتهم على شكل " وصايا " وجهوها إلى أبنائهم أو أبناء أمتهم لتكون نبراساً يضيء لهم الطريق ، ودستوراً ينظم لهم الحياة ويعطيها من العقلانية والموضوعية ما ينعكس بالاستقرار والأمان والهدوء على حياتهم وسلوكهم؛ لأن تلك الوصايا تصدر عن المنطقة المعتدلة [1] لمبدعيها ؛ مما يضعنا أمام غرض خاص من الأغراض الأدبية ؛ لأنه يختلف عن المديح والهجاء والوصف والرثاء لما يدونه من مفاهيم اجتماعية وفكرية وتربوية تجسد صورة المجتمع وترسم كثيراً من معالمه وتوجهاته؛ ولأنه يرسم صورة واضحة لعصارة تجارب مبدعيه ، وعصارة تراكم خبراتهم وتجاربهم في سبيل تربية أبنائهم وتسديد خطاهم ، بما فيه من " عون على عمارة القلوب ، وصقالها ، وتجلية أبصارها ، وإحياء للتفكير ، وإقامة للتدبير، ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق " [2] .

---

[1] النتاج الذي يصدر عن انفعال وتسرع يمكن أن نطلق عليه أنه صادر عن المنطقة الحارة ، أما النتاج الصادر عن تأنٍّ وروية فيطلق عليه أنه صادر عن المنطقة المعتدلة والنتاج الصادر عن تصنع وافتعال يطلق عليه أنه صادر عن المنطقة الباردة.

[2] الأدب الكبير والأدب الصغير، لابن المقفع ، ص ١٣٢ ، دار الجيل ، بيروت (د.ت) .

وعندما قمت بدراسة " **رسائل الآباء إلى الأبناء في الأدب العربي** " برزت لي كثرة الوصايا التي وجهها الآباء إلى أبنائهم وأنها حظيت بأوفى نصيب من حجم الفنون الموجهة للأبناء في مختلف العصور ، وظهرت لي أهمية أن يتبوأ هذا " الفن " مكانته بين الأنواع الأدبية الأخرى في تاريخنا الأدبي؛ لارتباطه العميق والمباشر بالحياة العامة للإنسان وقيمه العليا التي يركز على نقلها لأبنائه في كل عصر من العصور ، ولاشتماله على روح التوجيه ومعاني الخبرة ، ممن أدركوا " فلسفة الحياة" وعرفوا مداخلها ومخارجها وأسرارها وأصول النجاة والنجاح فيها ؛ فوضعوا كل ذلك بين يدي " فلذات أكبادهم " ليستفيدوا من خبراتهم وتجاربهم ، في مشوار حياتهم الطويل ، ورغبة في تحقيق التنشئة الاجتماعية المناسبة لهم ؛ اعتماداً على تكوينهم الذاتي أولاً، وتكوينهم الاجتماعي المتمثل في علاقاتهم وتفاعلهم مع الآخرين ثانياً.

ورغم الأهمية الثقافية والتربوية والأدبية والاجتماعية لهذا الفن إلا أنه لم يحظ بحقه من الدراسة والبحث ، ولا نجاوز الحقيقة إذا أكدنا أنه لا يوجد بحث واحد - في حدود علم الباحث - يعتني بهذا الفن عناية شاملة من حيث ألوانه وتقنياته الفنية أو مضامينه وأهدافه ..

ونحن إذ نتناول هذا " **الفن** " بالدراسة إنما نهدف إلى التمهيد لدراسات ذات طابع عام يمكنها إعطاء كلمة قيمة في إرساء قواعد علاقة الحاضر (أجيال اليوم) بالماضي (فنون التراث) وفيما يخص تطلعات الآباء والأبناء نحو المستقبل .

وقد وقع اختيارنا لهذا الفن في هذه الدراسة لعدة عوامل لعل أبرزها :

* حاجة فنون أدبنا العربي (النثرية والشعرية) إلى دراسات مستقلة ؛ بعيداً عن التعميم في إصدار الأحكام والخلط بين الفنون المتباينة ؛ مما يؤدي إلى القصور في التحليل والتقييم وتداخل الأحكام ، ومما يؤدي إلى طمس معالم بعض " الفنون " .

* غلبة الجانب التربوي على هذا الفن مما يضع أيدينا على وسيط هام من الأوساط التربوية التي يمكن أن تفيد منها أجيال الأمة ، وأن تحسن الالتفات إليها رغبة في تعميم " الثقافة التربوية " بين أبناء الأمة من خلال دراسة هذه النماذج الرائعة من الوصايا وما حوته من مضامين واتجاهات وتوجهات .

* سعة المساحة الأدبية والثقافية في هذا الفن حتى غدت طابعاً مميزاً له، وغدا نمطاً ثقافيًّا شموليًّا له مكانته الفنية وميزاته الخاصة التي يمكن تنميتها وتطويرها على يد أدباء الأمة ومثقفيها ومربيها على مدى العصور والأجيال .

* قدرة هذا الفن على كشف ميول أصحابه واتجاهاتهم ؛ مما يتيح للباحثين فرصة لإبداع الدراسات الاجتماعية والتاريخية وإلقاء الضوء على الطابع الأدبي من خلال اهتمامات أصحاب هذا الفن وتوجهاتهم .

* أن : " فن الوصايا " من الفنون التي تقصد لذاتها ، لا لمجرد إشباع رغبة أو ميل .

وهذا مما يجعل منه فنًّا تشي معماريته عن معمارية العقل الكامن فيه ، ويمثل راصداً وجدانيًّا لمجتمعه وبيئته .

وإن اهتمامنا بهذا " الفن " خير دليل على ما يمكن أن ننتظره لأجيال أمتنا في الغد ؛ ذلك لأن عناية الأمة بأبنائها وما يتعلق بهم إنما هي عناية بما نتطلع

إليه في مستقل الأمة ؛ عندما نربط ماضيها بحاضرها ومستقبلها ، ونشحذ بهذه "الوصايا " وجدان أبنائنا ونهذب عواطفهم ،ونغذي عقولهم ، ونوجه ميولهم واتجاهاتهم .

* أن الاطلاع على هذه " الوصايا " يثير لدى القارئ نسبة عالية من الإمتاع والتأثير مما يجعله يكرر قراءتها وتأمل أفكارها إلى درجة أنها تجعله يعيد النظر في كثير من آرائه وتصرفاته ؛ لما تحتويه من خبرة وعبرة يمكن أن تتخذ دستوراً ينظم الحياة لمن أراد أن يفيد من تلك الخبرات والتجارب والعظات التي تحرك مكامن الخير والفضيلة في النفوس .

لذا فقد توجهت بهمتي إلى هذا الفن لأجمع نصوصه وأدرس خصائصه وسماته ؛ لعلي أستطيع إبراز دوره في تربية أجيال الأمة ، وإبراز مكانته بين الفنون الأدبية من خلال المعمار الفني لهذا الفن على مر عصورنا التاريخية .

وليس هدفنا من هذه " الدراسة " أن نسرد المضامين الوعظية والإرشادية التي تضمنتها " وصايا الآباء إلى الأبناء " دون أن نستنبط العبر ، ونستخلص الأهداف التي يمكن أن يهتدي بها الناشئة في حياتهم مما يعمل على عصمتهم من الزلل ويحقق فيهم ما يصبو إليه الآباء ، وما ينشدونه لهم من التنشئة السليمة والتربية الصحيحة .

فهذه " الوصايا " لا تعدو كونها محاولة تجهيزية لمواجهة الحياة ومتطلباتها وليست " قوانين" حازمة لا بديل لها .

وأن تكون هذه " **الوصايا** " محاولة تؤهل " الإنسان " ليكون مستعداً لمواجهة التحديات والمشكلات الحياتية ، فإن ذلك يعني أنها تبقى في إطار مطالب المجتمع وحاجاته ، وأنها تجهيز " معرفي " و " مهني" و " إعداد تربوي

واجتماعي" لبناء الإنسان وسد حاجاته المعرفية والتربوية بناء على مقاييس المجتمع ومتطلباته .

ونحن إذ نؤكد عدم حاجتنا – اليوم إلى مزيد من تكرار معاني جميع وصايا الآباء إلى الأبناء فإنه يحسن التذكير بها أو ببعضها ليعي أبناؤنا دورهم في الحياة ، ويكونوا أعضاء عاملين في مجتمعاتهم ، ويحسنوا التعامل مع المتغيرات الاجتماعية والبدائل العالمية .

لذا فقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة حددت هدف الدراسة والعوامل التي دفعت إليها ، وتمهيد لتوضيح مفهوم الوصية ومكانتها بين وسائل التربية ووسائطها مع بيان بعض أصول الوصية وعوامل نجاح تحقيقها لأهدافها .

وتبع ذلك أربعة فصول :

الفصل الأول : خصصته للمحددات التاريخية لوصايا الآباء إلى الأبناء منذ وصية نوح – عليه السلام – حتى عصرنا الحديث ؛ إذ اتضح أن " الوصايا " قد تمثلت في جميع العصور الأدبية ، وعالجت قضايا كل عصر بما يتناسب مع طبيعة العصر ومتطلباته .

الفصل الثاني : وقد استعرضت فيه أنواع وصايا الآباء إلى الأبناء ومضامينها .

وأما الفصل الثالث : فقد تناولت فيه أهمية وصايا الآباء ووظيفتها .

وأما الفصل الرابع : فقد خصصته للدراسة الفنية وتناولت فيه البناء الفني للوصايا ثم معجمها اللغوي ، والظواهر الأسلوبية والبديعية للوصايا .

وأنهيت – بعد ذلك– هذه الدراسة بخاتمة أوضحت فيها أبرز الملامح لفن الوصايا ، ثم أتبعت ذلك كله بالفهارس العامة للدراسة .

وما من شك في أن دراسة " فن أدبي " جاء متفرقاً في أسفار اللغة والتاريخ والأدب ، وتوزع في العصور الأدبية والتاريخية فيها فائدة ومتعة وطرافة؛ لأنها تتيح للباحث الاطلاع على مجموعة كبيرة من كتب التراث وتحقق له كثيراً من الفائدة والمتعة ، ولكن ذلك - بلا شك - يسبب للباحث كثيراً من المشقة ويقتضي منه كثيراً من الجهد ، ولا يخفف من تلك المشقة ولا يقلل من ثقل ذلك الجهد إلا ما تهدف إليه الدراسة أو ما تحققه من نتائج.

ورغم ما بذلته من جهد في هذه الدراسة ، وما واجهته من صعوبات في أثناء إعدادها إلا أنني لا أزعم أنني قد أحطت بكل جوانبها ، ولا استقصيت "وصايا الآباء إلى الأبناء " في جميع عصورنا الأدبية ، ولا أدعي أنني قد قلت كل ما يجب أن يقال في هذا " الفن " ، ولكنني أرجو أن أكون قد أديت - بعملي هذا - بعض ما يجب عليّ من واجب تجاه أبناء هذه الأمة وتجاه هذا " الفن " الذي وجهت له همتي واهتمامي .

والله أسأل أن يجعل عملي كله خالصاً لوجهه الكريم وأن يوفقني - دائماً - لما يحب ويرضى ، وهو الهادي إلى سواء السبيل ، عليه توكلت وإليه أنيب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الدكتور محمود شاكر سعيد

تمهيد

مفهوم الوصية وأصولها

إذا أُطلق لفظ " الوصية " فإن الذهن ينصرف إلى أحد معنيين :

الأول : الوصية : بمعنى الغرض والعهد ، وهي المقصودة في حديث عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال :" ما حق امرئ مسلم يبيت ليلة من الدهر أبداً إلا وعهده عنده مكتوب ؛ إذا كان له من المال ما يعهد فيه "[1] . وقوله ﷺ : " ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي به يبيت ليلتين إلا ووصيته عنده مكتوبة ".[2]

وهي تعني -هنا -: العهد بما يرى الموصي إلى شخص ينفذه بعد موته. وهي " وصية الأموات للأحياء - عند الموت - بحق يجب عليهم أداؤه أو دين يجب عليهم قضاؤه"[3] .

---

[1] وصايا العلماء عند حضور الموت ، للحافظ أبي سليمان محمد بن عبد الله بن أحمد بن زبر الربعي ، تحقيق الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط وزميله ، ص٢٣ دار ابن كثير دمشق /بيروت ط٣،سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .
والحديث إسناده ضعيف كما ذكر المحققان .

[2] رواه البخاري ٢٦٤:٥ في الوصايا ، الباب الأول ، ومسلم رقم ١٦٢٧في الوصايا ، الباب الأول ، وأحمد في المسند ٤:٢ ، ٣٤:١٠ ، ومالك في الموطأ ٧٦١:٢ في الوصية ، الدارمي في سننه ٤٠٢:٢ في الوصايا ، وأبو داود في سننه رقم ٨٦٢ في الوصايا ،والترمذي رقم ٢١١٩ في الوصايا ، والنسائي ٢٣٩:٦ ، وابن ماجه رقم ٢٦٩٩ في الوصايا ، (انظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٢٢٩:٧).

[3] لباب الألباب ، لأسامة بن منقذ ، ص ٣٣ ، دار الجيل ، بيروت ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

وقد عرفّها الفقهاء بأنها : تمليك مضاف إلى ما بعد الموت بطريق التبرع سواء أكان الملك عيناً أم منفعة .[1]

الآخر : الوصية : بمعنى الوعظ والإرشاد والتوجيه الذي أخذه العلماء والحكماء على عاتقهم كلما استطاعوا إليه سبيلاً ووجدوا له طريقاً ؛ رغبة في هداية البشر إلى طريق الحق والصواب ، وتطبيقا لأمر الله -سبحانه وتعالى- في قوله : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾[2] . وأمر رسول الله ﷺ بقوله : " إنما الدين النصيحة . قيل : لمن يا رسول الله ؟! قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم "[3] . وهذه هي وصية الأحياء للأحياء - كما أسماها أسامة بن منقذ -[4] وهي أدب وأمر بمعروف ونهي عن منكر وتحذير من زلل وتبصرة بصالح عمل .

والوصية تعني - هنا - : التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بالوعظ والإرشاد والتوجيه نحو ما هو واجب من فضائل النفس والسلوك .

ويقصد بالوصية الإرشادية : **الثمرة الفكرية التي اكتسبها المرء من تجاربه الخاصة نتيجة تفاعله مع بيئته ومجتمعه ، أو إعمال فكره في أحداث**

---

(1) تبيين الحقائق ٦:٨٢ ،بدائع الصنائع للكاساني ٧:٣٣٣ ،الوصية والفرائض لمصطفى السباعي ٥،والوصايا والوقف، للدكتور وهبة الزحيلي ص٨، الوصية وأحكامها في الفقه الإسلامي ، لمحمد جعفر شمس الدين ص٢٣ ، الوصية المباركة، لابن قدامة المقدسي ص٤٤ .

(2) سورة النحل ،آية ١٢٥.

(3) جامع العلوم والحكم لابن رجب ،ص٨٦،٨٧،وقد رواه وكيع في الزهد ص٣٤٦ ، ومسلم ٥٥ وأحمد ٤:١٠٢ ، والنسائي ٢:١٧٨ ، والحميدي ٢:٣٦٩ والقضاعي ص١٧ ، وغيرهم .

(4) لباب الألباب ، ص ٣٣.

الزمن ونتائج التصرفات التي يرغب في نقلها إلى " الآخر " ليفيد منها في حياته.

و قد عرَّفها الدكتور عيسى علي العاكوب بقوله :[1]

" هي تعليم أو توجيه شفوي أو مدون يتوجه به إنسان إلى آخر متوقعاً التزامه بمضمونه وأخذه بمقتضاه " .

وأما المعنى الذي نقصده في هذه الدراسة ؛ فهو المعنى الاصطلاحي الذي نعني به : **" فن من فنون الأدب المنظوم أو المنثور يجسد فيه مبدعه تجاربه الخاصة ، أو آراءه الشخصية التي يرغب في أن يخص بها من يمحضه تلك التجارب أو الآراء من أبنائه أو أصدقائه أو أفراد مجتمعه " .**

أو هي : [2]

قطعة أدبية من المنظوم أو المنثور ، يجسد فيها الموصي لأحبائه والأثيرين لديه حصيلة تجاربه ونتاج فكره بعبارات بليغة مكثفة ؛ لها طابع التأثير و الرسوخ في العقل والوجدان ".

والذي يعنينا في هذه الدراسة الوصايا التي وجهها الآباء إلى أبنائهم رغبة في تشكيل حياتهم على النحو الذي يرتضونه لهم بناء على ما اكتسبوه من تجارب وخبرات ومفاهيم خلال رحلة حياتهم الطويلة ؛ حرصاً على أن تبقى مفاهيمهم وأفكارهم حية ممتدة من خلال أولئك الأبناء حتى بعد موتهم وفنائهم، وليعيش الأبناء حياة سعيدة بعيداً عن الشرور والضلالات من خلال هذه "الوصايا" التي تعينهم على الاستمتاع بالحياة ؛ بل على تفهم الحياة مستفيدين من

---

(1) مجلة التوباد ، عدد٤٠٣ ، ص١٥٤،ذو الحجة ١٤٠٩ هـ .

(2) أدب البنوة في نثر العصر الأموي والعباسي الأول ، رجاء محمد عودة ، رسالة دكتوراه (مخطوطة) جامعة الملك سعود ،ص٦.

تجارب الآباء وخبراتهم ؛ وبقصد تهذيبهم وتدريبهم على خوض غمار الحياة ومعتركها الصعب ، ورسم أسس التعامل مع فئات المجتمع بناء على ما أفاده أولئك الآباء من خبرات وتجارب في التعامل مع ظروف الحياة وأهلها.

وإن المدقق في مفهوم " الوصية " يجد أنه يتشابه مع كل من " الخطبة" و" الرسالة "و" الموعظة " و" النصيحة " في المقصد والهدف والدلالة ؛ لذا فقد يجد من يعد " النتاج الأدبي " رسالة ؛ بينما يعده آخر وصية أو موعظة أو نصيحة؛ وما ذلك إلا لتوحد الجمهور المستهدف في كل منها ولتداخل الأهداف في كل منها أيضاً . ولكنه يستطيع أن يلحظ أن اعتماد الوصية على الإقناع العقلي أكثر من اعتمادها على الإثارة العاطفية التي تركز عليها الخطبة ، ويلحظ ما تتميز به الرسالة من الخصائص المتمثلة في الأناة والروية وتعدد الموضوعات ، كما أن الوعظ يصرف الذهن إلى التذكير بأيام الله ، والإعداد لاستقبال الموت وذكر أخبار السلف الصالح وما كانوا عليه ، والدعوة إلى التدبر والنظر في آفاق السماء وعجائب المخلوقات .

ومما يؤكد توحد نظرة " العلماء " و "الأدباء " إلى بعض هذه الفنون النثرية أن أحمد زكي صفوت في كتابه " جمهرة خطب العرب " عرض ما أدركه من "الوصايا " دون تمييز بينهما وكأنها فن واحد إلا أنه أشار إلى نوعها "خطبة" أو " وصية".

كما أن كثيراً من العلماء ربطوا بين مفاهيم " الوصية " و " النصيحة" أو " الموعظة" ربطاً يوحي بتطابق معناها ومدلولها رغم اختلافها في الطريقة والأسلوب ، ومن ذلك قولهم : " من وعظ أخاه سرًّا فقد نصحه وسره ، ومن

وعظه جهراً فقد فضحه وضره "[١] . وقال سليمان الخواص : " من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة ، ومن وعظه على رؤوس الأشهاد فإنما بكته ".[٢]

وقالت أم الدرداء -رضي الله عنها -: " من وعظ أخاه سرًّا فقد سره وزانه ، ومن وعظه علانية فقد ساءه وشانه ".[٣] وقد عد كثير من الأدباء والنقاد الوصايا من باب الخطب ؛ لأنها كثيراً ما كان يوجهها الرجل إلى عشيرته أو آله عند إحساسه بدنو أجله ؛ ليرشدهم إلى الطريق الذي ينبغي أن يسلكوه ، والآداب التي ينبغي لهم أن يتحلوا بها[٤] .

وقد جاء لفظا " الوصية " و " الموعظة " في حديث العرباض بن سارية - رضي الله عنه - فقال :وعظنا رسول الله "ﷺ موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله ، كأنها موعظة مودع ، فأوصنا ، قال :أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة ، وإن تأمر عليكم عبد، وأنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة" [٥] .

---

[١] المستطرف في كل فن مستظرف ، للأبشيهي ، ١:٨١ ، دار الفكر للطباعة ، بيروت (د.ت) .

[٢] نفسه .

[٣] نفسه .

[٤] ألوان من التربية العربية ، لمحمود شقير وعبدالله القويزاني ، ص١٧٠(د.ت) .

[٥] أخرجه الترمذي في كتاب العلم ، وأبو داوود في باب لزوم السنة ، وابن ماجة في باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ، وأحمد في مسنده ، والبيهقي في دلائل النبوة .(المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ١:١٥٢).

ومن مظاهر الربط بين مفهوم " الوصية" و" النصيحة " أن كثيراً من الأدباء أطلقوا على كتاب " الوصايا " لأبي حاتم السجستاني كتاب "النصائح"[(١)] لتقارب المفهومين في أذهانهم أو لتطابقهما في مخيلتهم .

ويبقى من خصائص " الوصية " أنها ترتفع إلى قمة النصح والإرشاد لاعتمادها على الصدق والحق واستواء القصد، ما يميزها عن غيرها من الفنون التي تشترك معها في الهدف وفي الجمهور المستهدف.

ولما كانت مرحلة " الطفولة " ومرحلة " الشباب " هما أخطر مراحل حياة الإنسان ؛ لأنه يتعرض خلالهما لأمور كثيرة من النمو والتغير النفسي والجسمي ، وأنماط كثيرة من التغير السلوكي نتيجة للعوامل الجسمية والعقلية والنفسية المتنوعة ، وهما فترة القوة والحيوية والنشاط ، وفترة امتصاص الأفكار واعتناق المبادئ ؛ فقد كان " الإنسان " في هذه الفترة من فترات حياته أحوج ما يكون إلى رعاية تامة ليتجه الوجهة الصالحة التي يريدها له مجتمعه .

ولما كانت " الأسرة " مصدراً من أهم مصادر ثقافة الأبناء؛ إذ من خلالها يكتسبون كثيراً من معارفهم واتجاهاتهم ومهاراتهم؛ فقد عُني " الآباء " و"الأمهات " بدورهم في تربية الأبناء وتنشئتهم وتهيئتهم لمستقبل حياتهم وتدبير أمورهم .

وتأتي " الوصايا " في مقدمة الوسائل التربوية والوسائط التعليمية والقنوات التثقيفية التي يتبعها " الآباء " و " الأمهات " في تنشئة الأبناء وإعدادهم؛ لأنها تجسد خلاصة تجاربهم ، وصادق مشاعرهم وصافي ودهم

---

(١) كتاب المعمرين من العرب ؛ لأبي حاتم السجستاني ، تحقيق محمد إبراهيم سليم ، ص ٨ ، دار الطلائع.

ومحبتهم ، وترسم صورة صادقة لمعاناة " الآباء " وخبرتهم التي يرغبون في نقلها "إلى الأبناء " بصدق وموضوعية .

ونحن إذ نتجه إلى دراسة فن " الوصايا " في الأدب العربي ينبغي أن نؤكد حاجتنا إلى إعداد أبنائنا الإعداد الأمثل الذي يضعهم على عتبة عصر جديد هو عصر " الكمبيوتر " والذكاء الصناعي ، وبنوك المعلومات ، وعصر هندسة الوراثة واستنساخ الأجنة والخلايا ؛ بل عصر تفجر المعلومات والتقدم التكنولوجي والاتصالات الذي حوَّل العالم الواسع المتباعد الأطراف إلى قرية صغيرة ....

بل هو عصر الكواكب واستعمار الفضاء ، وعصر الأقمار الصناعية وقنوات البث التي تحمل القيم والثقافات المختلفة ؛ مما يؤكد أن العصر القادم هو عصر لا مكان فيه للضعفاء ، ولا مكان فيه للمتخلفين ؛ لأن الضعفاء سوف تسحقهم أقدام العمالقة الذين سيتقاسمون العالم ، والمتخلفين سيتحولون إلى خدم وتابعين تسخرهم الكتل الكبرى لتحقيق مصالحها من أجل لقمة خبز أو حفنة من المعلومات .[1]

وبهذا نحن معنيون بإعداد أبنائنا لمواجهة تحديات المستقبل ، وليسهموا في بناء أمة قادرة على الانطلاق في مضمار التنافس العالمي ، ومعنيون بقراءة حركة المستقبل حتى نستعد له ، ونعد أبناءنا لمواجهة تغيراته وتقلباته المفاجئة .

وهذا يضعنا أمام واجبين :

الأول : الوقوف عند " وصايا الآباء إلى الأبناء " في مراحل تطور أمتنا

---

[1] انظر : تحضير الطفل العربي للعام ٢٠٠٠، لعماد زكي ، ص ٥ ، مركز ٢٠٠٠ لدراسات الطفولة والمستقبل ، عمان (د. ت).

عبر تاريخها الطويل ؛ لتحقيق أهدافها الاجتماعية والتاريخية والأدبية والتربوية ، وللإفادة منها في تربية أبنائنا وإعدادهم للمستقبل الذي ينتظرهم .

الآخر : تعرف المهارات والقدرات التي ينبغي أن يحرص عليها " الآباء" في تربية " الأبناء " سواء ما كان منها نفسيًّا أو اجتماعيًّا أو عقليًّا حتى ينشأ الأبناء في بيئة تربوية صالحة .

ولعل أبرز هذه المهارات والقدرات ما يلي :

التدرج في التناول :

لأن تناول الأمر فجأة أو دون ترتيب وإعداد يؤدي إلى عدم الرضى وعدم القبول ؛ لما للتهيئة والاستعداد من أهمية للوصول إلى الأهداف وتحقيقها على الوجه الصحيح . والتدرج ذو شقين : شق يتعلق بالكم ، وشق يتعلق بالكيف :

أما الأول : فيعني أن يعطى الابن من الوصايا والتوجيهات المقدار الملائم له وألا يكثر عليه " الموصي " ويحمله ما لا يطيق فينوء به ويضيعه كله ، فإذا أراد " الموصي " أن يعطي ابنه الكثير دفعه واحدة؛ فإنه بذلك يضيع الكثير والقليل .

وأما الشق الثاني من التدرج فهو ما يتعلق بالكيف والنوع : وذلك يعني أن يهتم " الموصي " بالجلي قبل الخفي ، وبالبسيط قبل المركب ، وبالخفيف قبل الثقيل ، والجزئي قبل الكلي ، وبالعملي قبل النظري.

والمهم في هذا الأمر أن يبدأ الموصي بالأسهل والأيسر ؛ لأن الشيء

إذا كان في ابتدائه سهلاً حبب إلى من يدخل فيه ، وتلقاه بانبساط ، وكانت عاقبته غالباً الازدياد منه بخلاف ضده .[1]

وهذا يعني أنه على الموصي أن يراعي مراحل العمر فيعطي للصبي غير ما يعطي للمراهق ، وغير ما يعطي للناضج ، وهو ما يحرص عليه رجال التربية اليوم في أساليبهم التربوية وطرائقهم التعليمية .

انتهاز الفرص المناسبة للتربية :

لعل أول أساسيات " النصيحة " أن يختار الناصح الوقت المناسب لإسدائها ، فمن المعروف أن " الإنسان " يمر بظروف لا تسمح له بسماع النصيحة أو الاستجابة لها ؛ مما يجعله يرفضها أو يفعل عكسها .

وإذا أحسن " الموصي " أو " الناصح " اختيار الوقت المناسب للنصيحة؛ فعليه ألا يهمل المكان المناسب لها - أيضاً - لأن النصيحة أمام الآخرين فضيحة[2] ،إذ قال الإمام الشافعي - رضي الله عنه- أبياته المشهورة :

تعمدني بنصحك في انفراد　　وجنبني النصيحة في الجماعة
فإن النصح بين الناس نوع　　من التوبيخ لا أرضى استماعه
وإن خالفتني وعصيت قولي　　فلا تجزع إذا لم تُعْطَ طاعة

وقد كان من دأب سلفنا الصالح إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سرًّا، حتى قال بعضهم :

---

[1] انظر : الرسول والعلم ، ليوسف القرضاوي ، ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية ، الدوحة -قطر ١٤٠٠هـ .

[2] انظر : الفرق بين النصيحة والتعيير ، للإمام ابن رجب الحنبلي ، تحقيق الشيخ علي حسن عبد الحميد ، دار عمار . وانظر: تجنب الفضيحة في تقديم النصيحة، لأبي بكر بن محمد بن الحنبلي ، دار عمار ١٤١٢هـ / ١٩٩١م .

" من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه "[1] .

ومن هنا تأتي أهمية الالتزام بأصول النصيحة ،حتى تؤتي ثمارها وتبلغ مراميها وتحقق أهدافها ، وأن يختار " الموصي" أنسب الأوقات وأوفق الأحوال لتقديم النصيحة إذا أراد تحقيق أهدافه ، وإذا أراد أن تلقى وصيته الرضى والقبول.

فمن المبادئ التربوية الغالية التي وَرَّثتها لنا سنة نبينا محمد ﷺ استغلال المواقف الواقعية والتصرفات العملية التي تقتضي موقفاً تعليميًّا معيناً ، وإلقاء التوجيه التربوي اللازم ليأخذ المتلقون منه درساً إيجابيًّا لا ينسى لارتباطه الوثيق بالواقع المشاهد ، واتصاله الدقيق بالمناسبة التي ارتبط بها ذلك الارتباط :

فقد كان رسول الله ﷺ ، لا يدع فرصة تمر في حياة الناس دون أن يجعل منها درساً بليغاً وموعظة مؤثرة كثيراً ما تدمع منها العيون وتوجل القلوب، لأنها وقعت في الصميم وأثرت في النفوس التأثير البالغ العميق .

فمن منا يجهل موقفه ﷺ يوم مات ابنه إبراهيم ،واتفق أن كسفت الشمس في ذلك اليوم ، وكانت مناسبة ليقول قائلون : إنها كسفت لموت ابن رسول الله ﷺ فانتهز الفرصة ليصحح المفاهيم ، ويطارد الخرافة ، ويقرر الحقيقة العلمية الناصعة ، وقال في وضوح مؤمن وفي إيمان واضح : " أيها الناس، إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته " ؟.

ومن منا ينسى موقف رسول الله ﷺ يوم أهم قريشاً أمر المرأة المخزومية

---

[1] انظر: جامع العلوم والحكم ، للإمام ابن رجب الحنبلي ، ص ٨١ ، طبعة دار المعرفة ، بيروت .

التي سرقت وعزّ عليهم أن تنفذ فيها عقوبة القطع التي أمر بها الله في كتابه للسارق والسارقة ﴿ جزاء بما كسبا نكالاً من الله ﴾ ولجأوا إلى أسامة بن زيد حب رسول الله وابن حبه يشفعونه في هذا الأمر ليعفي المرأة من حد القطع ؛ فكان لا بد من درس تربوي ليثبت معنى المساواة في العقوبات ، ويزيل أوهام الفوارق الطبقية بين الناس ، ويؤكد بقوة أن شرع الله يسود الجميع ، وأن كلمة الله هي العليا ، وكل كلمة عداها هي السفلى، فجاء الدرس التربوي الذي سمعته الآذان وفقهته العقول ، ووعته القلوب :" أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة ؟! إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها". فكان هذا الدرس في موضعه وكان انتهازاً للفرصة التي قطعت كل حوار كما قطعت جهيزة كل قول؟ .

تحول النصيحة والموعظة :

لأن كثرة التوجيهات والنصائح في كل وقت وحين مما يؤدي إلى الملل والسأم، ويؤدي إلى مقت " الأبناء" لتلك التوجيهات والنصائح لما لذلك من ضرر على الدماغ الذي يحتاج دائماً إلى راحة لإيقاف الهدم الفكري لديه ؛ فقد ذكر علماء النفس أن هناك فضلات صغيرة في أوقات الاشتغال بالأعمال الفكرية تتساقط وتجتمع في مادته العصبية وتسممها ؛ فإذا أطال الإنسان الاشتغال الفكري كثرت هذه الفضلات ووصل السم إلى حال لا يقدر معها المخ على

القيام بأعماله، فإذا أريد إرجاع قوته إليه ، وجب في الحال إيقاف ما يحدث فيه من الهدم ، وإزالة ما تجمع فيه من الفضلات السامة وتعويض ما فقده من مادته .

أما إيقاف الهدم فإنما يكون بالراحة التامة والتوقف عن العمل فترة من الزمن . [١]

ولنا في سنة رسول الله ﷺ ، في هذا الأمر سنة حسنة ؛ فقد كان عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - يخرج للناس ليذكرهم في كل خميس ، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن ، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم . فقال : أما أنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم ، وأني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا [٢] .

وروى البخاري عن عكرمة أن ابن عباس قال : " حدّث الناس مرة في الجمعة فإن أبيت فمرتين ، فإن أكثرت فثلاثاً ، ولا تمل هذا القرآن ، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من أحاديثهم فتملهم ، ولكن أنصت ، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه ." [٣]

وكان ابن مسعود يقول :" إن للقلوب لنشاطاً وإقبالاً ، وإن لها تولية وإدباراً ، فحدثوا الناس ما أقبلوا عليكم " [٤]

---

[١] انظر : علم النفس وآثاره في التربية والتعليم ، للجارم وأمين ، ص ٣١ وما بعدها ، دار المعارف ١٩٢٥م.

[٢] رواه البخاري في باب العلم ، ومسلم في باب المنافقين ، والترمذي في باب الأدب ، وأحمد بن حنبل (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٢:٣٨٦) .

[٣] جمع الفوئد ،ج١حديث رقم ٢٣٥ .

[٤] سنن الدارمي ١:٩٨ باب من كره أن يمل الناس .

وقال الحسن البصري : كان يقال : حَدِّث القوم ما أقبلوا عليك بوجوههم ؛ فإذا التفتوا فاعلم أن لهم حاجات "[1] . وهذا يعني أن على الآباء إن يدركوا أن عليهم أن يراعوا الطاقة النفسية للأبناء وأن يلاحظوا إقبال الأبناء وتجاوبهم ؛ لأن من يستمع وهو لاه أو كاره لا يمكن أن يستفيد مما يتلقاه ؛ لأنه يسمع بأذنه ولا يعي قلبه .

تعرف حاجة الأبناء :

من المعلوم أن لكثير من "الأبناء" مشكلات حياتية تعيقهم عن أداء رسالتهم في الحياة ، وتأخذ من وقتهم وجهدهم ما يصرفهم عن الطريق السليم الذي يريده لهم آباؤهم أو الذي يتوقعه منهم مجتمعهم .

ومن هنا يأتي دور " الأسرة " الممثل في الآباء والأمهات للعمل على حل هذه المشكلات على أساس سليم لئلا يكون أولئك "الأبناء" عبئاً على المجتمع الذي يعيشون فيه .

وما من شك في أن بعض مشكلات الأبناء متجدد ، أي أنه كان موجوداً في الماضي وهو موجود في هذا الزمن ، ولكن بعضها الآخر مما نشأ في عصرنا الحاضر بعد ظهور الفلسفات المختلفة التي قلبت موازين الأفكار وغيرت كثيراً من المفاهيم والقيم والاتجاهات ، وأحدثت شروخاً في كثير من التقاليد والعادات التي ارتضتها الأمة على مدى الأيام والدهور .

ولما كان " الأبناء " هم زهرة الحياة ، وأمل المستقبل ، وهم أمانة في أعناق الآباء والأمهات ، فإن هؤلاء مسئولون عن تربية الأبناء التربية الكاملة

---

[1] نفسه .

المتكاملة التي تحقق لهم التكيف والمواءمة مع كل جانب من جوانب البيئة المادية والاجتماعية والنفسية .

وهذا يوجب على الآباء تعرف كل المؤثرات والإمكانات والقوى المحيطة بالأبناء ، التي يمكن أن تؤثر في جهودهم وعطائهم وفي حياتهم الخاصة ، والتي تحول دون تحقق الاستقرار النفسي والبدني لديهم ، والعمل على إيجاد التكيف السليم لتكون حياة " الأبناء " خالية من الاضطرابات النفسية ، وليكونوا قادرين على حل مشكلاتهم بأساليب موضوعية .

مراعاة الفروق الفردية :

من القواعد العامة والمبادئ والقيم التربوية التي ركز عليها التربويون في العصر الحديث ، وجاءت بها السنة النبوية المطهرة " مراعاة الفروق بين الناس " سواء أكانت فروقاً فردية أم بيئية أم نوعية .

إذ بدا من المؤكد أنه ليس كل ما يصلح لشخص ما يمكن أن يصلح لآخر ، وليس كل ما يصلح لبيئة يصلح لأخرى ، وليس كل ما يصلح لفئة ؛ أو جنس يصلح لغيرهم ، وليس كل ما يصلح لزمن يصلح لسائر الأزمنة والعصور .

ولذا فإن " الأب " الواعي الموفق هو الذي يعطي كل " ابن " من أبنائه النصح والإرشاد والتوجيه ما يلائمه ويصلح له ، وبالقدر الذي يصلح به ، وفي الوقت الذي ينتفع به .

وإن الأب الموفق هو الذي يقدر كل أمر بقدره ، ويدرك أن الإخلال في هذا الأمر قد يكون ضرره أكثر من نفعه ، كما قال الشاعر :

ووضع الندى في موضع السيف مضر (م) ـر كوضع السيف في موضع الندى

وقد خلفت لنا السنة النبوية المطهرة ما يدل على أن " معلم البشرية " و" قدوتها "خير المراعين لهذا الجانب الهام من الجوانب التربوية نظريًّا وتطبيقيًّا :

ومما يؤكد اعتبار رسول الله ﷺ للفوارق ومراعاتها في نصحه وإرشاده ما يلي :

أ- اختلاف وصايا رسول الله ﷺ باختلاف الأشخاص الذين طلبوا منه الوصية: إذ نجد أناساً من الصحابة -رضوان الله عليهم - سألوه ﷺ أن يوصيهم إما مطلقاً وإما مقيداً بما يقربهم إلى الجنة ويبعدهم عن النار ، فأوصاهم بوصايا مختلفة :

فبعضهم قال له : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، و تقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم . وبعضهم قال له : اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .

وبعضهم قال له : قل آمنت بالله ثم استقم .

وهكذا فقد راعى رسول الله ﷺ حال المستوصي ، وأعطى كل واحد منهم ما رآه أحوج إليه ، فكان شأنه ﷺ مع السائلين كالطبيب مع المرضى ، يصف لكل منهم ما يناسبه من العلاج .

ب- اختلاف أجوبته وفتاواه عن السؤال الواحد باختلاف أحوال السائلين : إذ نجد الرسول ﷺ يُسأل : أي العمل أفضل ؟ أو أي الإسلام أفضل؟ فيجيب واحداً بغير ما أجاب الآخر .

فعن عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه - قال : سألت رسول الله ﷺ ، أي الأعمال أحب إلى الله ؟ فقال: الصلاة على وقتها . قلت: ثم أي ؟ قال : بر الوالدين . قلت : ثم أي؟ قال : الجهاد في سبيل الله .[1]

وعن رجل من خثعم قال : أتيت رسول الله ﷺ ، وهو في نفر من أصحابه فقلت : أنت الذي تزعم أنك رسول الله ؟ قال: نعم . قال : قلت يا رسول الله ، أي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال الإيمان بالله . قلت : يا رسول الله، ثم مه ؟ (أي ثم ماذا) قال : ثم صلة الرحم ، قلت : يا رسول الله ، ثم مه ؟ قال : ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...الحديث.[2]

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى : قالوا : يا رسول الله ، أي الإسلام أفضل ؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه ويده .[3]

وفيه عن عبدالله بن عمرو : أن رجل سأل النبي ﷺ أي الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف .[4]

ولا تفسير لهذا الاختلاف في الجواب مع اتحاد السؤال إلا مراعاة لأحوال السائلين وما بينهم من فوارق حرص رسول ا لله ﷺ على مراعاتها ؛

---

[1] رواه البخاري ومسلم .

[2] رواه البخاري في باب الأدب ، ومسلم في باب الإيمان.

[3] الحديث في باب الإيمان .

[4] الحديث في باب الإيمان .

تحقيقاً لمصلحة السائلين وعلاجاً لمشكلاتهم .

جـ- اختلاف مواقفه وسلوكه باختلاف الأشخاص الذين يتعامل معهم : إذ نجد في سيرته ﷺ أنه كان يعامل الأعراب القادمين من البادية بما لا يعامل به أصحابه الذين رُبُّوا في حجر النبوة ، وكان يغفر لأولئك مالا يغفر لهؤلاء :

فقد كان من دأبه عليه الصلاة والسلام ، إذا دخل عليه كريم قوم أكرمه ، وإذا دخل عليه سفيه أو شرير داراه بطلاقة الوجه أو بكلمة طيبة - دون مداهنة أو مدح بالباطل - تألفاً له واتقاء لشره . وقد حدَّث رسول الله ﷺ، معاذاً ببعض المبشرات على التوحيد ، ولم يأذن له بأن يبشر بها الجمهور مخافة أن يتكلوا .[1]

د- اختلاف أوامره وتكاليفه باختلاف من يكلفهم من الأشخاص واختلاف قدراتهم ، فقد كان يكلف كل إنسان بما يقدر عليه ، وما يليق به ، وما يلائم حاله ؛ كما كان من أمره في حادثة الهجرة النبوية ، فقد كلف عدداً من الأشخاص بعدد من المهام المختلفة كل حسب ما يناسبه أو ما يستطيعه ، كما هو معروف في دور كل من أبي بكر -رضي الله عنه - وعلي -كرم الله وجهه - وعبد الله بن أبي بكر وأخته أسماء -رضي الله عنهم - وعامر بن أبي فهيرة وسراقة بن مالك ... في رحلة الهجرة .

وكذلك كلَّف الرسول ﷺ ، خالد بن الوليد وعمرو بن العاص

[1] انظر صحيح البخاري ،باب من خص بالعلم قوماً .

وغيرهما من الصحابة -رضوان الله عليهم - على بعض السرايا الحربية بينما كلف حسان بن ثابت وزملاءه من الشعراء المسلمين بأن يدافعوا عنه أمام هجاء شعراء قريش بسلاح الشعر ...

هـ- قبوله من بعض الأفراد موقفاً أو سلوكاً لم يقبله من غيره لاختلاف الظروف : إذ روي عنه ﷺ أنه قبل من بعض الأعراب " الاقتصار على أداء الفرائض " حين قال : " والله لا أزيد على هذا ولا أنقص " فقال رسول الله ﷺ : أفلح إن صدق " . وفي رواية أنه قال بحقه : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا ". على حين لم يقبل ذلك لغيره من أصحابه المهاجرين والأنصار .

وروى الإمام أحمد في مسنده حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال:كنا عند النبي ﷺ فجاء شاب فقال : يا رسول الله أقبل وأنا صائم ؟ قال: لا، فجاء شيخ فقال : يا رسول الله؛ أقبل وأنا صائم ؟ قال: نعم . فنظر بعضنا إلى بعض . فقال رسول الله ﷺ : قد علمت نظر بعضكم إلى بعض ،إن الشيخ يملك نفسه .

وهذا ما اتبعه علماء الأمة من تغير الفتوى بتغير الأحوال .

وهذا ما ينبغي أن يتبعه " الآباء " في توجيه " الأبناء " وتربيتهم مراعاة لظروفهم وقدراتهم الخاصة والعامة ، وأن يعاملوا كلاً منهم بما يناسبه .

القدوة الصالحة في القول والعمل:

للقدوة الصالحة أثر كبير في نفوس الأبناء ،إذ كثيراً ما يقلد الأبناء آباءهم .

وقد أكد التربويون كما أكد الواقع أن خير سبيل لإصلاح " الأب " لأبنائه أن يصلح نفسه قبل كل شيء ؛ لأن عيونهم معقودة عليه ، وآذانهم مصغية له .

كما أكد لنا رسول الله ﷺ أهمية التربية بالقدوة بقوله :" من قال لصبي تعال هاك ثم لم يعطه فهي كذبة "[1] .

وأخرج أبو داوود عن عبد الله بن عامر قال : دعتني أمي يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا ، فقالت : تعال أعطك . فقال رسول الله ﷺ: ما أردت أن تعطيه ؟ قالت : أردت أن أعطيه تمراً. فقال لها :أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتب عليك كذبة .

وما من شك في أن " الأبناء" بمراقبتهم لسلوك " الآباء " فإنهم يقتدون بهم ؛ فإن وجدوا خيراً سيقلدونهم به ، وإن وجدوا شرًّا كذلك ،وإن وجدوهم صادقين سينشأون على الصدق وهكذا في كل الأمور :

فقد أخرج أبو داوود عن عبد الله بن أبي بكرة قال : قلت لأبي: يا أبت ، أسمعك تقول كل غداة : اللهم عافني في بصري ، ولا إله إلا أنت ، تكررها ثلاثاً حين تصبح وثلاثاً حين تمسي . فقال : يا بني ،إني سمعت رسول الله ﷺ ، يدعو بهن فأنا أحب أن أستن بسنته .

---

[1] أخرجه أحمد عن أبي هريرة – رضي الله عنه .

وقد أدرك عتبه بن أبي سفيان أهمية " القدوة " في التربية فخاطب مؤدب ولده قائلاً : [1]

" ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بني إصلاحك نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما استقبحت .."

والى هذا أشار أبو العلاء بقوله :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجى ولكن يعوده التدين أقربوه

تعرف طبيعة الإنسان :

يتحمل الوالدان مسئولية تربية الأبناء مسئولية كاملة ، ويُطالبان ببذل الجهد والعمل الدؤوب في إصلاحهم وتصحيح أخطائهم ، وتعويدهم الخير على الدوام ، بالإرشاد والنصح والتوجيه ؛ لذلك قرر الإمام الغزالي - رحمه الله - في رسالته " أيها الولد " أن معنى " التربية " يشبه عمل الفلاح الذي يقلع الشوك ، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ، ويكمل ريعه "[2]

وقد أكد ابن القيم - رحمه الله - مسئولية الوالدين إذ قال :

" قال بعض أهل العلم : إن الله - سبحانه - يسأل الوالد عن ولده يوم القيامة قبل أن يسأل الولد عن والده ؛ فإنه كما أن للأب على ابنه حقًا

---

[1] البيان والتبيين ، للجاحظ ٤٨:٢، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

[2] أيها الولد : للغزالي ، ص ٣٤، مكتبة الخدمات الحديثة ، جدة ١٤١٤هـ .

فللابن على أبيه حق ، فكما قال الله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ﴾[1] قال تعالى: ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ﴾[2] .

فوصية الله للآباء بأولادهم سابقة على وصية الأولاد بآبائهم ، قال الله تعالى: ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيرا ﴾[3]..

ويتابع ابن القيم قوله : فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى فقد أساء غاية الإساءة ، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم وترك تعليمهم.. "[4]

وأول ما يجب أن يراعيه " الآباء " عند تربية " الأبناء " ونصحهم وإرشادهم تعرف طبيعة الإنسان :

فالإنسان مخلوق متميز في خلقه ، ومتميز في مكانته :

فقد خلق الله - سبحانه - الإنسان من طين ،ولكنه لم يقتصر على هذا الجانب المادي فقط بل من جانب روحي آخر ؛ إذ قال تعالى : ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل

---

[1] سورة العنكبوت ، آية ٧.

[2] سورة التحريم ، آية ٦.

[3] سورة الإسراء ،آية ٣١.

[4] انظر: أحكام المولود ،لابن القيم.

نسله من ماء مهين ثم سوَّاه ونفخ فيه من روحه ﴾[1] وقال -جل شأنه:- ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾[2].

وهذا يعني أن " الإنسان " ليس جسداً خالصاً يخضع للضرورات القاهرة من طعام وشراب وجنس .. إلخ، وليس روحاً خالصة طليقة من القيود ترفرف حيث تشاء ، لا تخضع لضرورة ولا تتأثر بقيود الزمان والمكان والوجود والفناء وثقل الجسم المنجذب إلى الطين .

ولكن الإنسان مزيج من الضرورة القاهرة ، والإشراقة الطليقة ،وقد يغلب أحد العنصرين - أحياناً - الآخر.

وهذا يعني أن " الإنسان " يسير بجسمه على الأرض وهو متطلع بروحه إلى السماء ، وأنه ليس شرًّا خالصاً ؛ وإنما فيه الاستعداد للخير والشر ، وأن لديه استعدادا يُقدره على النهوض والارتقاء وتقبل النصح والإرشاد والتوجيه ، والانصياع إلى الأوامر والتوجيهات ، كما أن فيه ضعفا يجره إلى الخطأ والزلل والنقص .

وهنا تظهر أمور لها أثرها في تحقيق السعادة والصلاح والفلاح للفرد والمجتمع كالعقيدة والأخلاق والعلم والشعور بالمسئولية وتحقيق إنسانية الإنسان ، وتظهر أهمية اهتمام الآباء بالفضائل والأخلاق والأعمال الصالحة التي ينبغي أن يوجهوا أبناءهم تجاهها من خلال ما يناسب هذه " الطبيعة الخاصة "للإنسان وما لديه من مواهب واستعدادات واتجاهات تحتاج إلى من يربيها وينميها ويوجهها لا من يكبتها ، ولا يتركها تتبدد هنا وهناك من غير فائدة .

---

[1] سورة السجدة ،آية ٨.

[2] سورة الحجر ،آية ٢٩، وسورة ص ، آية ٧٢.

وهـذا كله مما يضع "الآبـاء " أمـام مسئولية " تربيـة " الأبنـاء لما لذلـك مـن أثـر في حيـاة الأبنـاء وإعدادهـم مـن خـلال عمليـات النصـح والإرشـــاد والتوجيـه الـتي يقـوم بهـا الآبـاء في سـبيل تكويـن جيـل واعٍ يـدرك مسـئوليتة ، وينتهـج الأسـلوب القويـم الـذي يحقـق لـه التكيـف والمواءمـة مـع كـل جـانب مـن جوانـب بيئتـه الماديـة والاجتماعيـة والنفسـية ؛ بحيـث يسـتطيع أن يـؤدي " رسـالته " الـتي خلقـه الله مـن أجلهـا.

وصـدق الشـاعر إذ يقـول :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلـت ولايلين إذا قومتـه الخشـب

وقال آخـر :

إذا الـمرء أعيته المروءة ناشئـاً فمطلبها كهـلاً عليه عسير

مما يؤكـد أهمية اسـتغلال هـذه المرحلـة الخصبـة المجدية في تربيـة الأبنـاء وتعليمهـم وإرشـادهم ، مـن خـلال معرفـة دقيقـة لأصـول " الإرشـاد " و" النصـح " و" التوجيـه " ، لأن أبنـاء الأمـة اليـوم هـم أمـل الغـد وعـدة المسـتقبل الذيـن تعقـد عليهـم الآمـال ، وتحقـق بهـم الأهـداف .

ومـا مـن شـك في أن أشـد مـا يلقـاه " المربـي " للناشـئة مـن متـاعب ألا يجـد صـدى لتربيتـه في نفوسـهم ، أو يجـد صـدى عكسـيًّا لم يكـن ينتظـره أو يتوقعـه منهـم؛ لحسن ظنـه بهـم ، ولثقتـه بحسـن تربيتهـم ، وعراقـة محتدهـم .

وتكـون صدمتـه عظيمـة حـين يجـد البـون شاسـعاً بـين واقعهـم وبـين الصـورة المثالية التي رسمهـا لهـم في مخيلتـه.

ولكننـا نهمـس في آذان الآبـاء والمربـين قـائلين : نخشـى أن تكونـوا أنتـم وراء مـا صـار إليـه "الأبنـاء " ممـا تتخيلونـه انحرافـاً عـن الطريـق السـوي ؛ لأن أولئـك

الأبناء قد نشأوا في جيل غير جيلكم ، وعاشوا ظروفاً غير ظروفكم، وليس شرطاً أن تروهم صورة من جيلكم ، وأن تكون تصرفاتهم صورة طبق الأصل لتصرفاتكم ؛ لأنهم خلقوا لجيل غير جيلكم ، وأعدوا لفترة زمنية غير فترتكم .

لذا ينبغي أن يتنبه الآباء والمربون إلى أن تربية الأبناء دقيقة ؛بل غاية في الدقة ، إذ ليس كل وضع من الأوضاع أو أسلوب من أساليب الحياة يمكن أن يكون قاعدة ثابتة تصلح لكل زمان ومكان ؛ مما يؤكد أهمية اليقظة والفطنة والمرونة والحكمة في نصح الأبناء وتوجيههم بما يتناسب مع ثوابتنا الإسلامية أولاً ويتناسب مع ظروف الأبناء الاجتماعية ، مع التأكيد على أهمية إعطاء الأبناء شيئاً من الثقة ، وشيئاً من الحب وشيئاً من الأمل لنضمن استجابتهم وإقبالهم على سماع نصائحنا ووصايانا وتنفيذها ثانياً .

ويبقى أن نؤكد أنه ليس هدفنا في هذه الدراسة أن نسرد المضامين الوعظية والإرشادية التي تضمنتها " وصايا الآباء إلى أبنائهم " دون أن نستنبط العبر ، ونستخلص الأهداف التي يمكن أن يهتدي بها الناشئة في حياتهم مما يعمل على عصمتهم من الزلل ويحقق فيهم ما يصبو إليه الآباء وما ينشدونه من التنشئة السليمة والتربية الصحيحة في إطار ثوابتنا الإسلامية من جانب ومتطلبات "الأبناء" وإعدادهم للمستقبل من جانب آخر .

الفصل الأول

المحددات التاريخية لوصايا الآباء للأبناء

- وصايا الآباء إلى الأبناء في العصر الجاهلي
- وصايا الآباء إلى الأبناء في عصر صدر الإسلام
- وصايا الآباء إلى الأبناء في العصر الأموي
- وصايا الآباء إلى الأبناء في العصر العباسي
- الوصايا الأندلسية
- وصايا الآباء إلى الأبناء في عصر المماليك والأتراك
- وصايا الآباء إلى الأبناء في العصر الحديث

الفصل الأول

المحددات التاريخية لوصايا الآباء للأبناء

اقتضت سنة الله -سبحانه - في خلقه أن يكون الآباء للأبناء سماء ظليلة ، وشمساً منيرة ، وسحباً منيلة ، يشحنونهم بكل أدب وفضيلة ، ويمنحونهم كل فائدة جليلة ، ويخشون عليهم من كل أذى أو عيب ، ويرونهم أغلى ما وهبهم الله ، وأثمن شيء في هذه الحياة ، فقد قال الشاعر : [1]

ولولا بنيات كزغب القطا — حططن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع — في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا — أكبادنا تمشي على الأرض
إن هبت الريح على بعضهم — تمتنع العين من الغمض

إذ جسد مدى حب الإنسان لأبنائه ومدى حرصه على تفهم وتوفير ما يحتاجونه في هذه الحياة حين أكد أن خوفه على بناته من التشرد والضياع بدافع حبه لهن حال دون ابتعاده عنهن ، ودفعه إلى رعايتهن والعناية بتربيتهن وتنشئتهن بعيداً عما يكدر عيشهن من المسببات والدواعي .

وقد أكد رسول الله ﷺ مكانة الأبناء في نفوس الآباء بقوله : [2]

---

[1] الأبيات لحطان بن معلى الطائي . العقد لفريد ، لابن عبدربه ٢:٢٧٤ ، تحقيق الدكتور عبد المجيد الترحيني ، محاضرات الأدباء ١: ٣٢٢ ، للراغب الأصفهاني ، دار مكتبة الحياة ، بيروت،١٩٦٦م.

[2] حديث مرفوع ، ويروى : " ريح الولد من الجنة " انظر العقد الفريد ٢:٢٧٤ ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٧هـ /١٩٩٧م ،، ومحاضرات الأدباء ١: ٣٢٠.

" الأولاد رياحين الجنة " .

كما ضرب عبد الله بن عمر – رضي الله عنه– مثلاً رائعاً لمحبة الآباء للأبناء حين لامه بعضهم على حبه لابنه سالم فقال:[1]

يلومونني في سالم وألومهم وجلدة بين العين والأنف سالم

ورسم الأحنف بن قيس صورة رائعة لمحبة الآباء لأبنائهم وحدد بعض أصول تربيتهم في رده على معاوية بن أبي سفيان حين سأله قائلاً : يا أبا بحر ، ماذا تقول في الولد ؟ قال : ثمار قلوبنا ،وعماد ظهورنا ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحونك ودهم ، ويحبوك جهدهم ، ولا تكن عليهم ثقيلاً ؛ فيملوا حياتك ، ويحبوا وفاتك . فقال معاوية: لله أنت يا أحنف ! لقد دخلت عليَّ وإني لمملوء غضباً على يزيد، فسللته من قلبي .[2]

ومما يجسد حب الأب لأبنائه ما قاله أعرابي وهو يرقص ولده :[3]

أحبه حب الشحيح ماله قد كان ذاق الفقر ثم ناله

إذا يريد بذله بدا له

إذ صور حبه لولده بهذه الصورة الفنية النابعة من حياة الأعرابي الذي

---

[1] العقد الفريد٢: ٢٧٣ .

[2] نفسه ٢٧٣:٢، جمهرة خطب العرب ٣٥٨:٢ .

[3] الأمالي ، لأبي علي القالي ٤٠:٢ وتنسب إلى محمدبن السري بن سهل السراج (أحد أئمة الأدب والعربية .العقد الفريد ، لابن عبد ربه ٢٧٥:٢ ، وتنسب إلى إمرأة في العقد الفريد ٢٦٢:٤ (انظر: كتاب الدراري في الذراري لابن العديم وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي، ص٤٤، ووفيات الأعيان لابن خلكان٥٠٣:١ ، الترقيص والغناء للأطفال عند العرب ، لأحمد عبد التواب عوض، ص٦٠،دار الفضيلة للنشر والتوزيع ، القاهرة، (د.ت)).

أدرك مدى شح الفقير إذا اغتنى.[1]

لذا فليس غريباً أن يحرص الآباء على تنشئة أبنائهم التنشئة الاجتماعية التي يرغبون، وأن يمحضوهم تلك الوصايا التي تحمل روح التجريب، ومعاني الخبرة، من الذين أدركوا سر الحياة، وعرفوا مداخلها ومخارجها؛ لإدراكهم أن لها أثرها الفعال في نفوسهم، ولإدراكهم أن الإنسان " يصغي ويرغب في سماع النصيحة من محبيه، وناصحيه، إذ يصبح النصح في هذه الحالة ذا تأثير بليغ في نفس المخاطب؛ لا سيما حين يكون صادراً عن محبة، ومن القلب إلى القلب، وأن النصح عندما يكون من والد محب أو والدة أو أخ كبير فإنه قد يغير مجرى حياة الإنسان ".[2]

وقد سجلت لنا كتب الأدب ودواوين الشعراء كثيراً من "الوصايا" التي جسدت حرص الآباء على تربية أبنائهم التربية الحسنة، وتنشئتهم التنشئة الاجتماعية المناسبة، وإعدادهم الإعداد الخلقي القائم على العفة والشجاعة والكرم...إلخ منذ أقدم العصور الأدبية حتى شكل هذا اللون فنًّا أدبيًّا خاصًّا عرف بأدب الوصايا، وقد مثلت " وصايا الآباء إلى الأبناء " وما يمت إليها بصلة كالنصائح والمواعظ النصيب الأوفى من هذا الفن، كما حظيت بالنصيب الأوفى من حجم الفنون الأدبية التي شكلت أدب البنوة، وهي الوصايا، والخطب،

---

[1] قيل إن ابن السراج (الذي تنسب إليه الأبيات) لم يرزق ولداً، وبقي يندب حظه، واسود قلبه من الحرمان، وكان يتشوق إلى طفل يلاعبه، ثم أنعم الله عليه بغلام؛ فبدل بؤسه فرحاً وحزنه مرحاً.(انظر المراجع في الحاشية السابقة).

[2] نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، محمد فاضل الجمالي، ص١١ الدار التونسية للنشر والتوزيع تونس ١٩٧٢م (بتصرف).

والرسائل ،والأمثال ، والحوارات الأدبية ، وصورت بعض الدراسات حجمها على النحو التالي:[1]

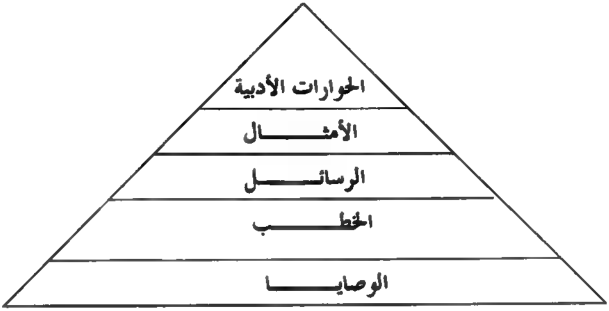

ونظراً لأهمية " أدب الوصايا " فقد صنفت فيه المصنفات الخاصة ، وضم بعض المصنفات كثيراً من "الوصايا" مما يؤكد مكانة هذا " الفن " في أدبنا العربي ومن ذلك :

المعمرون والوصايا ، لأبي حاتم السجستاني .

كتاب الوصايا ، لدعبل الخزاعي .

كتاب الوصايا ، لصفوان بن يحيى الكوفي .

كتاب الوصايا، لعثمان بن عيسى الكلابي.

كتاب الوصايا، لأحمد بن عمر بن مهير الشيباني .

كتاب "المعمرون" ، لابن عدي الأخباري.

الدرة المضيئة في الوصايا الحكيمة ، لأبي بكر الشيباني.

وصايا ملوك العرب ، ليحيى بن أحمد الوشاء.

[1] أدب البنوة في نثر العصر الأموي والعباسي الأول، رجاء محمد عودة، ص٦.

الوصايا الخالدة، لعبد البديع صقر وزميلة.

جمهرة وصايا العرب، لمحمد بن نايف الديلمي .

وصايا الآباء للأبناء ، لصالح بن عبد الله السليمان.

الوصايا في الأدب العربي القديم ، للدكتورة سهام الفريح .

وصايا العلماء والملوك في حسن السيرة والسلوك، لعبد العزيز بن محمد الأحيدب.

أروع ما قيل من الوصايا، لإميل ناصيف.

هذا إلى جانب الكتب الأدبية التي ضمت عدداً من الوصايا مثل :

الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني .

الأمالي ، لأبي علي القالي.

الأمالي ، للسيد المرتضى.

البصائر والذخائر ، لأبي حيان التوحيدي .

البيان والتبيين ، للجاحظ.

خزانة الأدب ، لعبد القادر البغدادي .

صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، للقلقشندي.

العقد الفريد ، لابن عبد ربه.

عيون الأخبار ، لابن قتيبة الدينوري .

الكامل في التاريخ ، لابن الأثير.

كتاب لباب الآداب ، لأسامة بن منقذ .

معجم الأمثال ، للميداني.

تاريخ العرب قبل الاسلام، المنسوب للأصمعي .

نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني.

الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب.

العبر ، لابن خلدون.

المغرب في حلي المغرب ، لابن سعيد المغربي.

جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت.

جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت.

نهج البلاغة.

تاريخ الطبري.

نهاية الأرب ، للنويري .

حلية الأولياء ، لأبي نعيم الأصفهاني .

المفضليات ، للمفضل الضبي.

جمهرة الأمثال ، لأبي هلال العسكري.

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، لمحمود شكري الألوسي.

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، لجواد علي.

هذا فضلاً عن الدواوين الشعرية التي ضمنها أصحابها وصاياهم الشعرية لأبنائهم وأقوامهم ، والكتب التي خصصها بعض الآباء لوصاياهم لأبنائهم ، كما سيتضح لنا فيما بعد - إن شاء الله - .

وقد حفظت لنا هذه المصادر كمًّا هائلاً من **"الوصايا"** التي وجهها الآباء إلى أبنائهم منذ أن عمر الإنسان الأرض ، وأسس على ظاهرها " الأسر"

و"المجتمعات" إذ نقلت لنا تلك المصادر ما ينسب إلى الأنبياء الأولين لأبنائهم كوصية نوح – عليه السلام – إذ قال لابنه: [1]

" يا بني، لا أُطوِّل عليك لتكون أجدر ألا تنسى، اثنتان لَتستبشر بهما الله – عز وجل– وصالح خلقه، فأما الاثنتان التي يستبشر الله – عز وجل– منهما وصالح خلقه فشهادة أن لا إله إلا الله؛ فإن السموات والأرض وما بينهما لو كن حلقة لفصمتهما ، ولو كن في كفة لرجحت بهن ، وسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة الخلق ، وبها يرزقون ، وأما الاثنتان التي يحتجب الله – عز وجل – منها وسائر خلقه، فالشرك به والكبر".

وهي وصية تناسب سلوك الابن الذي قال فيه تعالى [2] :

﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ .

إذ أكدت هذه الوصية أهمية أن تختلف الوصايا باختلاف المواقف، وأن الحكيم هو الذي يحسن مراعاة مقتضى الحال والذي لا يستخدم اللفظ إلا في موضعه .

---

[1] وصايا العلماء عند حضور الموت، للحافظ أبي سليمان محمد بن عبد الله بن زبر الربعي ، تحقيق صلاح محمد الخيمي،ص٣٠-٣١ ط ٣ سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، دار ابن كثير ، دمشق / بيروت، وحفظتها بعض كتب السنة عن الرسولﷺ ، كالمسند ، لأحمد بن حنبل ٢: ١٧٠، ٢٧٥ في الوصايا والزهد، ومجمع الزوائد للهيثمي ، في باب الوصايا ٤: ٢١٩.

[2] سورة هود الآيتان ٤٥-٤٦ .

وقد وردت هذه الوصية بصيغة أخرى ، إذ قال رسول الله ﷺ : " ألا أحدثكم بوصية نوح ابنه ؟ قال :

" آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين : آمرك بقول لا إله إلا ا لله ؛ فإنها لو كانت في كفة والسموات والأرض في كفة وزنتها ، ولو وضعتها على حلقة قصمتها ، وقل سبحان الله وبحمده فإنها عبادة الخلق، وبها تقطع أرزاقهم ، فإنهما يُكثر ان لمن قالهما الولوج على الله – عز وجل –. وأنهاك عن الشرك والكبر؛ فإن الله محتجب عنهما"[1].

وكوصية هود– عليه السلام –لبنيه إذ قال :[2]

" أوصيكم بتقوى الله وطاعته ، والإقرار بوحدانيته، وأحذركم الدنيا فإنها خداعة غَرّارة غير باقية لكم، ولا أنتم باقون عليها، فاتقوا الله الذي إليه تحشرون ، ولا يغرنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين".

وأوصى داوود –عليه السلام – ابنه سليمان –عليه السلام – حاثًا على طلب العلم بقوله :[3]

" لُفَّ العلم حول عنقك ، واكتبه في ألواح قلبك" وقال له أيضاً [4]:**" اجعل العلم مالك والأدب حليتك ".**

ومن وصايا داود – عليه السلام – لابنه سليمان – عليه السلام –

---

[1] وصايا ومواعظ العلماء للأمراء ، خالد سعيد علي ص١٢٥.

[2] ملوك حمير وأقيال اليمن ص ٣، وصايا الملوك وأبناء الملوك، المنسوب لدعبل الخزاعي ، ص ٢٤، المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب ، لعبد الرحمن بن حمد بن زيد المغيري ص ١٣–١٤ المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، ط ٢ سنة ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.

[3] العقد الفريد ، لابن عبد ربه ٢ :٧٩ .

[4] العقد الفريد ، لابن عبد ربه ٢ :٧٩.

-أيضاً - قولـه :[1]

"يـا بـني لا تستقلن عـدوًا ،ولا تستكثرن ألـف صديـق"

ومـن وصايـا لقمـان لابنـه حفظـت لنـا كتـب الأدب كمًّـا وافـراً مــن الـدرر القوليـة الـتي تـترجم الحكمــة الـتي آتـاه الله بقولـه :﴿ ولقـد آتينـا لقمـان الحكمـة ﴾ [2] وأن أهـم حكمـه مـا جـاء في عظاتـه لولـده ، الـتي خلـد القـرآن الكريـم بعضهـا في قولـه تعـالى :﴿ وإذ قـال لقمـان لابنـه وهـو يعظـه يـا بـني لا تشـرك بـالله إن الشـرك لظلـم عظيـم * ووصينـا الإنسـان بوالديـه حملتـه أمـه وهنـا علـى وهـن وفصالـه في عـامين أن اشـكر لي ولوالديـك إلي المصير * وإن جـاهداك علـى أن تشـرك بي مـا ليـس لـك بـه علـم فـلا تطعهمـا وصاحبهمـا في الدنيـا معروفـا واتبـع سـبيل مـن أنـاب إليَ ثـم إليَ مرجعكـم فـأنبئكم بمـا كنتـم تعملـون * يـا بـنيَ إنهـا إن تـك مثقـال حبـة مـن خـردل فتكـن في صخـرة أو في السـموات أو في الأرض يـأت بهـا الله إن الله لطيـف خبير * يـا بـنيَ أقـم الصـلاة وأمـر بـالمعروف وانـه عـن المنكـر واصـبر علـى مـا أصـابك إن ذلـك مـن عـزم الأمـور * ولا تصعـر خـدك للنـاس ولا تمـش في

---

[1] كتاب الآداب ، لجعفر بن شمس الخلافة ،ص٣٤ عن أدب الوصايا في التراث العربي ،د. عيسى العاكوب ، مجلة التوباد، مرجع سابق ،وانظر: قوانين الوزارة للماوردي ،ص١٥٤ ، وأصول الحكم في نظام العالم، لحسن كافي الأقحصاري ؛ تحقيق نوفان رجا الحمود ، ص٢٤ ، وفي هذا المعنى نسب الأقحصاري لابن الرومي قوله:

فما بكثير ألف خل وصاحب   وإن عدوًا واحداً لكثير

[2] سورة لقمان ، آية ١٢.

الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور * واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ [1]

وهي وصية شاملة ركزت على ما ينبغي أن يهتم به المسلم في تربية ولده ، إذ تناولت :

* التركيز على عقيدة التوحيد: ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ ، والتحذير من الشرك.

* ثم تأتي العناية بالعبادات ، وأهمها الصلاة حين قال :﴿يا بني أقم الصلاة ﴾.

* وحث على تحمل أعباء الدعوة مع بيان فضل الصبر وأهميته في سبيل الدعوة : ﴿ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾ .

* ولما كان أولى الناس بالفضل والرعاية الوالدان ولو كانا كافرين فقد خاطبه قائلاً: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إلي المصير وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا

---

[1] سورة لقمان ، آية ١٣-١٩.

تطعمهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾.

* ورغبة في بيان أصول التعامل مع الآخرين وأهمية التواضع والحلم في كسب رضا الجميع فقد قال :﴿ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾.

وقد رسم القرآن الكريم في هذه الوصية التي جاءت على لسان لقمان أروع صورة للوصية التي تحمل أروع معاني الخير وأوفى صورة للحب الأبوي الدافق.

وقد جمع الأستاذ محمد خير رمضان يوسف كثيراً من حكم لقمان ووصاياه لابنه من مظانها المختلفة في سفر تجاوزت صفحاته مائتي صفحة[1] ، نختار منها قوله :[2]

" يا بني ، تَفَهَّم الحكمة وأخلاقها كلها ، واجعلها لك شغلاً، وفرغ نفسك لها . أسرع إذا كسبتها ، وأبطئ إذا أنفقتها ، وقر عيناً إذا جمعتها ، واعلم أن الحكمة لا تصلح إلا باللين ،وإن اللين جراب الحكمة، وإن مثل الحكمة بغير تدبير بمنزلة مال في يدي غير خازنه أباحه سارقاً ووجده معوزاً أو كمثل غنم تروح في غير زريبة أتاها الذئب فوجدها ضائعة فأكلها. وتعاهد –مع ذلك– لسانك ، واعلم أن اللسان

---

[1] صدر عن دار القلم بدمشق والدار الشامية ببيروت ط٢ سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٤م. تحت عنوان "لقمان الحكيم وحكمه " .

[2] نفسه ص١٢٧.

باب الحكمة ، فإذا ضيعت الباب دخل من لا تريد أن يدخل ، فإذا حفظته حفظت الخزانة، وإن من ملك لسانه إن قال قال بعلم ، وإن صمت صمت بحلم ، إذا رأى لقوله قراراً تكلم ، وإن لم ير له قرارا ؛ فإذا استنطقه من يريد الدين اجتهد وإذا استنطقه السفهاء صمت .

يا بني ، أكرم حكمة الله ولا تضيعها عند من تهون عليه، ولا تبخل بها عند من يريد حفظها " .

وليس غريباً أن يركز لقمان في هذه الوصية على " الحكمة " التي تولدت نوراً في قلبه ،وصدقاً على لسانه ، والتي قال عنها بعضهم : إنها العقل والفهم والفطنة والإصابة في القول ، ومعرفة الموجودات ، وفعل الخيرات ، وتوفيق العمل بالعلم .[1] وقال عنها محمود شكري الألوسي بأنها :[2] كمال حاصل باستكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية ، واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها .

وقد فسر بعض العلماء الحكمة بأنها الموعظة في قوله تعالى : ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ ؛ لذا فليس غريباً أن تكثر المواعظ والوصايا على لسان لقمان لابنه مما تردد كثيراً في كتب الأدب والتاريخ والتفسير والزهد[3] . حتى أن

---

[1] نفسه ٢٣.

[2] روح المعاني ، لمحمود شكري الألوسي ٢١:٨٣.

[3] من المصادر التي جمع منها الأستاذ محمد خير رمضان حكم لقمان ووصاياه :البداية والنهاية ،لابن كثير، العقد الفريد،لابن عبدربه ، تفسير القاسمي ، روح المعاني للألوسي ، كتاب الزهد ، البيان والتبيين للجاحظ ، الظرف والظرفاء للوشاء ، كتاب الأذكياء لابن الجوزي ، المستطرف في كل فن مستطرف . للأبشيهي ، خزانة الأدب للبغدادي ، عين الأدب والسياسة لابن هذيل ، بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر القرطبي ...وغيرها .

ابن مسكويه قد خص وصايا لقمان بباب أسماه " ما اخترته من وصايا لقمان لابنه في كتاب "الحكمة الخالدة " .

ونقلت لنا كتب الأدب كثيراً من وصايا الآباء إلى أبنائهم في الجاهلية الأولى أو " العرب الأولية " على نحو ما هو معروف في كتاب "تاريخ العرب الأولية " للأصمعي الذي جمع فيه وصايا قحطان والملوك من أبناء هود - عليه السلام -.وكتاب وصايا الملوك وأبناء الملوك "لابن اسحق الوشاء " . [(١)] ومن ذلك وصية قحطان الذي قيل إنه أول من لبس التاج، وأول من سلم عليه بأبيت اللعن ، وكان له من الولد : يعرب ، وجرهم، وعمان ، وحضرموت ، والحارث ،كما ذكره البيهقي ، وقيل كان له عشرة من الولد فقال لهم :[(٢)]

" يا بني ، إنكم لم تجهلوا ما نزل بعاد دون غيرهم حين عتوا على ربهم ، واتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله ، وعصوا أمر ربهم وأمر نبيهم هود ،وهو أبوكم الذي علمكم الهدى وعرفكم سواء السبيل ، وما بكم من نعمة فمن الله ، وأوصيكم بذي الرحم خيراً ، وإياكم والحسد ، فإنه داعية إلى القطيعة فيما بينكم ".

وأما يعرب بن قحطان الذي تنسب إليه اللغة العربية وأنها مشتقة من اسمه ، لأنه أول من نطق بها ، وهو أعظم ملوك العرب على اليمن ، وأول من

---

(١) المعمرون والوصايا لأبي حاتم السجستاني ، تحقيق عبد المنعم عامر ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٦١م(المقدمة ص ق)، الوصايا في الأدب العربي القديم ،للدكتورة سهام الفريح ،ص٨ ،ط١ سنة ١٤٠٨ هـ /١٩٨٨م ، مكتبة المعلا الكويت .

(٢) ملوك حمير وأقيال اليمن ، ص ٦-٧، وصايا الملوك وأبناء الملوك ص ٢٦ ، والمنتخب في ذكر نسب قبائل العرب ، ١٤-١٦.

حياه قومه بتحية الملك ، فقد جمع بنيه وأوصاهم وقال لهم :[1]

" يا بَنيَّ ، احفظوا مني خصالاً عشراً ، تكن لكم ذكراً وذخراً، يا بني، تعلموا العلم واعملوا به ، واتركوا الحسد عنكم ولا تلتفتوا إليه فإنه داعية إلى القطيعة فيما بينكم ، وتجنبوا الشر وأهله ، فإن الشر يجلب إليكم الأشرار ، وأنصفوا الناس من أنفسكم لينصفوكم من أنفسهم . وإياكم والكبرياء ،فإنها تبعد قلوب الناس عنكم ، وعليكم بالتواضع فإنه يقربكم من الناس ويحببكم إليهم ،واصفحوا عن المسيء فإن الصفح عن المسيء يحسم العداوة ويزيد مع السؤدد سؤددا ومع الفضل فضلا وافرا ، وآثروا الجار الدخيل على أنفسكم فإن جماله جمالكم . ولأن يسوء حال أحدكم خير له من أن يسوء حال جاره ،لأن تفقد الناس للمقتدي أكثر من تفقدهم للمقتدى، وانصروا الموالي فإنهم مواليكم في الحرب والسلم ، وحقهم عليكم مثل حق أحدكم على سائركم ، وإذا استشاركم أحد فأشيروا عليه بما تشيرون به على أنفسكم ، فإنها أمانة ألقاها في أعناقكم والأمانة ما قد علمتم .وتمسكوا باصطناع الرجال فإنه أجدر أن تسودوا به غيركم . وأحرى أن يزيدكم ذلك شرفاً وفخراً إلى آخر الدهر".

ثم أنشأ يقول :

بنيَّ أبوكم لم يعدُ عَمًّا   به وصاة قحطان بن هود
فوصاكم بما وصى أباكم   أبوه عن أبيه عن الجدود
أذيعوا العلم ثم تعلموه   فما ذو العلم كالكَلِّ البليد

---

[1] ملوك حمير وأقيال اليمن ، ص ٨-٩، ووصايا الملوك وأبناء الملوك، ص ٢٧-٢٩ ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، تأليف عبد الملك بن قريب الأصمعي ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ص٩-١١ ، رسائل الآباء إلى الأولاد ، وتحرير إيقاف جونس ، ترجمة لطفي الخوري والدكتور محمود الأمين ، ص٨٥-٨٦ مجمع الرسائل ص١٨-١٩ .

ولا تصغوا إلى حسد فتغووا — غواية كل مختبل حسود
وكونوا منصفين لكل دان — لينصفكم مع القاصي البعيد
وذودوا الشر عنكم ما استطعتم — فليس الشر من خلق الرشيد
وباب الكبر عنكم فاتركوه — فإن الكبر من شيم العبيد
عليكم بالتواضع لا تزيدوا — على فضل التواضع من مزيد
وإن الصفح أفضل ماابتغيتم — به شرفا مع الملك العتيد
وحق الجار لا تنسوه فيكم — فإن الجار ذو الحق الوكيد
عليكم باصطناع الخير فيكم — تنالوا كل مكرمة وجود

ولما ولي يشجب بن يعرب ملك أبيه من بعده وثبت على هذه الوصية دون غيره من سائر إخوته وعشيرته ، فقد ساد الجميع بثباته على هذه الوصية وحفظه لها وتنفيذ ما فيها من مكارم الأخلاق . ثم وصى بنيه بقوله :[1]

" يا بنيَّ ، إني لم أسد إخوتي وعشيرتي إلا بحفظي وصية أبي يعرب بن قحطان ، وبعملي بها ، وثباتي عليها ، وإن أبي يعرب بن قحطان لم يسد أخوته وعشيرته إلا بحفظ وصية أبيه هود –عليه السلام– وحفظه إياها وعمله بها ، فأقيموا على ما وجدتموني عليه وهو الذي أنهيه إليكم، فاحفظوا ذلك واثبتوا عليه ، واعملوا به ،والله خليفتي عليكم والرشيد المهتدى منكم..." .

إذ ركز على أهمية التمسك بوصايا الآباء ونصائحهم لما لها من آثار في تربية " الإنسان " وتهيئته جاعلاً من نفسه قدوة حسنة لأبنائه حين طبق هذا المبدأ والتزم بوصية والده التي عدها من أهم أسباب سيادته وشرفه وعلو شأنه .

---

[1] وصايا الملوك وأبناء الملوك ،ص ٢٩–٣٠، ملوك حمير وأقيال اليمن ، ص ١٠، المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب، ص ١٦–١٧.

وما من شك في أن هاجس الموت قد دعا كثيراً من ملوك الجاهلية الأولى إلى أن يحضوا أبناءهم وأقوامهم وصاياهم ، ومن ذلك أن سبأ جمع أهل مملكته وأهل بيته وعشيرته ، وأجلس ابنه حمير عن يمينه، وأجلس ابنه كهلان عن شماله ، ثم قال: أيها الناس أعطوني عهودكم ومواثيقكم إن بغت يميني على شمالي أن تمنعوها ، أو شمالي على يميني أن تمنعوها ، فأعطوه العهود والمواثيق على ذلك. ثم قال لهم : إني لم أرد بيميني وشمالي إلا حميرا وكهلان، إني لم آمن أن يختلفا بعدي في الأمور ، ولم آخذ العهود والمواثيق عليكم إلا لتحولوا بعدي بين من يروم من هذين لصاحبه سوءا وخلافا ، ويطلب أحدهما بعدي أكثر مما يقسم له، إن حمير أكبر من كهلان، وحقه أن يكون عن يميني، وكهلان أصغر من حمير وحقه أن يكون عن شمالي، وإن نصيب حمير من ملكي مثل نصيب يميني من بدني، وإن نصيب كهلان من ملكي مثل نصيب شمالي من بدني.

فيا أيها الناس انظروا ما يصلح لليمين فادعوه لليمين، وانظروا ما يصلح للشمال من الملك فادفعوه للشمال، فدفعوا لليمين السيف والقلم والسوط، وحكموا لليمين بذلك ،وقالوا: هذه ثلاثة أشياء تعمل بها اليمين ولا تعمل بها الشمال دون اليمين ، ثم حكموا بأن صاحب السيف لا يصلح له إلا الثبات والوقوف في موضعه ، وحكموا بأن صاحب القلم لا يكون إلا مدبراً فائقاً راتقاً، وحكموا أن صاحب السوط لا يكون إلا سائساً ، ثم حكموا أن الوقوف والثبات والفتق والرتق والتدبير والرياضة والسياسة لا تكون إلا للملك الأعظم الراتب في دار المملكة ومكابدة الأعداء . وحكموا أن الرأس يرد به البأس وتقهر به الحروب عند التلاقي وتجشم به المعارك . ثم حكموا بأن قيادة أعنة الخيل ومكابدة الأعادي حيث كان ورد البأس والقهر عند التلاقي ومناوأة الأعداء

ومناصاتها [1] لا تصلح إلا لصاحب الدولة والذّاب عنها ، والرامي عن حوزتها ، والساد لخللها ، والقائم لحروبها، وإصلاح الثغور وسدها، وهو كهلان .

فتقلد حمير الملك الراتب في دار الحكومة وسلم إليه ، وسمي " أيمن" لجلوسه عن يمين أبيه ، وتقلد كهلان الأطراف والثغور وأعمالها وحروبها ومناوأة الأعادي ومناصاتها حيث كانت .

وكان لكهلان على حمير المعونة من المال والنجدة، ولحمير على كهلان الطاعة وكفاية ما تقلده .

ثم إن حمير وكهلان لم يزالا على ذلك، وكذلك أولادهما من بعدهما وأولاد أولادهما .

ونظراً لنجاح هذا الوفاق بين الأخوين وما لقياه من الأمن والاطمئنان فقد استمرأ حمير حلاوة الوفاق والوئام واستشعر أهمية ذلك فأوصى بنيه قائلاً:[2]

" يا بني ، ما اجتمع اثنان متآزران متعاضدان على أربعة أو خمسة من أشتات الناس إلا غلباهم ، وملكا أسرهم وقيادهم ، وما اجتمع خمسة نفر متعاضدون متآزرون على عشرة من أشتات الناس إلا غلبوهم وملكوا أسرهم.

وأيما عصابة غلبت أربعين رجلاً يوشك أن تغلب المائتين، وغُلاّب المائتين حريون أن يغلبوا الألف . وما من رجل أطاعه واحد فقام له بالمجازاة إلا أطاعه عشرة ، وما من رجل أطاعه عشرة فقام لهم

---

[1] مناواة الأعداء : معادتهم ، ومناصاتها : أي مخاصمتهما والاحتكاك بها .

[2] ملوك حمير وأقيال اليمن ،ص ١٥-١٦، ووصايا الملوك وأبناء الملوك ص ٣٤-٣٥ ، المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب ٢٠-٢١ .

بمجازاتهم إلا أطاعه مائة ، وما من رجل أطاعه مائة فقام لهم بمجازاتهم إلا أطاعه ألف ، وما من رجل أطاعه ألف إلا وقد ساد لا محالة . ومن ساد فقد ملك ، ومن ملك فقد أوتي المنتهى من أمله في دنياه .

يا بني ، أطيعوا الأرشد منكم ، ولا تعصوا الهميسع [1] فإنه خليفتي عليكم ، وأمين فيما بينكم ، وإنه لسيفكم . وأنتم حد السيف ، وإنه لرمحكم ، وما السنان لولا الرمح؟! بل وما الرمح لولا السنان ؟ أنتم بالهميسع وله ، والهميسع بكم ولكم ".

ويلاحظ أن معاني هذه الوصية تتضمن معاني الآيتين ٦٥-٦٦ من سورة الأنفال وبعض ألفاظهما إذ قال تعالى : ﴿ . . . إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون* الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ .

وهذا مما يشي بدور الرواة في تهذيب مثل هذه الوصية وتطويرها ، هذا فضلاً عن المقدمة التي قدموها لهذه الوصية ، وبخاصة أن المسافة الزمنية بينها وبين عصر التدوين (القرن الثالث الهجري) مسافة توحي بذلك وقد تؤيده.

وأما زهير بن الأيمن [اسم حمير الذي جلس على يمين والده في القصة السابقة] فقد أوصى ابنه عُريبا قائلاً : [2]

---

[1] الهميسع : أحد أبناء سبأ وهم الهميسع ومالك وزيد ووائل ومسروح ومعد يكرب وأوس ومرة . (انظر المرجع السابق وانظر نسب معد واليمن الكبير ، لابن الكلبي ٢: ٢٦٧،٢٩٦) .

[2] وصايا الملوك وأبناء الملوك ، ص ٣٧، ملوك حمير وأقيال اليمن ،ص ٢٥-٢٦، المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب ٢٢-٢٣.

" يا بني ، قد انتهى إليك وصية جدك سبأ بن يشجب وما افترق عليه ابناه الوصية والقسمة، وهما جداك حمير وكهلان؛ فلا تجز أمراً إلا ما جرى عليه الاثنان من لدنهما إلى هذه الغاية، وأوص بذلك من يصلح لهذا الأمر من ولدك ، فأوصيك بالثبات على ما وجدتني عليه من العدل في الرعية، والتجاوز عن المسيء والكف عن إيذاء العشيرة، والتحبب إليهم ، فما المرء إلا بقومه وإن عزّ وعلا " .

ثم أنشأ يقول :

عريب لا تنسى ما وصى أبوك به ... إن الوصية لَمَّا يعدها الرشد
كل أمرئ عزه -فاعلم- عشيرته ... وفي العشيرة يلفى العز والعدد
ما البيت لولم يكن فوق الأساس ولم ... تقله دعم للسعف والعمد
لولا الغريف ولولا خيس غابته لما ... سطا موهنا بالقدرة الأسد
فصيلة المرء تؤويه وتعضده ... إن الذليل الذي ليست له عضد
والمرء تسلم دنياه ونعمته ... ما ليس يأتيه من إخوانه الحسد

إذ أوصاه بالابتعاد عن الفرقة والشتات ، ودعاه إلى الوحدة والالتئام مع أبناء العشيرة والإحسان إلى أبنائها ، وهذه من الأخلاق التي يلتزم بها العظماء من الحكام والسلاطين .

ولما أوصى العريب بن الأيمن أبناءه قال: [1]

" يا بَنيَّ ، إني وجدت الشرف والسؤدد والعز والنجدة والطاعة والملك يدور على ستة أشياء :

إني وجدت السؤدد لا ينال إلا بالكرم ، ولا سؤدد لمن لا كرم له ،وإني وجدت العز في العدد حيث كان ، ولا عز لمن لا عدد له،

(1) وصايا الملوك وأبناء الملوك ، ص ٣٧-٣٨، ملوك حمير وأقيال اليمن ، ص ٣٧.

ولا عـدد لمن لا عشـيرة لـه .

وإنـي وجـدت النجـدة في الأيـادي[1]، ولا نجدة لمن لا أيـادي لـه.

وإنـي وجـدت الطاعـة في العـدل ، ولا طاعـة لمن لا عـدل لـه .

وإنــي وجــدت الملــك في اصطنــاع الرجــال، ولا ملــك لمــن لا يصطنع الرجـال ليكونـوا لـه حصنـا .

يا بـني :

احفظـوا وصيـتي ، واثبتـوا عليهـا واعملـوا بهـا ،ولا تعصـوا قطنـا أخـاكم فإنـه خليفـتي عليكـم وولي الملـك بعـدي "

ويلاحـظ أن هـذه الوصايـا تتناسـب مـع الطبيعـة الاجتماعيـة للمجتمعـات العربيـة الـتي كـانت تقـوم علـى القبليـة وحاجتهـا إلى النصـرة والحميـة أمـام تلـك الصراعـات الـتي سـادت المجتمعـات العربيـة في ذلـك العصـر .

ولمـا قلـد قطـن الملـك لابنـه الغـوث وهـو لا يـزال حيًّـا خـاطب قطـن ابنـه الغـوث قـائلاً: [2]

" يـا بـني ، إنـي لم أقلـدك الملـك رغبـة عنـه ولكـني أردت أن أقـف علـى سـيرتك في النـاس وسياسـتك في الملـك، وأن أعلـم كيـف طـاعتهم لك، كي لا أخـرج من الدنيـا ولي غصـه مـن ذلـك في أمـرك وأمـر النـاس .

يـا بـني، أوصيـك بإخوانك أن تفعـل لهـم مـا فعلتـه لـك، وأن تبـذل لهـم نصيحتـك ، وأن تخفـض لهـم جنـاحك ، وأسـألك أن تفعـل بعشـيرتك مـا

---

[1] الأيادي : جمع يد ، وهي القوة والقدرة، والسلطان .

[2] وصايا الملوك وأبناء الملوك ، ص ٣٨، والمنتخب في ذكر نسب قبائل العرب ٢٣-٢٤.

سـألتك أن تفعـل لإخوانـك ، فمـا الراحـة إلا بالأصـابع ومـا السـاعد إلا بـالعضد " .

وهـذه الوصيـة لا تختلـف عـن سـابقتها مـن حيـث ترجمتهـا لجـانب مـن خـبرة السـلطان ، وترجمتهـا للقيـم والأخـلاق الـتي تربـط الإنسـان بعصـره.

وأما الغوث بن قطـن فقـد أوصـى ابنـه وائـلاً فقـال:[1]

" يـا بـني ، إن الملـك دار بناهـا الله – تعـالى– لأسـلافك فعمروهـا بـالعدل والإحسـان ، وكذلـك ورثتهـا ممـن قبلـي ، وكذلـك أخلفهـا لـك بعـدي بعمارتهـا ، فاعمرهـا بمـا كـان يعمرهـا أسـلافك . واعلـم أن الـدار مـا بنيـت حيطانهـا وشـيدت أركانهـا ، ولا يقـع في شـيء مـن بنائهـا ثلمـة ، فـإن الثلمـة يتبعهـا مثلهـا, وأوصيـك بالرعيـة خـيراً فـإن السـوام لا يصلـح إلا بمراعـاة المسـيم "

وقـد نقلـت لنـا كتـب الأدب وصيـة زرعـة بـن كعـب بـن سـهل بـن عمـرو ابن فلس بن معاويـة بـن جشـم بـن شمـس بـن وائـل بـن قطـن بـن عريـب بـن زهـير بـن أبين بن الهميسـع بـن حمـير الأكـبر لابنـه شـداد إذ قـال :[2]

" يـا بـني، لـو كـان ملـك يسـتغني بثـاقب رأيـه دون آراء النـاس لفضـل عقلـه،وكمـال معرفتـه، وبـارع أدبـه وفطنتـه، وعلـى مـا تقـدم التجـارب لأسـلافه ممـا حفظـه ورواه وأحـاط بـه مـن سـنن الأوائـل مـن آبائـه وملـوك قومـه وسـنن الماضين؛ لكنـت أغنـى النـاس عـن مشـاركة الأقيـال[3] ووصيـة الموصـين.

---

[1] وصايا الملوك وأبناء الملوك ، ص ٣٨، والمنتخب في ذكر نسب قبائل العرب ص ٣٩-٤٠.

[2] وصايا الملوك وأبناء الملوك ، ص ٤١، وملوك حمير وأقيال اليمن ، ص ٥٥. والمنتخب في ذكر نسب قبائل العرب ٢٥-٢٦.

[3] الأقيال : جميع القيل ، وهو لقب ملوك حمير في اليمن قديماً .

إلا أنه لا بد له من يعينه في الرأي والأمر والنهي ، ولا بد له من مشير يحمل عنه بعض ما يثقل عليه من ذلك ، ولا بد للولد من وصية الوالد قَلّت الوصية أو كثرت ".

وإن ركزت هذه الوصية على قضيتين هما : أهمية الإخوان والأعوان لتحمل بعض أعباء الحاكم، وضرورة وصية الأب لابنه لتكون له عوناً في حياته، ونبراساً يضيء ليل الحياة المظلم له؛ إلا أنه مما يلفت النظر في هذه الوصية تلك المقدمة أو الافتتاحية التي قدمها بين يدي وصيته وما لها من آثار نفسية في استقبال الوصية والتفاعل معها.

وضمن سلسلة هذه الوصايا نقلت لنا كتب التراث وصية أبرهة ذي المنار لابنه عمرو ذي الأذعار إذ قال له :[1]

" يا بني ،

إن الملك زرع ، والملك قيم ذلك الزرع؛ فإن أحسن القيم قيامه عليه في سقائه عند حاجته وفي إبعاد النبات عنه ، وبتعاهده إياه بالحماية عن المؤذيات من البهائم والطير زكا حصاده، وكثر محصوله وحمد القيم واستكرمت الأرض .[2] وإن كان القيم غير ذلك لم يتفقد الزرع ، ولم يتعهده بالحماية والحفظ، وأكلته الطيور وداسته البهائم ، فلا الزرع زاك ، ولا الأرض معمورة ولا القيم محمود ".

وهي دعوة إلى إتقان العمل والاهتمام به إذا أراد صاحبه استمراره وصلاح أمره ، وبيان عاقبة الإهمال وعدم الاكتراث بأداء الواجب .

---

(1) وصايا الملوك وأبناء الملوك، ص ٤٤-٤٥.

(2) استكرمت الأرض: كانت كريمة وطيبة .

وبـدوره قـام عمـرو ذو الأذعـار بتوجيـه وصيتـه لولديـه تبـع ورفيـدة فقـال:[1]

" غيركما يجهـل الملـك وسياسـته ورعايتـه وكلاءتـه ومـا يحتـاج إليـه الملـك من المداراة والمحاباة والمنـاوأة . ومـا الملـك إلا رحى تـدور علـى قطـب ؛ فـإن جعـل لها مـع ذلـك قطـب آخـر وقفـت الرحـى ومـا دارت، وتعطلـت أسبابها ،وانقطـع رجـاء أهلهـا، فهـذا لتعلمـا أن الملـك لا يسـتوي لاثنـين إلا أن يكـون أحدهمـا المقتـدي والآخـر المقتـدى بـه ، وقـد علمتمـا أن التـاج لا يسـع رأسـين ولا يجتمـع الرأسـان في تـاج أبـداً ، كمـا لا يصلـح سـيفان في غمـد واحـد ... "

ومـا مـن شـك في أن هـذه الوصيـة كـانت تمهيـداً لأمـر ابنـه " رفيـدة " للانضمـام في طاعـة أخيـه تبـع الـذي كـان أول مـن ملـك مـن التبابعـة، وهـي -أيضـاً- دعوة للوئام والوفـاق بـين أبنـاء الأسـرة الواحـدة كمـا رأينـا في الوصايـا السـابقة .

وأما التبع بن عمرو بـن حسـان بـن تبـع فقـد أوصـى ابنـه بقولـه :[2]

" يـا بـني ، إن الملـك صنعـة ، والملـك صـانع ، فـإن قـام الصـانع حق قيامـه علـى صناعتـه اسـتجادها النـاس لـه ، واسـتحكم أمـره فيهـا ، فكسـب بهـا المـال والجـاه ، وكـانت لـه عـدة وذخيـرة ، وإن اسـتهان بهـا ولم يقـم حق قيامـه عليها ذهبـت الصنعـة عـن يـده ، وتقطعـت منافعهـا عنـه ، واكتسـب الـذم لنفسـه والحرمـان ، وكـل نفـس لها مـا كسـبت وعليهـا مـا اكتسـبت"[3] .

---

[1] وصايا الملوك وأبناء الملوك ، ص ٤٦.

[2] المرجع السابق ، ص٤٧ والمنتخب في ذكر نسب قبائل العرب ، ص ٣٣.

[3] الجملتان الأخيرتان من ألفاظ الآية رقم ٢٨٦ من سورة البقرة .

وقريب من هذه الوصية الوصية التي أوصى بها المعمر لابنه ياسر ، وهو السادس من التبابعة ،إذ قال :[1]

" يا بني، إن الملك مصباح والملك واقد ذلك المصباح ، فإن حفظه من ريح تطفئه أو ذبالة لا تساعفه أو من وقود يقطع به منه أو من مستوقد يخونه دام له ذلك المصباح ، وسلم ضياؤه ونوره ما شاء أن يضيء له ، وإن بعد عنه وإن هو غفل عنه بعد أن أوقده ،ولم يقم به حق قيامه أطفأته الريح، فإن سلم من الريح لم يسلم من احتراق الذبالة ولا يؤمن عند احتراق الذبالة في موقد المصباح أن يظل المستوقد قلقا، فلا النور ساطع ، ولا المستوقد صحيح ، ولا الذبالة سالمة ، ولا الواقد محمود " .

وكما أوصى المعمر وحسان ابنيهما بأصول لحفظ الملك وتدبير أموره فقد أوصى – أيضاً – ياسر الذي تلقى الوصية السابقة من والده ابنه شمر بالوصية التالية :[2]

" يا بني ، دبِّر الملك ، فإن التدبير ثباته ، والإحسان أساسه ، والعدل قوامه ،والرجال عزه، والمال نجدته، والعشيرة عدته، فلا ملك لمن لا تدبير له ولا ثبات لمن لا إحسان له ، ولا إحسان لمن لا عدل له ولا عدل لمن لا قوام له، ولا قوام لمن لا رجال له ، ولا رجال لمن لا بذل له ".

وضمن هذه السلسلة الملكية وهذه السلسلة من الوصايا توجه ذو رعين (واسمه بريم بن زيد) إلى أهل بيته وولده بعد أن عُمِّر طويلاً حتى ضعف بصره

---

[1] وصايا الملوك وأبناء الملوك ، ص ٥٠-٥١.

[2] نفسه ص ٥١-٥٢.

وكَلَّ سمعه ، وقال لهم : [1]

" يا بني قد حفظت وصايا الأوائل من أسلافي ، وسلكت مسلك آبائي وأجدادي وأفادني الدهر بالكبر والشيب من الأدب والزيادة في المعرفة ما يصلح به المرء دنياه ومعيشته فيما أشتهي فيها، وما يحيي المآثر والمكارم أكثر مما ورثني الآباء والأجداد من ذلك "

إذ ركز على أهمية التجارب الخاصة والتجربة الذاتية في بناء شخصيه "الإنسان " واكتسابه المعارف والمحامد ، إلى جانب ما تفيده " تربية " الأسرة وتوجيهاتها .

وأما عامر بن حرب بن ذي نفار الذي ولي الملك وساسه على سنن الأوائل من أسلافه وأجداده ، واسمه عامر ، فقد أقبل على بنيه وإخوته وأوصاهم قائلاً :[2]

" ما كل موص يبلغ فيما يوصي كل ما يريد ، إن البلاغة دليل إصابة مواقع الحكم .

يا بني أطيعوا الأرشد منكم تعزوا ، ولا تعصوا أمره فتذلوا ، واجتمعوا تُهابوا وتُرجوا ، ولا تتفرقوا فتعادوا وتجووا[3] ، وأنصفوا الناس ، واعدلوا في ما يعرض عليكم من أمورهم تحمدوا ، وأحسنوا أخلاقكم معهم تسودوا ، فالشرف مع الحمد حيث كان ، والعفو مع الإنصاف حيث استبان ، والطاعة مع السؤدد ".

---

[1] نفسه ص ٥٧، المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب ، ص ٤٠.

[2] نفسه ص٥٩، المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب ، ص ٤١.

[3] الجوى : هوى باطن ، أو الحزن . (القاموس).

ولما ولي زيد ذو الكلاع الملك أقبل على بنيه وإخوته وبني عمه فقال لهم :[1]

" يا معشر الجماعة من إخوتي وولدي وبني عمي ، لو كان الملك دام لأحد لدام لأسلافكم الذين ملكوا البلاد ، فأحسنوا السيرة في أهلها ، وأخذوا للضعيف من القوي ، وأمنوا السبل ، وأذلوا الجبابرة، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، وعمروا الأرض شرقها وغربها ، وعندكم أخباره ، وما أنا بأعلمكم لأقص عليكم من أخباره ومآثرهم ومفاخرهم وما تجتزئون به عما بعده " .

ومن الوصايا القديمة التي حفظتها لنا مصادر التراث وصية عبد شمس ابن وائل بن غوث ، الملك الحميري اليماني القديم الذي أوصى بنيه بطاعة ولده الصُّوار وأوصى ولده الصوار بأصول السياسة بقوله :[2]

" يا بَنيَّ ، أوصيكم بطاعة أخيكم الصوار ، فإنه أكبركم ، وأرجاكم عندي، وأنت يا أبا السميدع [3] خليفتي بعد الله – تعالى– عليهم ، وعلى رعيتي ، واحفظ مني خصالاً لن تضل ما اقتديت بها :

اعلم أن العز لا يتبين في الحرب إلا بصدق اللقاء ، وحماية الأذمار[4] ، وذلك أمارة الغلبة ، ولا يتبين في سالم الناس إلا من مَنَع الجار ، وشموخ الأنف عن سومة الخسف ، والحمل على الدنية ، ولن تنال ذلك إلا بالرجال ، ولن تعرف معك النادر منهم إلا بإبانة قَدْرِه

---

(1) وصايا الملوك وأبناء الملوك ، ص ٦٠، المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب ، ص ٤١.

(2) ملوك حمير وأقيال اليمن ، ص ٤٤.

(3) أبو السميدع : كنية ابنه الصوار .

(4) الأذمار: الأعراض.

عمن ليس يُغني غناؤه ؛ لأنك إذا ضممتَ مساكين [1] في أحدهما قِصَرٌ وقع المِحْمَلُ على الأطوال ، وسقط الأقصر ، وكذلك الأدق من الأجدال [2] الحوامل. واعلم أن المُلك بيت أساسه العدل ، وقواعده التدبير ، وحيطانه التيقظ ، وأركانه الحزم ، وتلاحُكه [3] الشدة ، وعماده الوزراء الكُفاة ، وعوارضه [4] القادة ، ومواحضه [5] الأتباع ، ولا استقامة لمدبري المملكة ومستخرجي الإتاوة إلا بمصاقبة[6] قادة الجيوش ، ولا يحمل قائد الجيش وسائق الجماعة سوى أصحاب الخزانة، وربما وجدتَ مائة مقاتل، وأعجزك كافٍ، وكثير أن يصدق الكرَّةَ العشرةُ من المائة مقاتل ، والمائة من الألف ، والألف من عشرة أضعافه ، وأنشأ يقول:

أوصي بنيَّ وإن تقارب بينهم	فيما لديَّ بطاعة الصُّوارِ
وإليك يا صوّار أوصي بالذي	وصّى إليَّ أبوتي في الجارِ
ومحلُّ كُلِّ حيث يبلغ قدرُه	إذ مَنْ بها متفاوت الأقدار
إن الأصابعَ مُسْتوٍ آصالُها	والفرعُ بين أطاولٍ وقصار
ومِنَ الرجال الكُلُّ حيثُ توجَّهَتْ	منه الرِّكابُ وحاملُ الأوزار
والمُلك بيتٌ لا تقوم سماؤه	إلا بأعمدةٍ رست وجدار
فالبعض منه ببعضه متدافع	بالطين فوق الأرض والأحجار
ولربما عَزَّ الخيارُ وأُيدوا	واستُنصِروا في الدين بالأشرار

---

[1] المسماك: عمود ترفع به الخيمة .

[2] الأجدال : الحبال.

[3] تلاحكه : أساسه. وتلاحك البنيان : تلاءم .

[4] العوارض : خشب سقف البيت.

[5] مواحضه : المخلصون له .

[6] مصاقبه: مقاربة ، ومناسبة.

ومن الملاحظ أن هذه السلسلة الملكية من الوصايا منذ يعرب بن قحطان قد ركزت على سياسة الملك وأصول تدبير أمور الرعية ، وصفات "الحاكم " الذي اقتضته ظروف الحياة الاجتماعية في ذلك العصر ، وأنها لم تعن بنقل تجربة الموصي بصفته أبًا ينقل تجربته الحياتية الخاصة لابنه الذي يحرص على إعداده وتهيئته للحياة ، بل انصب الاهتمام فيها على جانب أساسي واحد هو حسن التلطف وجميل المعاملة للرعية وإقامة العدل إلى جانب الابتعاد عن الفرقة والانقسام بين أفراد الأسرة الحاكمة ، وذلك لحرص الآباء على رسم المنهج السليم للأبناء الذين سيتقلدون زمام الحكم بعدهم لإبعادهم عن التخبط في السياسات الضالة المضلة ، فكانت أداة من أدوات تثبيت الحكم، واستتباب الأمن، ورعاية شؤون الرعية .

ومن جانب آخر فإن هذه الوصايا تخلو من العنف وإثارة البغضاء على الخصوم والأعداء ، وما ذلك إلا لتوافر الاستقرار السياسي بين تلك السلطات والسلطات المجاورة لها – فيما يبدو .

هذا فضلاً عن أن بعض هذه الوصايا قد رسمت صورة الموصي و لم ترسم صورة للمخاطب في الوصية كما جاء في وصية زهير بن الأيمن حين أوصى ابنه عريب فقال :

"... فأوصيك بالثبات على ما وجدتني عليه من العدل في الرعية ، والتجاوز عن المسيء ، والبعد عن إيذاء العشيرة ، والتحبب إليها ، فما المرء إلا بقومه وإن عز وعلا "

وكما جاء في وصية ذي رعين إذ أوصى أهل بيته وولده قائلاً :

" يا بني ، إنني قد حفظت وصايا الأوائل من أسلافي ، وملكت ملك آبائي وأجدادي ، وأفادني الكبر والشيب من الأدب والزيادة في

المعرفة ما يصلح به المرء دنياه ومعيشته ، وما يحيي المآثر والمكارم أكثر مما ورثني الآباء والأجداد " .

ولم نجد من هذه الوصايا ما ترسم صورة المخاطب سوى ما وجدناه في بعض الافتتاحيات التي قدمها بعضهم بين يدي وصيته كقول زرعة لابنه شداد :

" يا بني لو كان ملك يستغني بثاقب رأيه دون آراء الناس لفضل عقله وكمال معرفته وبارع أدبه وفطنته ، وعلى ما تقدم من التجارب لأسلافه مما حفظه ورواه وأحاط به من سنن الأوائل من آبائه وملوك قومه وسنن الماضين كنت أغنى الناس عن مشاركة الآراء ومشاركة الأقيال ووصية الموصين ... " .

وكذلك ما جاء في مقدمة وصية عمرو ذي الأذعار لولديه تبع ورفيدة إذ قال:

" غيركما يجهل الملك وسياسته ورعاية صلاحه ، وما يحتاج إليه الملك من المداراة والمحاباة والمناوأة ...".

إذ أراد أن يثبت هذه الصفات لولديه وهو يرسم صورتهما في ذهنه عندما بدأ في مخاطبتهما حين نفى تلك الصفات عن غيرهما .

وكذلك في الوصية التي أوصى بها ملك من ملوك اليمن ولي عهده فقال : [1]

" اتق من فوقك يتقيك من تحتك ، وكما تحب أن يُفعل بك فافعل برعيتك ، وانظر كل حسن فافعله ، واستكثر من مثله ، وكل قبيح فارفضه ، وبالنصحاء يستبين لك ذلك ، وخيرهم أهل الدين وأهل النظر في العواقب ، واستكثر من العلم فإنه أساس التدبير ، وما ليس له

---

[1] وصايا ومواعظ العلماء للأمراء ، لخالد علي ، ص٧٢ .

أساس فمهزوم ،وإنما رأيت الملوك تؤتى من ثلاثة أمور ؛ فاحسم عنك واحد [1] واحكم اثنين وهي : اتباع الهوى ، وتولية من يستحق ، وكشف أمور الرعية، فإنك إن ملكت هواك لم تستأثر ولم تعمل إلا بالحق ، وإن وليت المستحق كان عوناً لك على ما تحب ولم تضع على يديه الأمور ، وإذا تناهت إليك أمور رعيتك على حقائقها عاشر الوضيع واحذر الرفيع ، وامسك الظالم وآمن المظلوم ، والسلام ."

ولا أريد في هذا المقام أن أقف عند لغة هذه الوصايا ، وكيف وصلت إلينا وهل نُقلت كما نطق بها أصحابها أو أن الرواة قد هذبوها وطوروها في أثناء رحلتها الطويلة بين نطقها وتدوينها ؟

ولكننا نؤكد على أن هذه الوصايا رسمت صورة للجو الاجتماعي الذي قيلت فيه ، وأنها اتسمت بصدق البوح ، وسهولة الطرح ، واتسمت بوضوح العبارة ، دون اهتمام بالسمات الفنية التي سنراها في وصايا العصور التالية .

ولكن المصادر التراثية قد حفظت لنا كثيراً من " وصايا الآباء إلى الأبناء" واحتفظت لنا بنماذج من تلك الوصايا التي ترمي إلى تبصير الأبناء بأمثل الطرق التي تحقق الهناء والنجاح في الحياة ؛ ليمضي أبناؤهم بكل اطمئنان في رحلة الحياة التي تحتاج إلى خبرة الآباء وحنكتهم وتجربتهم مما جسد لنا دراية أولئك الآباء بأبعاد النفس الإنسانية والقيم التي ينبغي أن يتمسك بها"المرء" لتتلاءم قيمه وشمائله وتصرفاته مع عصره وبيئته ومجتمعه عبر العصور الأدبية المتتالية كما يلي:

---

[1] احسم عنك واحد : أزل وأبعد عنك واحد ، وهو اتباع الهوى ، ويحثه على التمسك باثنين وهما : تولية من يستحق ، وإحسان معاملة الرعية كل بما يستحق من المعاملة .

وصايا الآباء إلى الأبناء في العصر الجاهلي

احتفظت لنا كتب التاريخ والأدب بكم هائل من الوصايا التي تنم عن مستوى عقلي متميز مما كان ثمرة للتجارب الشخصية التي استقاها منشئوها من حياة العرب وعاداتهم وتقاليدهم ،ومن حياة الغزو التي اعتادوها ، ومن آرائهم في الشجاعة والكرم والنخوة ... وما إلى ذلك .

وقد حظيت " وصايا الآباء إلى الأبناء " في العصر الجاهلي بأوفى نصيب من الوصايا الجاهلية ، ولعل ذلك عائد إلى عاملين :

الأول :النظام الاجتماعي الذي كان سائداً في هذا العصر ، من حيث قيامه على وحدة القبيلة ، إذ تترابط الجماعة ترابطاً خاصًّا مما دعا الآباء إلى نسج الوصايا لأبنائهم كلما عنَّ لهم سفر طويل لا تعرف مغباته ولا نتائجه ، أو حين يوقظهم هاجس الموت ليساعدوهم على خوض الحياة بكل ما فيها من مصاعب ومتاعب وآلام بما حوته تلك الوصايا من الآداب والقيم .

الآخر :ما تميزت به أمم الشرق بعامة والعرب بخاصة من ميل إلى هذا اللون الأدبي منذ أقدم العصور ، وكان لهم حكماؤهم ونصحاؤهم ، حتى قيل: "أنزلت الحكمة على ثلاثة أعضاء في الجسد : قلوب اليونان ، وألسنة العرب ، وأيدي الصين " [1] وما ذلك إلا لاختصاص العرب بمزية إبانة المعاني العجيبة والأمثال ، والمواعظ ، والوصايا المفيدة . فجاءت تلك الوصايا منبهة للعاقل ، وتذكرة للغافل لتؤدي دورها الوظيفي في بناء شخصية الأبناء وإعدادهم من

---

[1] ضرب الأمثال في القرآن الكريم ، أهدافه التربوية وآثاره ، لعبد المجيد البياغوتي ، ص٣١،ط١ دار القلم بدمشق والدار الشامية ببيروت ١٤١١هـ/١٩٩١م .

خلال هذه التجارب والخبرات التي صاغها أولئك الآباء بهذه الصورة الأدبية الرائعة .

ومن أبرز الوصايا التي احتفظت بها مصادرنا التراثية من العصر الجاهلي: وصايا أكثم بن صيفي حكيم العرب وقاضيها ، ومثال الرصانة والتعقل، الذي عاش زمناً طويلاً ، وأدرك الإسلام ، وقصد المدينة المنورة في مائة من قومه يريدون الإسلام ، فمات في الطريق قبل أن يرى الرسول ﷺ بينما أسلم من بلغ المدينة من أصحابه ، وكان أكثم قد سار إلى كسرى أنوشروان في وفد عربي لإظهار فضل العرب وتفوقهم فقال له كسرى : " ويحك يا أكثم ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وضعك كلامك في غير موضعه ! قال أكثم : الصدق ينبئ عنك لا الوعيد . فقال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى، فقال أكثم :" رب قول أنفذ من صول " وذهب قوله مثلاً .

ومن وصايا أكثم لأبنائه قوله :[1]

" يا بنيّ ، قد أتت عليّ مائتا سنة ، وإني مزودكم من نفسي : عليكم بالبِّر فإنه ينمي العدد ، وكفوا ألسنتكم ؛ فإن مقتل الرجل بين فكيه ، وإن قول الحق لم يدع لي صديقاً ، وإنه لا ينفع من الجزع التبكي ، ولا مما هو واقع التوقي ، وفي طلب المعالي يكون الغرر، الاقتصاد في السعي أبقى للجمال ، ومن لا يأسَ على ما فاته ودَّع بدنه، ومن قنع بما هو فيه قَرَّت عينه ، التَّقَدُّم قبل التَّندُّم، أن أُصبح عند رأس الأمر أحبُّ إليّ من أن أصبح عند ذنبه ، لم يهلك مِنْ مالك ما

---

[1] المعمرون والوصايا ، لأبي حاتم السجستاني ، دار إحياء الكتب العربية ، ص ١٤-١٥القاهرة ١٩١٦م ،مجمع الأمثال للميداني ، دار مكتبة الحياة ، ٢:٢٦٥ بيروت ١٩١٦م . الفاضل في صفة الأدب الكامل ، لمحمد بن أحمد الوشاء ، ص ١٤٦. الوصايا الخالدة ، لعبد البديع صقر ، ومصطفى حبر، ص ١٠٩-١١٠، مطابع العروبة بقطر ١٣٨٦هـ. ونهاية الأرب في أحوال العرب ، لمحمود شكري الألوسي ١: ٣٩٩، ٣: ١٦٥-١٦٦.

وعظك ، ويل لعالم أمر من جاهله ، الوحشة ذهاب الأعلام[1] ، ويتشابه الأمر إذا أقبل، فإذا أدبر عرفه الأحمق والكيِّس ، البطر عند الرخاء حمق، والجزع عند النازلة آفة التَّجَمُّل ، ولا تغضبوا من اليسير ؛ فإنه يجني الكثير ، ولا تجيبوا فيما لا تُسألون عنه ، ولا تضحكوا مما لا يضحك منه ، تناءوا في الديار لا تباغضوا ، فإنَّ من يجتمع يتقعقع عَمَدُه ، ولقد رأيت جبلاً مُطِلاً تُزايله حجارته ، ولقد رأيته أملس ما فيه صَدْع .

ألزموا النساء المهانة ، ولنعم لهو الحُرَّة المغزل ، وأحمق الحمق الفجور ، وحيلة من لاحيلة له الصبر ، إن كنت نافعي فورٌ عني عينيك ، إن تعش ترَ ما لم تر ، فقد أقرَّ صامت ، المكثار كحاطب ليل ، ومن أكثر أسقط ، والسَّرو الظاهر الرياش، لا تبولوا على أكَمةٍ ، ولا تفشوا سرًّا إلى أمة ، من لم يرْج إلى ما هو مستوجب له كان قَمِناً [2] أن يدرك حاجته ، لا تمنعكم مساوئ رجل من ذكر محاسنه " .

إذ حرص أكثم في هذه الوصية على أن يرسم صورة لنفسه في أثناء وصيته ، كما في قوله : " **قد أتت على مائتا سنة ، وإني مزودكم من نفسي...**" وفي قوله :" **لقد رأيت جبلاً مطلاً تزايله حجارته ، ولقد رأيته أملس ما فيه صدع** " إذ عنى بالجبل نفسه حين أصابته عوامل التغير ليؤكد لأبنائه أن النقص والضعف بالمرصاد لكل موجود في هذه الحياة ، وليذكرهم بذلك ليأخذوه في اعتبارهم ليعرفوا سنة الحياة ويعتبروا بها .

وقد رسمت هذه " ا لوصية " صورة صادقة لنظرة المجتمع الجاهلي

---

[1] الوحشة ذهاب الأعلام : أي أن الوحشة في ذهاب العظماء من الرجال .

[2] كان قمناً : أي جديراً ومستحقاً .

للمرأة ، إذ قال أكثم : " **ألزموا النساء المهانة ، ولنعم لهو الحرة المغزل** " .

ويلاحظ أن هذه الوصية قد ضمت أكثر من عشرة أمثال من أمثال العرب كقوله :

* مقتل الرجل بين فكيه .
* في طلب المعالي يكون الغرر .
* الاقتصاد في السعي أبقى للجمال .
* التقدم قبل التندم .
* أن أصبح عند رأس الأمر أحب إليَّ من أن أُصبح عند ذنبه .
* لم يهلك من مالك ما وعظك .
* ويل لعالم أمر من جاهله .
* من يجتمع يتقعقع عمده .
* نعم لهو الحرة المغزل .
* حيلة من لا حيلة الصبر .
* إن تعش تر ما لم تر .
* المكثار كحاطب ليل .
* من أكثر أسقط .

* لا تفشوا سرًّا لأمة ...

ومن وصاياه لأبنائه -أيضاً- قوله : [1]

" يا بنيَّ ، لا يغلبكم جمال النساء عن صراحة النسب ؛ فإن المناكح الكريمة مدرجة للشرف ". إذ ترجم حرص العربي على نقاء نسبه حين حدد عناصر التفضيل عند اختيار الزوجة وجعل الشرف وصراحة النسب في الدرجة الأولى وفضلها على الجمال ، مما يتواءم مع نظرة الإسلام إلى المرأة ،إذ قال ﷺ: " إياكم وخضراء الدمن ، قالوا وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء " .

ومن وصاياه لبنيه ورهطه التي حثهم على سماعها ووعيها وضمنها عدداً من الأمثال والأفكار التي تدل على فطنته وخبرته في أمور الحياة قوله :[2]

" يا بني تميم لا يفوتنكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي ، إن بين حيزومي [3] وصدري لكلاماً لا أجد له مواقعاً إلا أسماعكم ، ولا مقارَّ إلا قلوبكم ، فتلقوه بأسماع مصغية ، وقلوب واعية ؛ تحمدوا مغبته:

الهوى يقظان ، والعقل راقدٌ ،والشهوات مطلقة ، والحزم معقول ، والنفس مهملة والروية مقيدة ، ومن جهة التواني وترك الروية يتلف الحزم ، ولن يعدم المشاور مرشداً ، والمستبد برأيه موقوف

---

[1] المعمرون والوصايا ،ص ١٥ .

[2] شرح ابن أبي حديد ،٤:١٥٥ ، وسرح العيون٣١-٣٤ ، وجمهرة الأمثال٢:١٥٦ ، وجمهرة خطب العرب ١:١٣٥ .

[3] الحيزوم : وسط الصدر وما يضم عليه الحزام .

على مداحض الزلل [1] ومن سَمَّع سُمِّع به، ومصارع الرجال تحت بروق الطمع ، ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا في مقاتل الكرام ، وعلى الاعتبار طريق الرشاد ، ومن سلك الجدد [2] أمن العثار ، ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ، ويشغل فكره ، ويؤرث [3] غيظه ، ولا تجاوز مضرته نفسه " .

ثم يتابع القول :

" يا بني تميم ، الصبر على جرع الحلم أعذب من جني ثمر الندم ، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم ، وكلم اللسان أنكى [4] من كلم السنان . والكلمة مرهونة ما لم تنجم من الفم ، فإذا نجمت فهي أسد محرَّب[5] ، أو نار تلهَّب ، ورأي الناصح اللبيب دليل لا يجوز ، ونفاذ الرأي في الحرب أجدى من الطعن والضرب " .

ومن وصايا الآباء إلى الأبناء في العصر الجاهلي وصية عمرو بن كلثوم لبنيه الذي عرفته المنابر شاعراً وعرفته المحافل شديد الاعتزاز بنفسه وبقومه من خلال معلقته المشهورة التي قال فيها :[6]

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضاً ... ونصدرهن حمراً قد روينا

---

[1] مداحض الزلل : مواضعه ومنازله .

[2] الجدد : الأرض المستوية.

[3] يؤرث : يوقد .

[4] أنكى : أبلغ وأشد . والكلم : الجرح .والسنان : الرمح .

[5] الترحيب : التحريش والتحديد، والحرب والمتحرب : الأسد . ونجمت : أي خرجت .

[6] شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، للأنباري ص٣٧١-٤٢٨ ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر .

وأيــام لنــا غــر طــوال ... عصينا الملك فيها أن ندينـا
وسيـد معشـر قـد توجـوه ... تـاج الملك يحمي المحجرينـا
تركنـا الخيـل عاكفـة عليـه ... مقلـــدة أعنتهـا صفـــونـا
وقد هرت كلاب الحي منا ... وشذبنـــا قنـــاة مـن يلينـــا
متـى ننقـل إلى قـوم رحانـا ... يكونوا في اللقاء لها طحينـا
... وأنـا المانعـون لمـا يلينـا ... إذا ما البيض فارقت الجفونا
وأنـا المـانعـون إذ قـدرنـا ... وأنــا المهلكــون إذا أُتينــا
وأنا الشاربون الماء صفـواً ... ويشرب غيرنا كدرا وطينـا
...ملأنا البرحتىضاق عنا ... ونحـن البحـر نملأه سفينـا

وقـد حفظـــت لنـــا المصـــادر التراثيـــة وصيتـــه لأبنائـــه بعـــد أن كـــبرت ســـنه وهدأت نفســه ، وأيقـن قـرب فراقهـم ؛ ممـا انعكـس علـى أسـلوبه إذ قـال :[1]

" يـا بـني ، إنـي قـد بلغـت مـن العمـر مـا لم يبلــغ أحــد مــن آبــائي وأجـدادي ، ولا بـد مـن أمـر مقتبـل ، وأن يـنزل مـا نـزل بالآبــاء والأجــداد، والأمهـات والأولاد ، فـاحفظوا مـا أوصيكـم بــه :

إنـي -والله- مـا عَـيّرت رجــلاً قـط أمـراً إلا عُـيِّر بـي مثلـه ، إنْ حقًّا فحقًّــا ، وإن بـاطلا فبـاطلاً ، ومـن سَـبَّ سُـبَّ ، فكفـوا عـن الشـتم فإنـه أسـلم لأعراضكـم ، وصلـوا أرحـامكم ، تعمـر داركــم ، وأكرمــوا جــاركم يحســن ثنــاؤكم، وزوجــوا بنــات العــم بــني العــم ، فــإن تعديتــم بهــن إلى الغربـاء؛ فـلا تـألوا بهـن الأكفـاء، وأبعـدوا بيـوت النسـاء مـن بيـوت الرجـال، فإنـه أغـض للبصـر ، وأعـف للذكـر ، ومتـى كـانت المعاينـة واللقـاء ، ففـي

---

(1) الأغاني ٩:١٧٨ ،شرح ابن أبي حديد ٤:١٥٥، الفـاضل في صفـة الأدب الكـامل، لمحمـد بـن أحمـد الوشـاء ، ص ١٥٥، شرح نهج البلاغة ٤: ١٥٥، بلوغ الأرب ٣: ١٨٦-١٦٩.جمهرة خطب العرب، ١:١٢١ .

ذلك داء من الأدواء ، ولا خير فيمن لا يغار لغيره ، كما يغار لنفسه ، وقلَّ من انتهك حرمة لغيره إلا انتهكت حرمته ، وامنعوا القريب من ظلم الغريب ، فإنك تذل على قريبك ، ولا يحلُّ بك ذلك غريبك، وإذا تنازعتم في الدماء فلا يكن حقكم للقاء ، فرب رجل خير من ألف ، وود خير من خلف ، وإذا حُدِّثتم فعوا ، وإذا حَدَّثتم فأوجزوا ، فإن مع الإكثار يكون الإهذار [1] ، وموت عاجل خير من ضنى آجل ، وما بكيت من زمان إلا دهاني بعده زمان ، وربما شجاني من لم يكن أمره عناني ، وما عجبت من أحدوثة إلا رأيت بعدها أُعجوبة ، واعلموا أن أشجع القوم العطوف ، وخير الموت تحت ظلال السيوف، ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب ، ولا فيمن إذا عوتب لم يُعتب [2] ، ومن الناس من لا يرجى خيره ، ولا يخاف شره ، فبكؤه [3] خير من درِّه ، وعقوقه خير من بره ، ولا تُبَرِّحوا في حبكم ، فإنه من برَّح في حبٍّ آل ذلك إلى قبيح بغض ،وكم قد زارني إنسان وزرته ، فانقلب الدهر لما خبرته [4] ، واعلموا أن الحكم سليم ، وأن السيف كليم ، إني لم أمت ولكن هرمت ودخلتني ذلةٌ فسكت ، وضعف قلبي فأهترت [5] سلمكم ربكم وحيَّاكم " .

وهكذا فقد ترجمت هذه الوصية أثر " الحكمة " و " الخبرة " التي اكتسبها الموصي من طول حياته ، وكثرة احتكاكه بفئات المجتمع وأحواله،

---

[1] الإهذار : الهذيان (ويقصدالخطأ والزلل).

[2] لم يعتب : لم يرض .

[3] من قولهم بكأت الناقة بكئاً : أي قل لبنها .

[4] خبرته : أي جربته ، فلم يكن كعهده السابق .

[5] الهتر : ذهاب العقل أو مرض أو حزن .

وجسدت الحالة النفسية الهادئة التي بلغتها شخصية عمرو بن كلثوم الذي عرفناه في شبابه هادراً شديد الاعتزاز متطاولاً ومفتخراً على غيره ، ولكنه " الهرم " و"الضعف " و " الوهن " الذي حد من " سورة " الاندفاع التي يتمتع بها "الإنسان " في مرحلة القوة والفتوة .

وقد هدت عمراً فطرته وتجربته إلى بعض " المفاهيم " التي وافقت تعاليم الإسلام كما في قوله :" .. إني والله ما عَيَّرت رجلاً قط أمراً إلا عُير بي مثله ، إن حقًّا فحقًّا ، وإن باطلاً فباطلا، ومن سبَّ سُبّ " وهذا ما أكده رسول الله ﷺ :".. كما تدين تدان ". وقوله :" .. وأبعدوا بيوت النساء من بيوت الرجال ، فإنه أغض للبصر، وأعف للذكر " مما يتوافق مع قوله ﷺ : "مروا أبناءكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع.." وقوله :" ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب " يتوافق مع قول الرسول ﷺ:" ليس الشديد في الصرعة ، ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب " .

ويلاحظ أن عمراً قد أوصى أبناءه بالفضائل والروية والهدوء والإنصاف ... مما لم يكن متوقعاً ممن قال مفتخراً :

إذا بلغ الفطامَ لنا رضيعٌ ... تخر له الجبابر ساجدينا .

ولكنها سنة الحياة التي أكدت له " أن الحكيم سليم ، وأن السيف كليم " وأنه دخلته ذلة فسكت ، وضعف قلبه فاهتزأ .

ومن وصايا الآباء في العصر الجاهلي وصية النعمان بن ثواب العبدي الذي كان له بنون ثلاثة : أسعد وسعيد وساعدة ، وكان هو ذا شرف وحكمة، وكان يوصي بنيه ويحملهم على أدبه وكان ابنه سعد شجاعاً بطلاً من شياطين

العرب، لا يقام لسبيله ، ولم تفته طلبة قط ، ولم يفر عن قرن ، وأما سعيد فكان يشبه أباه في شرفه وسؤدده ، وأما ساعدة فكان صاحب شراب وندامى وإخوان، لذا فقد خص كلاً منهم بما يناسبه من وصيته، إذ دعا ابنه سعداً - وكان صاحب حرب - فقال له : [1]

" يا بني ، إن الصارم ينبو ، والجواد يكبو ، والأثر يعفو ، فإن شهدت حرباً؛ فرأيت نارها تستعر وبطلها يخطر، وبحرها يزجر، وضعيفها ينصر، وجبانها يجسر؛ فأقلل المكث والانتظار ، فإن الفرار غير عار ، إذا لم تكن طالب ثار ، فإنما ينصرون هم ، وإياك وأن تكون صيد رماحها ، ونطيح نطاحها ".

وأما ابنه سعيد - وكان جواداً - فقد قال له :

" يا بني ، لا يبخل جواد، فابذل الطارف والتلاد ، وأقلل التلاح ، تذكر عند السماح، وابل [2] إخوانك ، فإن وفيهم قليل ، واصنع المعروف عند محتمله " .

وقال لابنه ساعدة - وكان صاحب شراب - :

" يا بني ، إن كثرة الشراب تفسد القلب، وتقلل الكسب، وتجد اللعب [3] ؛ فأبصر نديمك ، واحم حريمك ، وأعن غريمك ، واعلم أن الظمأ القامح [4] خير من الري الفاضح ، وعليك بالقصد [5] فإن فيه بلاغاً ".

---

[1] انظر الوصية كاملة في مجمع الأمثال ١:٤٨، وفي جمهرة خطب العرب١ :١٢٦-١٢٧ .

[2] ابل : اختبر .

[3] تجد اللعب : أي تجعله جدًّا (أي ضد الهزل).

[4] الظمأ القامح : أي العطش الشديد . ومعنى القول : إن العطش الشاق خير من الري الذي يفضح صاحبه .

[5] القصد: الاعتدال.

وقد جسدت وصية زهير بن جناب الكلبي لبنيه الخبرة والحنكة التي اكتسبها زهير من حياته إذ قال :[١]

" يا بني ، قد كبرت سني ، وبلغت حرسا [٢] من دهري ، فأحكمتني التجارب ، والأمور تجربة واختبار ، فاحفظوا عني ما أقول وعوه :

إياكم والخور عند المصائب ،والتواكل عند النوائب ، فإن ذلك داعية للغم ،وشماتة للعدو ، وسوء ظن بالرب ،وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين ، ولها آمنين ، ومنها ساخرين ، فإنه ما سخر قوم قط إلا ابتلوا ، ولكن توقعوها ، فإن الإنسان في الدنيا غرض [٣] تعاوره الرماة ، فمقصر دونه ، ومجاوز لموضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، ثم لا بد أنه مصيبه ".

ومن أشهر وصايا الآباء إلى الأبناء في العصر الجاهلي وصية ذي الإصبع العدواني لابنه أسيد لما حضرته الوفاة إذ قال : [٤]

" يا بني ، إن أباك قد فني وهو حي ، وعاش حتى سئم العيش، وإني موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته ، فاحفظ عني:

---

(١) المعمرون والوصايا ١٢٩، أمالي السيد المرتضى ١:١٧٣ ، جمهرة خطب العرب١:١٢٦.

(٢) الحرس من الدهر : الطويل، ويعني أنه عاش عمراً مديداً .

(٣) الغرض : الهدف، وتعاوره الرماة : أي تداولوا رميه .

(٤) ذو الإصبع : هو حرثان بن محرث شاعر جاهلي حكيم ، عرف بهذا اللقب لأن حية نهشت أصبع رجله فقطعها، وقيل كانت له إصبع زائدة ، شعره مليء بالفخر والحكمة. (الأعلام ، للزركلي ٢:١٧٣) . والوصية في ديوانه ص١٥، جمهرة خطب العرب ١:١٢٠، وفي الوصايا الخالدة ص١١١-١١٢ وفي نهاية الأرب ٣:١٦٣-١٦٤، وفي أروع ما قيل من الوصايا ص ١٤٧ - ١٤٨.

ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم ، يكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، واعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة في الصريخ [1] فإن لك أجلاً لا يعدوك[2] ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً ، فبذلك يتم سؤددك ، ثم أنشأ يقول:

أأسيد إن مالاً ملكـ (م) تَ فَسِرْ به سيراً جميلا
آخِ الكرام إن استطعـ (م) ـتَ إلى إخائهمُ سبيلا
واشرب بكأسهمُ وإن شربوا به السُّمَّ الثميلا
أهنِ اللئام ولا تكن لإخائهم جملاً ذلولاً
إن الكرام إذا توا (م) خيهم وجدت لهم فضولاً
ودع الذي يعد العشيـ (م) ـرة أن يسيل ولن يسيلا [3]
أبنيَّ إن المال لا يبكي إذا فقد البخيلا
أأسيد إن أزمعت مِنْ بلد إلى بلد رحيلا
فاحفظ وإن شحط المزا (م) ر أخا أخيك أو الزميلا
وأركب بنفسك إن همـ (م) ـت بها الحزونة والسهولا
وصل الكرام وكن لمن ترجو مودته وصولا
ودع التواني في الأمو (م) ر وكن لها سلساً ذلولا
وابسط يمينك بالندى وامدد لها باعاً طويلا
وابسط يديك بما ملكـ (م) ـت وشيد الحسب الأثيلا

---

[1] اسرع النهضة في الصريخ : أي بادر بالمساعدة عند طلبها .

[2] إن لك أجلالا يعدوك: أي لك عمر محدود ، وإذا حان وقت وفاتك فلا يحول دونه حائل .

[3] أي لا تصاحب المماطل البخيل الذي يعد ولا يفي بما وعد به .

ودع التواني في الأمو (م) ر وكن لها سلساً ذلولا
وابسط يمينك بالندى وامدد لها باعاً طويلا
وابسط يديك بما ملكـ (م) ـت وشيد الحسب الأثيلا
واعزِم إذا حاولت أمـ (م) ـرا يفْرجُ الهمَّ الدخيلا
وابُذُل لضيفك ذات رحـ (م) ـلك مُكرماً حتى يزولا
واحلُلْ على الأيفاع للـ (م) ـعافين واجتنب المسيلا [1]
إذا القروم تخاطرت يوماً وأرعدت الخصيلا [2]
فاهصِر كَهَصْر الليـ (م) ـث خَضَّبَ من فريسته التليلا[3]
وانزل إلى الهيجا إذا أبطالها كرهوا النزولا
وإذا دعيت إلى المُهِمِّ فكن لفداحه حمولا [4]

وأول ما يلفت النظر في هذه الوصية تلك المقدمة التي افتتح بها ذو الإصبع وصيته ليثير اهتمام ابنه ويهيئه لسماع وصيته والإقبال على وعيها والعمل بما فيها ، حين خاطبه قائلاً :

" يا بني ، إن أباك قد فني وهو حي ، وعاش حتى سئم العيش، وإني موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته ، فاحفظ عني ".

إذ يبدو في " المقدمة " العاطفة ، وإخلاص المحبة ، والنظرة النفسية إلى استمالة المتلقي عند تذكيره بالعلاقة التي تربطه بالمنشئ وأنه " والده " قد عاش عمراً مديداً حتى عركته الحياة ، وحنكته التجارب ، وعلمته السنون .

---

[1] الأيفاع : جمع يفع، وهو المرتفع من الأرض . وبينها وبين المسيل طباق . وسكنى المرتفعات كناية عن الكرم .

[2] القروم: جمع قرم وهو السيد. الخصيل : كل لحمة فيها عصب . أي إذا اشتدت الأمور وتهيأ القوم للقتال .

[3] التليل : العنق .

[4] المهم : صفة لكل أمر عظيم . أي :كن عند حسن الظن إذا دعيت إلى المهم من الأمور .

وأمـا الوصيـة فإنهـا لم تركـز علـى مـا يكـون بـين الأب وابنـه ، بينمـا ركـزت علـى أخلاقيـات شـيخ القبيلـة المنتظـر الـذي يرغـب الوالـد في إعـداده وتهيئتـه ليحـل محلـه في مشـيخة القبيلـة ويغريـه بـالحرص علـى المكانـة الـتي بلغهـا والـده بـين قومـه إذ يقـول : " **و إنـي موصيـك بمـا إن حفظتـه بلغـت في قومـك مـا بلغتـه** " . ثـم يرسـم " الوالـد " لولـده السياسـة العامـة للقبيلـة ، وأصـول إدارة الأسـرة عندمـا رسـم لـه أصـول علاقـة " الشـيخ " مـع أبنـاء قبيلتـه أولا ، وأفـراد أسـرته ثانيـاً ، منـذ أن خاطبـه قـائلاً :" **ألـن جـانبك لقومـك يحبـوك ، وتواضـع لهـم يرفعـوك ، وابسـط لهـم وجهـك يطيعـوك ....**" .

ولا بـد أن نلاحـظ أن الشـعر قـد أخـذ مكانـه في هـذه الوصيـة ، ولكنـه شـعر أقـرب إلى النظـم ، إذ رددت الأبيـات الشـعرية المقولـة المنثـورة موزونـة مقفـاة ، فعمـل الخيـال فيهـا عمـلاً محـدوداً أو معدومـاً ، والطـابع الفكـري هـو الغـالب ، بـل لعله العنصر الوحيد الـذي أعطـى هـذا الشـعر قيمـة لغيـاب العنصـر الفـني فيـه .[1]

وأمـا قـس بـن سـاعدة الأيـادي ، أحـد حكمـاء العـرب ، ومـن أشـهر خطبـائهم في الجاهليـة ، والـذي استمع إليـه رسـول الله ﷺ ، وهــو يخطـب في سـوق عكـاظ قـائلاً :[2]

" يـا أيهـا النـاس ، اسمعـوا وعـوا ، مـن عـاش مـات ، ومـن مـات فـات وكـل مـا هـو آت آت ....إلى أن يقــول :

في الذاهبـين الأوليـ (م) ـن من القرون لنا بصائر
لمـا رأيـت مـوارداً للموت ليس لها مصـادر

[1] انظر : الوصايا في الأدب العربي القديم ، للدكتورة سهام فريح ، ص٢٩ (بتصرف) .

[2] انظر : الخطبة في صبح الأعشى ١:٢٥٦ ، البيان والتبيين ١:٢٥٣ ، جمهرة خطب العرب ١:٣٨.

ورأيت قومي نحوها تمضي الأصاغر والأكابر

لا يرجع الماضي إليَّ ولا من الباقين غابر

أيقنت أني لا محا (م) لة حيث صار القوم صائر

فقد أوصى ابنه قائلاً: [1]

" لا تشاور مشغولاً، وإن كان حازماً ولا جائعاً وإن كان فهماً، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً، ولا مهموماً وإن كان عاقلاً، فالهم يعقل العقل، فلا يتولد منه رأي ، ولا تصدق به روية" .

إذ ترجم في هذه الوصية خبرته وحنكته وتجربته في معرفة أحوال الناس، وتأثر العقل، وعدم إصابة الرأي في حالة الذعر أو الجوع أو الهم أو الشغل.

وقد جاءت الوصية ممثلة لأسلوب قس الذي عرف بميله إلى الفقرات القصيرة المتوازنة مع تركيزها على فكرة واحدة ، والتدليل على الفكرة بأسلوب منطقي لا مراء فيه ولا نقاش .

وأما أوس بن حارثة (جد قبيلة الأوس التي تحولت من اليمن إلى المدينة المنورة) ؛ فقد أوصى ابنه مالكاً فقال: [2]

" يا مالك ، المنية ولا الدنية، والعتاب قبل العقاب، والتجلد قبل التبلد ، واعلم أن القبر خير من الفقر ، وشر شارب المُشْتَفُّ ، وأقبحُ طاعمٍ المُقْتَفُّ ، وذهاب البصر خير من كثير من النظر ، ومن كرم الكريم الدفاع عن الحريم، ومن قلّ ذل ، ومن أمر فل ، وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة، والدهر يومان ، فيوم لك ويوم عليك ،

---

[1] نهاية الأرب للنويري ٦:٧٦

[2] أمالي أبي علي القالي ١:١٠٢ ، بلوغ الأرب ٣: ١٦٤-١٦٥، جمهرة خطب العرب ١: ١١٩-١٢٠.

فإن كان لك فلا تبطر، وإن كان عليك فاصبر ، فكلاهما سينحسر ، فإنما تعز من ترى ، ويعزّك من لا ترى ، ولو كان الموت يُشترى لسلم منه أهل الدنيا، ولكن الناس فيه مستوون ، الشريف الأبلج ، واللئيم المعلهج[1] ،والموت المقيت خير من أن يقال لك هبيت [2] وكيف بالسلامة لمن ليست له إقامة وشر من المصيبة سوء الخلق ، وكل مجموع إلى تلف ، حياك الله ".

وأول ما يلفت النظر في هذه الوصية عدم وجود روابط قوية بين المعاني ، وشمولها على أكثر من عشرة أمثال عربية ، إذ إن كثرة الحكم والأمثال مما تتسم به وصايا وخطب ذلك العصر.

وأما حرص الموصي على السجع الجميل في غير تكلف فإنه من السمات الأسلوبية التي تعين على حفظ " النص " ومما يحقق الموسيقى المحببة إلى النفس، هذا إلى جانب الحرص على الفقرات القصيرة المتوازنة كما رأينا في الوصية السابقة أيضاً .

ومن الحكماء والقضاة الذين أوصوا أبناءهم وأبناء أبنائهم في العصر الجاهلي :

زرارة بن عُدس بن زيد بن عبد الله الذي قاد تميم ، يوم شويحط إذ قال:[3]

" يا بني إنكم قد أصبحتم بيت تميم، بل بيت مضر .

يا بني ، ما هجمت على قوم قط من العرب لا يعرفوني إلا

---

[1] المعلهج : أي الدنيء ، اللئيم .

[2] الهبيت : الأحمق ، الضعيف.

[3] المعمرون والوصايا : ١٢٠-١٢١ .

أحَلُّوني ، فإذا نسبوني ازددت عندهم شرفاً ، وفي أعينهم عظماً ، ولا وفدت إلى ملك إلا آثرني وشفعني، خذوا من أدبي ، واثبتوا عند أمري، واحفظوا وصيتي :

إياكم أن تُدْخِلوا عليَّ في قبري حوبة [1] أُسب بها ، فوالله ما شايعتني نفسي قط على إتيان ريبة ، ولا عملٍ بفاحشة ، ولا ضمني وعاهرة سقف بيت قط ، ولا حَسَّنَتْ لي نفسي الغدر منذ شَدَّت يداي مئزري [2] ، ولا فارقني جار على قِلى[3] ، ولا حملني هواي على أمر يعيبني في مضر .

يا بني ، إن القالة [4] إليكم سريعة ، فاتقوا الله في الليل إذا أظلم ، وفي النهار إذا انتشر ، يكفكم ما أهمكم، وإياكم وشرب الخمر؛ فإنها مفسدة للعقول والأجساد، ذهَّابة بالطريف والتلاد[5] .

يا بني ، زوجوا النساء الأكفاء ، وإلا فانتظروا بهن القضاء .

يا بني ، قد أدركت سفيان بن مجاشع بن دارم شيخاً كبيراً محجوباً ، فأخبرني أنه قد حان خروج نبي بمكة من مضر يقال له أحمد –عليه السلام – يدعو إلى عبادة الله ، فإن أدركتموه فاتبعوه ، تزدادوا بذلك شرفاً إلى شرفكم وعزًّا إلى عزكم .

إنه ليس فيكم سَقَطُ رجل واحد ، ولا تمنيتكم أني بُدِّلتكم من

---

(1) الحوبة : الإثم والمنقصة .

(2) منذ ان شددت يداي مئزري : كناية عن اشتداد عوده واعتماده على نفسه .

(3) القلى : البغض ، يعتز بحسن علاقته مع جيرانه .

(4) القالة :البغض ، الكلام السيئ .

(5) التلاد : التالد ، أي القديم ، وهو عكس الطريف ، وبين الطريف والتلاد طباق .

العـرب [١] ، ولـولا عجلـة لقيـط [٢] إلى الحـرب ، والحـرب لا يصلحها إلا الرجـل المكيـث لشـرفته عليكـم ، وهـو بعـد فـارس مضـر ، وعليكـم بحاجب [٣] فإنـه حليـم عنـد الغضـب ، فـرَّاج للكُـرب ، يجـود إذا طُلـب إليـه ، ذو رأي لا يُنكـش[٤] ، وزَمَّـاع لا يُفحـش [٥] ، فـاسمعوا لـه وأطيعوا أمـره ، جنبكـم الله الـردى " .

إذ ذَكَّـر أبنـاءه في مقدمـة وصيتـه بالمكانـة الـتي تمتـع بهـا بـين قومـه ، وذكرهم بشـرفه وعفتـه ليقبلـوا علـى وصيتـه ويفيـدوا ممـا فيهـا ، ثـم أكـد لهـم مـا كـان يتوقعـه كثـير مـن حكمـاء العـرب مـن قـرب بعثـة النبي محمـد ﷺ ، ليعمـل علـى تغيـير مـا شـاع في الجاهليـة مـن معتقـدات فاسـدة ومنكـرات مبتدعـة ، وحثهـم علـى اتباعـه ونصرتـه إذا أدركـوا بعثتـه ، ثـم ذكرهـم بمكـانتهم في نفسـه وأثرتهـم لديـه ممـا يدعوهـم إلى أن يكونـوا عنـد حسـن ظنـه بهـم . هـذا فضـلاً عـن عـرض الوصيـة بفقـرات قصـيرة متوازنـة ، مـع سـجع جميـل غـير متكلـف في الغـالب.

وممـن جمـع بنيـه حـين حضرتـه الوفـاة ووجـه وصيتـه إليهـم الحـارث بـن كعـب إذ خـاطبهم قـائلاً : [٦]

" يـا بـني ، عليكـم بهـذا المـال فـاطلبوه أجمـل الطلـب ، ثـم اصرفـوه في أجمـل مذهـب ، فصلـوا بـه الأرحـام ، و اصطنعـوا منـه الأقـوام ، واجعلـوه

---

[١] ليس فيكم سقط رحل واحد ،ولا تمنيت أني بدلتكم من العرب : أي ليس فيكم عيب و لم أتمنَّ أن يكون لي غيركم من أبناء العرب .

[٢] لقيط : أحد أبناء الموصي ، وقد وصفه بالتسرع والعجلة .

[٣] حاجب : ابن آخر من أبناء الموصي ، وقد وصفه بالحلم و الجود .

[٤] لا ينكش : لا يستقصى ما فيه .

[٥] زماع لا يفحش : ذو عزم لا ينتقص .

[٦] المعمرون والوصايا ، لأبي حاتم السجستاني ١٢٢ ، أمالي السيد المرتضى ١: ١٦٧-١٦٨.

جُنّة لأعراضكم تحسن في الناس قالتكم [١] ، فإن بذله تمام الشرف ، وثبات المروءة ، وإنه ليسوِّد غير السيد ويؤيد غير الأيِّد [٢] ، حتى يكون عند الناس نبيلاً نبيهاً ، وفي أعينهم مهيبا ، ومن اكتسب مالاً فلم يصل به رحماً ولم يعط سائلا، ولم يصن به عرضاً، بحث الناس عن أصله ، فإن كان مدخولاً[٣] هرتوه [٤] وهتكوه ، وإن لم يكن مدخولاً ألزموه دنية، وأكسبوه عرقاً لئيماً حتى يهجنوه به [٥] ".

وقال لابنه أشعث وهو يوصيه :[٦]

أبني إن إياك يوماً هالكٌ ... احفظ أباك رياسة وتقلُّبا
وإذا لقيت كتيبة فتقدما ... إن المقدم لا يكون الأخيبا
تلقى الرياسة أو تموت بطعنة ... والموت يأتي من نأى وتجنبا

وقد خص المنذر ابنه النعمان وهو شاب عندما رأى فيه مخايل النجابة وتوسم فيه الخير وتوقع له مكانة مرموقة بين قومه وغيرهم من الأقوام والملوك فخاطبه قائلاً[٧] :

" يا بني ، إن لي فيك رأيا دون غيرك من ولدي ، فإني آمرك بما أمرني به والدي ، وأنهاك عما نهاني عنه والدي:

آمرك بالبذل في عرضك ، وذلك أن تكون ذلولاً بالمعروف ،

---

[١] تحسن قالتكم : تحسن سيرتكم .

[٢] يويد غير الأيد : يقوي غير القوي .

[٣] المدخول : الذي في عقله دخل أو خلل .

[٤] هرتوه : أي طعنوه فيه وذموه .

[٥] يهجنوه به : يذمونه بسببه .

[٦] المعمرون والوصايا ١٢٢-١٢٣ .

[٧] نفسه ،ص١٢٣ .

وعليك بالانخداع في مالك ، وأحب لك خلوة الليل وطول السمر ، وأكره لك إخلاف الصديق ، وأطراف المعرفة ، وأنهاك عن ملاحاة الحلماء ومزاح السفهاء ، إن لك عقلاً وجمالاً ولساناً ، فاكتس من ثناء الناس ما يؤيد جمالك ، ودع الكلام وأنت قادر ، وليكن لك من عقلك خبيء تدخره أبداً ليوم حاجتك.

ثم قال :

إن ظني بمن أمرت بأمري — حسن إن أعانت الأذنان
باستماع وما ظفرت بشيء — إن نبا مقولي عن النعمان
قد تفرست في بَنِيَّ وفيه — فإذا الأمر ليس بالمتداني
فلئن تم ما أؤمل فيه — ما له في بني الملوك مدان
وله الحظ في الجمال وفي العقـ (م) ـل وحظ من مهلة ولسان

ويلاحظ التوافق بين النص النثري والنص الشعري من حيث عقده الأمل في ولده النعمان ورغبته في أن يتحقق ما أمله فيه ، مع التأكيد على أهمية التزام الأبناء بآداب الآباء ووصاياهم . إلى جانب الاهتمام بالصفات الاجتماعية اللازمة للسلطان وعلاقته بأتباعه .

وأما مالك بن المنذر البجلي فقد كان قد أصاب دماً في قومه ؛ فخرج هارباً بأهله حتى أتى بهم بني هلال ، فلما احتضر أوصى بنيه بكيفية التصرف تجاه ذلك الحدث الذي أحدثه في قومه ، بعد أن مهد لوصيته بمقدمة مناسبة إذ قال :[1]

"يا بني ، قد أتت عليَّ ستون ومائة سنة ما صافحت يميني يمين غادر ، ولا قنعت نفسي بخلة فاجر ، ولا صبوت بابنة عم لي ولا

---

[1] المعمرون والوصايا ١٢٣-١٢٥ ، ونسبت الوصية في جمهرة خطب العرب للحرث بن كعب ١:١٢٢-١٢٣ .

كنـة[1] ، ولا طرحـت عنـدي مومسـة قناعهـا ، ولا بحـت لصديـق لي بسـري ، وإنـي لعلـى ديـن شـعيب النبي، ﷺ ومـا عليـه أحـد مـن العـرب غيري، وغـير أسـد بـن خزيمة ، وتميـم بـن مـر، فـاحفظوا وصيـتي ، وموتـوا علـى شـريعتي:

إلهكـم فـاتقوه يكفكـم المهـم مـن أموركـم ، ويصلـح لكـم أعمـالكم ، وإيـاكم ومعصيتـه ، لا يحـل بكـم الدمـار ، ولا توحـش منكـم الديـار .

يا بـني ، كونـوا جميعاً، ولا تفرقـوا ، فتكونـوا شيعاً ؛ فإن موتـاً في عـز خـير مـن حيـاة في ذل وعجـز ، وكـل ما هـو كـائن كـائن ، وكـل جمـع إلى تبـاين ، الدهـر صرفـان : فصـرف رخـاء ، وصـرف بـلاء . واليـوم يومـان : فيـوم حبرة ، ويـوم عـبرة [2] ، والنـاس رجـلان : فرجـل معـك ، ورجـل عليـك ، وزوجـوا الأكفـاء ، وليسـتعملن في طيبهـن المـاء ، وتجنبـوا الحمقـاء؛ فـإن ولدهـا إلى أفـن يكـون [3] ،إنـه لا راحـة لقـاطع ، وإذا اختلـف القـوم أمكنـوا عدوهـم، وآفـة العـدد اختـلاف الكلمـة ، التفضـل بالحسـنة يقـي السـيئة ، والمكافـأة بالسـيئة الدخـول فيهـا ، العمـل بالسـوء يزيـل النعمـاء ، وقطيعـة الرحـم تـورث إلمـام الهـم ، وانتهـاك الحرمـة تزيـل النعمـة ، عقـوق الوالديـن يعقـب النكـد ويمحـق العـدد، ويخـرب البلـد، النصيحـة لا تهجـم علـى الفضيحـة ، احتمـال الحقـد يمنـع الرفـد ، لـزوم الخطيئـة يعقـب البليـة ،

---

[1] الكنة: زوجة الابن أو الأخ.

[2] أي : يوم سرور ويوم حزن.

[3] الأفن : الحمق ، والضعف.

سوء الرعية [1] يقطع أسباب المنفعة ، الضغائن تدعو إلى التباين .

ثم قال :

أكلت شبابي فأفنيته وأمضيت بعد دهور دهورا

ثلاثة أهلين صاحبتهم فبادوا وأصبحت شيخاً كبيرا

قليل الطعام ، عسير القيا (م) م، قد ترك الدهرقيدي قصيرا

أبيت أراعي نجوم السما (م) ء ، أقلب أمري بطونا ظهورا

ويلاحظ أنه قد ختم وصيته بهذه الأبيات التي تؤكد خبرته وتجربته وحنكته التي اكتسبها من طول مسيرة حياته مما يدعو إلى قبول وصيته والعمل بها، وذلك ما هدف إليه في مفتتح وصيته .

هذا إلى جانب أن مالكا قد عرض وصيته بفقرات قصيرة متوازنة ، مع سجع جميل غير متكلف في الغالب ، كما دأب على ذلك كثير من خطباء وحكماء العصر الجاهلي .

ومما يلفت النظر في هذه الوصية عدم وجود روابط قوية بين المعاني، واشتمالها على عدد من المعاني التي تركز على الحكمة الاجتماعية التي يرغب الموصي في تذكير أبنائه بضرورة التمسك بها في ذلك المجتمع العربي الذي كان قائماً على أساس الأسرة والقبيلة .

ومن المعمرين الذين طال عمرهم في الجاهلية حتى شاخ أبناؤهم عمرو ابن الغوث بن طيء الذي أوصى بنيه قائلاً:[2]

---

[1] سوء الرعية : سوء رعي الماشية . ويقصد :أن إساءة الرعي تؤدي إلى إساعة المنفعة من تلك الحيوانات.

[2] المعمرون والوصايا ، ص ١٢٥.

" يا بني ،إنكم قد حللتم محلاً تخرجون منه ولا يدخل عليكم فيه ، فارعوا مرعى الضب الأعور ، يرى جحره، ويعرف قدره ، ولا تكونوا كالجراد ، يأكل ما وجد ويأكله ما وجده ، وإياكم والبغي ؛ فإن الله إذا أراد إهلاك النملة جعل لها جناحين .

يا بني ، لا تستحيوا من منع من لا يستحيي من المسألة ، وكلوا من الطعام وأطعموه ، ولا يستحي أحدكم أن يفعل شيئاً ينتفع به إذا لم يعرف ، فإنه إنما يستحي حينئذ لغيره ، وابدأوا الناس بالشر فإنه أشكر لخيركم وإن كان قليلاً ، ولا تمنعكم الكثرة أن تربعوا على أقداركم ، والله يحوطكم "[1] .

وما يلفت النظر في هذه الوصية التي يحث فيها صاحبها على الأخلاق التي تناسب المجتمع الذي عاش فيه ، واعتماده على المفردات النابعة من ذلك المجتمع وما شاع فيه ؛ ذلك التوجيه السلوكي والاجتماعي الخاطئ إذ يحرض أبناءه على أن يبدأوا الناس بالشر لأن ذلك - من وجهة نظره - أشكر للخير وإن كان قليلاً .

ومما لا شك فيه أن هذه النظرة إلى علاقة " الأنا " بـ " الآخر " تؤكد سلبيات التربية في المجتمع الجاهلي الذي قال شاعره : [2]

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

إذ كانت سلبيات الواقع الاجتماعي -في ذلك العصر - تتمثل في توجيه السلوك الاجتماعي والأخلاقي بشكل خاطئ ، وتصعيد النزوات الذاتية لدى الأفراد .

---

[1] يحوطكم : أي يحفظكم ويمنعكم .

[2] من معلقة زهير بن أبي سلمى .

ويتضح هذا التوجيه الخاطئ للسلوك -أيضاً- في وصية أود بن صعب ابن سعد (وهو ابن سعد العشيرة)[1] الذي حث أبناءه على إخافة الناس واقتصار التعامل معهم على الكسب لا العطاء وعدم الاكتفاء بالحق ؛ بل المطالبة بأكثر منه ... إذ قال [2] :

" يا بني ، أخيفوا الناس ولا تخافوهم ، واستخبروهم ولا تخبروهم ، وبئس موضع السر المرأة ، وكونوا من الموتورين على حذر ، وإذا دُفعتم عن حقكم فاطلبوا أكثر منه ، وإذا بخع لكم [3] فاقتصروا عليه ".

وكذلك لما حضرت دويد بن زيد بن نهد الحميري الوفاة أوصى بنيه بالناس شرًّا فقال :[4]

" أوصيكم بالناس شرًّا ، لا ترحموا لهم عَبرة ، ولا تقيلوا لهم عثرة ، قصروا الأعنة ، وطولوا الأسنة ، واطعنوا شزرا، واضربوا هبرا، وإذا أردتم المحاجزة ، فقبل المناجزة ، والمرء يعجز لا محالة بالجد لا بالكد، التجلد ولا التبلد ، والمنية ولا الدنية ، ولا تأسوا على فائت وإن عز فقده ، ولا تحنوا إلى ظاعن وإن ألف قربه ، ولا تطعموا فتطبعوا، ولا تهنوا فتخرعوا ، ولا يكونن لكم المثل السوء ، "إن الموصَّين بنو سهوان " إذا مُتُّ فأرحبوا خط مضجعي ، ولا تضنوا عليَّ

---

(1) الأعلام ، للزركلي ،١:٢٩٣ .

(2) المعمرون والوصايا ،ص١٢٦ .

(3) بخع لكم ، أُقِرَّ لكم بالحق .

(4) أمالي السيد المرتضى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة البابي الحلبي ١٩٥٤م ،١:١٧١، جمهرة خطب العرب ١: ١٢٤-١٢٥.

برحب الأرض ، وما ذلك بمؤد إليَّ روحا ، ولكن حاجه نفس خامرها الإشفاق".

إذ ترجمت هذه " الوصية " النفس الأمارة بالسوء ، وجسدت "الأنانية" المفرطة التي تميل إليها كثير من نفوس البشر ، وبخاصة في العصر الجاهلي الذي قامت حياة العرب فيه على الشدة والعنف والصراع من أجل البقاء .

وإن كانت هذه دعوة إلى " الشر " فقد أوصى قيس بن معد يكرب ولده وحثهم على الابتعاد عن الشر لكسب مودة الناس، وحثهم على مكارم الأخلاق إذ قال :(1)

" باسمك الله ، احفظوا أدبي يكفكم ، واتبعوا وصاتي تلحقوا بصالح قومكم ويستعل أمركم ، إني أكلكم إلى أدبي ، وإن المعنى بكم لغائب ، الزموا ما يجمل ، وافنوا حياءكم ، وأطيعوا ذوي رأيكم،وأجِلُّوا ذوي أسنانكم (2) ، ولا تعطوا الدنية ، وإن كان الصبر على خطة الضيم أبقى لكم ، وتناصروا تكونوا حمى ، وإذا نزلتم على قومكم فلتكن محلتكم واحدة ، واهدروا الحسد يقطع عنكم النائرة (3) ، ودعوا المكافأة بالشر يحببكم الناس ، وعفوا عن الدناءة ، وأكرموا أهل الكفاءة، ولا تَواكَلوا (4) الترافد والرياسة فيحل عطبكم ، واتخذوا لأسراركم من علانيتكم حجابا، ولا تدبروا أعجازاً ما قد أدبرت صدوره . ولا تقيلوا الرأي بالظن فيدع بكم ، والزموا الأناة يفز قدحكم ، واطلبوا الصمت إلا فيما يعنيكم ، ولا تأخذوا ختلا ، وخذوا

---

(1) المعمرون والوصايا ص ١٢٥-١٢٦.

(2) أي عظموا وقدروا كبار السن منكم .

(3) يقال : نارت نائرة أي هاجت هائجة ، ويقصد: إن ترككم الحسد يبعد عنكم الفتن.

(4) لا تواكلوا : أي لا يتكل بعضكم على بعض فتهملوها.

صراحاً فهناك عـز القـرار ، ومنعـة الجـار ، واظعنـوا في الأرض [1] تبلغـوا مـأمنكم ، ولا تعرضـوا لنمـائم النـاس ، وإيـاكم والغـدر فإنـه أحلـني دار الغربـة ، واعتـبروا ".

وهـذه الوصيـة قـد ركـزت علـى أهميـة الاعتبـار بمـا لقيـه صاحبهـا جـراء مـا اكتسـبت يـداه كمـا أكـد في مختتم وصيته ليكـون فيمـا اكتسـبه عـبرة لأبنائـه الذيـن حثهـم علـى التمسـك بـالقيم الاجتماعيـة الـتي يرغـب في أن يتحلـى بهـا أبنـاؤه مـن بعـده .

ومـن الوصايـا الـتي ركـزت علـى الأبعـاد النفسـية الـتي تؤكـد ارتبـاط الإنسان ببيئته وصية حصـن بـن حذيفـة بـن بـدر الـتي وجههـا لأبنائـه إذ قـال : [2]

" يـا بـني ، لا يتكـل آخركـم علـى أولكـم ، فإنمـا يـدرك الآخـر مـا أدرك الأول ، وأنكِحـوا الكـفء الغريـب ؛ فإنـه عـز حـادث ، وإذا حضركـم أمـران فخـذوا بخيرهمـا صـدرا ... وأصبحـوا قومكـم بـأجمل أخلاقكـم ، ولا تخالفوا فيمـا اجتمعـوا عليـه، فإن الخلاف يُـزري بـالرئيس المطـاع ، إذا حـادثتم فـأربعوا[3] ، ثـم قولـوا الصـدق ، فإنـه لا خـير في الكـذب ، وصونـوا الخيـل فإنهـا حصـون الرجـال ، وأطيلـوا الرمـاح فإنهـا قـرون الخيـل ، ولا تغـزوا إلا بالعيـون [4] ولا تسـرِّحوا حتـى تـأمنوا الصبـاح، وأعطـوا علـى حسـب المـال ، وأعجلـوا الضيـف بـالقرى ، فـإن خـيره أعجلـه واتقـوا فضيحـات البغـي ، وفلتـات المـزاح ، ولا تجـيروا علـى الملوك فـإن أيديهـم أطـول مـن أيديكـم " .

---

[1] أي اضربوا في الأرض ، سافروا وتنقلوا .

[2] أمالي السيد المرتضى ،١:٥٣١ وجمهرة خطب العرب ١:١٢٩

[3] أي تمهلوا عند القول ، ولا تتسرعوا في الإجابة أواتخاذ القرار .

[4] العيون : الجواسيس ، ويعني : لا تغزوا قبل أن تبثوا عيونكم للاستطلاع .

إذ رسمت هذه الوصية ضروب الحياة في العصر الجاهلي التي تتمثل في العادات والتقاليد والقيم التي عرف بها العربي في ذلك العصر .

ومن أشهر " الوصايا " الجاهلية التي ركزت على الدور التربوي للوصية مما يمكن استخدامه في العصر الحديث ، ومما يمكن أن نعدها من الأدب الرفيع الذي يحمل روح الحكمة والتجربة ومعاني الخبرة ممن أدركوا سر الحياة وعرفوا مداخل الحياة ومخارجها ، وصية عبد قيس بن خفاف ، وهو من بني عمرو بن حنظلة من البراجم [1] إذ وجهها -شعراً- لابنه جبيل فقال : [2]

أجبيل إن أباك كارب يومه	فإذا دعيت إلى العظائم فاعمل [3]
أوصيك إيصاء امرئ لك ناصح	طبن بريب الدهر غير مغفل: [4]
اللهَ فاتَّقه وأوف بنذره	وإذا حلفت محارباً فتحلل
والضيفَ أكرمه فإنَّ بيته	حق ، ولا تَكُ لُعنةً للنُزَّلِ [5]
واعلم بأن الضيف مخبر أهله	بمبيت ليلته وإن لم يسأل
ودع القوارض للصديق وغيره	كي لا يروك من اللئام العُزَّل [6]
وصِل المواصلَ ما صفا لك وده	واحذر حبال الخائن المتبدِّل
واترك محل السوء لا تحلل به	وإذا نبا بك منزل فتحوَّل
دار الهوان لمن رآها داره	أفراحلٌ عنها كمن لم يرحل !

---

[1] أخباره في الأغاني ، لأبي فرج الأصفهاني ١٤٥:٧ ، والأمالي ، للقالي ٣:٢١ .

[2] المفضليات ص٣٨٤-٣٨٥، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف.

[3] كارب يومه : قرب ودنا ، يعني قرب وفاته .

[4] إيصاء : وصية . طبن : حاذق ، فطن .

[5] اللُعنة : (بضم اللام وسكون العين) : الذي يلعنه الناس كثيراً . النزل :الضيوف .

[6] القوارض : الكلام القبيح .

وإذا هممت بأمر شر فاتئد		وإذا هممت بأمر خير فافعل [1]
وإذا أتتك من العدو قوارص		فاقرص كذلك ولا تقل لم أفعل
وإذا افتقرت فلا تكن متخشنا		ترجو الفواضل عند غير المُفضل
وإذا لقيت القوم فاضرب فيهم		حتى يروك طلاء أجرب مهمل
واستغن ما أغناك ربك بالغنى		وإذا تصبك خصاصة فتجمل [2]
واستأنِ حلمك في امورك كلها		وإذا عزمت على الهوى فتوكل
وإذا تشاجر في فؤادك مرة		أمران فاعمد للأعفِّ الأجملِ [3]
وإذا لقيت الباهشين إلى الندى		غُبْراً أكفهم بقاعٍ مُمْحِلِ [4]
فأعنهم وأيسر بما يسروا به		وإذا هم نزلوا بضنك فانزل [5]

إذ رسمت هذه " الوصية " المثل الأخلاقية التي حرص المجتمع على تربية أبنائه عليها بدءا من تقوى الله ، وإيفاء النذور ، ومواصلة الأصدقاء ، والابتعاد عن الجدل والخصومة ، والحث على إكرام الضيف وتجنب الكلام القبيح .

ثم حثه على الاتئاد إذا حدث نفسه بالشر ، وأمره بالإسراع في عمل الخير ، وهذا مما دأب عليه العرب في توجهاتهم ، فقد قال شاعرهم : [6]

وإني وإن أوعدته أو وعدته		لأخلف إيعادي وأنجز موعدي

---

(1) اتئد : تمهل وتريث .

(2) الخصاصة : الفقر والحاجة . قال تعالى :" ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة " (الحشر آية ٩). تجمل:اصبر وتحمل .

(3) تشاجر في فؤادك : أي تنازع في رأيك أمران .

(4) الباهشين : الفرحين ، المسرورين بفعله .

(5) أيسر بما يسروا به : أسرع إلى جانبهم . والضنك : الضيق والشدة .

(6) البيت لعامر بن الطفيل (اللسان " وعد ") .

وأمـا في الحـرب فيحثـه علـى أن يكـون فتاكـاً شـجاعاً ليتقيـه النـاس ويتحـاموه كمـا يتحـامون الأجـرب وطـلاءه...

ومـن الملاحـظ أن هـذه " القصيـدة " تـأخذ طـابع الوصيـة أكثر مـن كونهـا تعاليم تربوية ، وهذا ما ركـز عليـه منشئها منـذ مفتحهـا بقولـه :

أوصيك إيصاء امرئ لك ناصح　　　طبن بريـب الدهـر غـير مغفـل

ومـن الوصايـا التربويـة الـتي عـالجت " سلوك " الأبنـاء مـا روى عـن حـاتم الطـائي الـذي رئـي يومـاً يضـرب ولـده لمـا رآه يضـرب كلبـة كـانت تـدل عليـه أضيافـه وهـو يقـول :[1]

أقول لابني وقد سُطْتُ يديه　　　بكلبـة لا يـزال يجلـدهـا [2]

أوصيك خيرا بها فإنَّ لهـا　　　عنـدي يـدا لا أزال أحمدهـا

تدل ضيفي عليَّ في غلس الـ (م)　　　ليـل إذا النـار نـام مـوقدهـا

ولا يستغرب هـذا " السـلوك " مـن حـاتم الـذي كـان يضـرب بـه المثـل في الكـرم والمكـارم ، والـذي كـان يقـول لغلامـه " يسـار " إذا اشـتد الـبرد وكلـب الشـتاء، ويخاطبـه قـائلا[3] :

أوقـد فـإن الليل ليـل قَـرُّ　　　والريـح يـا موقـد ريـح صِـرُّ

علَّ يـرى نـارك من يمـر　　　إن جلبـت ضيفـاً فـأنت حُـرُّ

و لم يقتصـر"فـن الإيصـاء " في العصـر الجـاهلي علـى الآبـاء ؛بـل نقلـت لنـا كتـب الأدب وصايـا بعـض الأمهـات إلى بنـاتهن . ومـن أشـهر هـذه الوصايـا وصيـة أمامـه بنـت الحـارث (وهـي امـرأة ذات نبـل وشـرف ، وهـي زوج عـوف بـن ملحـم

---

[1] العقد الفريد ١:٢٤٣ .

[2] سطت يديه : منعتها وأمسكتها .

[3] العقد الفريد ١:٢٤٢.

ابن ذهل بن شيبان ، وهو من أشراف العرب في العصر الجاهلي) وقد أوصت بها ابنتها عندما حُملت لزوجها الحارث بن عمرو أحد ملوك اليمن ، إذ خاطبتها قائلة:[1]

" أي بنية ، إن الوصية لو تركت لعقل وأدب ،أو مكرمة في حسب ،لتركتُ ذلك منكِ ،ولزويته عنكِ ، ولكن الوصية تذكرة للعاقل ، ومنبهة للغافل .

أي بنية ، إنه لو استغنت المرأة بغنى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عن الزواج ، ولكن للرجال خلق النساء ، كما لهن خلق الرجال .

أي بنية ، إنك قد فارقت الحواء [2] الذي منه خرجت ، والوكر الذي منه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك ملكاً ،فكوني له أمة يكن لك عبداً، واحفظي عني خصالاً عشراً ؛ تكن لك دركاً وذكراً :

فأما الأولى والثانية: فالمعاشرة له بالقناعة ، وحسن السمع والطاعة؛ فإن في القناعة راحة القلب ، وحسن السمع والطاعة رأفة الرب .

وأما الثالثة والرابعة : فلا تقع عيناه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا أطيب الريح ، واعلمي -أي بنية - أن الماء أطيب الطيب المفقود ، وأن الكحل أحسن الحسن الموجود .

---

[1] العقد الفريد ٧:١١٩ ،المعمرون والوصايا ص١١٩-١٢٠ ، الفاضل في صفة الأدب الكامل،٢٢٣-٢٢٤. جمهرة الأمثال ٢:٢٥٢ ، مجمع الأمثال ٣:٢٤٠ جمهرة خطب العرب ١:١٤٥-١٤٦ ، الوصايا الخالدة ، ص ١١٣-١١٥.

[2] الحواء : المكان الذي يحوي الشيء ويضمه .

وأما الخامسة والسادسة : فالتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة ،وتنغيص النومة مغضبة .

وأما السابعة والثامنة : فالاحتفاظ بماله ، والرعاية على حشمه وعياله ؛ فإن الاحتفاظ بالمال من حسن التقدير ، والرعاية على الحشم والعيال من حسن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة : فلا تفشي له سرًّا ، ولا تعصي له أمراً؛ فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره ، وإن عصيت أمره أوغرت صدره .

واتقي الفرح لديه إذا كان ترحاً ، والاكتئاب عنده إذا كان فرحاً، فإن الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ،واعلمي أنك لن تصلي إلى ذلك منه حتى تؤثري هواه على هواك ، ورضاه على رضاك فيما أحببت وكرهت ، والله يخير لك، ويصنع لك برحمته".

وهذه الوصية تعد من أفضل الوصايا وأكملها في موضوعها ، وقد اخترناها لأنها صدرت عن امرأة ذات مكانة وشرف ، بينما نسبت غيرها من الوصايا لمجهولات من نساء العرب كالوصية التي رواها الحسن بن عبد الرحمن، والوصية التي رواها أبو عبيدة معمر بن المثنى [1] ، وتجسد هذه الوصية قدرة المرأة العربية على استجلاء الأبعاد النفسية للرجل وحرص المرأة على تحقيق رضاه في إطار الحياة الأسرية المستقرة ، ولتحذيرها من أبرز المنغصات في الحياة الزوجية.

وبعد الوقوف على هذه " الوصايا " في العصر الجاهلي نستطيع أن نحدد لها الملامح التالية:

[1] انظر: الفاضل في صفة الأدب الكامل ، لمحمد بن أحمد الوشاء ، ص ٢٢٤ وما بعدها.

* صدق البوح ، وحرارة المعاناة وتدفقها بعفوية وتلقائية .

* سهولة الطرح والمعالجة ، وصدق العاطفة ، وإخلاص المحبة .

* قصر الجمل وتوازنها ، مع الحرص على السجع الجميل في غير تكلف ، وعدم التركيز على فكرة واحدة في الغالب.

* رسم صورة تعبيرية واضحة للبيئة الاجتماعية من خلال القيم والأخلاق والصفات التي ركزت عليها الوصايا ؛ مما يؤكد استقرار المجتمع في تلك الفترة لوضوح أخلاقياته وقيمه .

* بروز الطابع الديني في أكثر الوصايا مما يدل على أن العصر الجاهلي لم يكن خالصاً للوثنية .

* تميز بعض الوصايا بشيء من الخصوصية كوصايا الملوك لأبنائهم والرغبة في إعدادهم لولاية العهد فيما بعدهم . ووصية أمامه بنت الحارث لرغبتها في تنشئة ابنتها تنشئة اجتماعية خاصة وهي تستشرف حياتها الزوجية بخطى ثابتة اعتماداً على تجربة واثقة واسعة .

* إن معظم الوصايا جاء متأخراً عند الكبر والشيخوخة أو عند الاحتضار وهي الفترة التي أطلقت عليها الدكتورة سهام الفريح فترة " الغروب الإنساني "[1] ولعل ذلك مما يقف وراء سر الكلمات المرتعشة والصور الباكية والموسيقى الشجية في كثير من الوصايا .

ومن المؤكد أن صدور " الوصايا " في فترة القوة والعزيمة والعطاء يكون

---

[1] انظر : الوصايا في الأدب العربي القديم . ص٤٤.

أكثر عطاء ومنفعة للأبناء بدل أن تكون عظة مؤثرة في ساعة الإحساس بهشاشة الحياة وزوالها ، بل زوال" الإنسان " ومفارقته .

* التركيز في الوصايا على الحكم والأمثال مما جعل تلك الوصايا مصدراً هاماً من مصادر كثير من الحكم والأمثال المتداولة ، وما ذلك إلا لحرص الآباء على تقديم خلاصة عمرهم أو خلاصة تجربتهم في كلمات قليلة في سبيل تنظيم علاقة الفرد مع قبيلته أو خصومها .

* كثرة حشد الوصايا بالمعاني مما جعل كثيراً منها مستعصياً على الحفظ والبقاء ، ولعل ذلك وراء ضياع كثير من وصايا العصر الجاهلي التي مثلها كمثل الشجرة المثقلة بالثمار إذ تسقط عنها الثمرات واحدة فواحدة ؛ وكذلك حدث لكثير من الوصايا إذ لم يبق لنا منها إلى ما اقتطفه مصنفو كتب المختارات.

* ومن أبرز الملامح التي تبرزها " الوصايا في العصر الجاهلي " وجود انقطاع تام بين اتجاهات التربية العربية الجاهلية وتربية الأمم المجاورة ؛ لأن تلك الوصايا تمحورت حول الحاجات الاجتماعية التي تناسب المجتمع القبلي العربي بكل قيمه ومفاهيمه وتقاليده وتوجهاته .

وصايا الآباء إلى الأبناء في عصر صدر الإسلام

ومع ظهور الإسلام وما تركته تعاليمه التي عمرت القلوب ونبهت العقول استمرت وصايا الآباء إلى أبنائهم ، وتأثرت تلك الوصايا بالمفاهيم الجديدة والقيم الإسلامية والنماذج الأدبية الرفيعة التي مثلها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ،وما تبع ذلك من تحولات جوهرية في حياة الفرد والمجتمع ، وعلاقة الإنسان بغيره من البشر .

وقد أسهمت " وصايا الآباء إلى الأبناء" ، في هذا العصر بالحفاظ على بنية المجتمع وكيانه اعتماداً على ما تركه الدين الجديد من آثار في حياة الأمة وقيمها واتجاهاتها .

ولعل أكبر دليل على تأثر المسلمين في صدر الإسلام بالدين الجديد في وصاياهم لأبنائهم ما تركه الإسلام من آثار في حياة المخضرمين من الآباء الذين هذبهم الإيمان وصهرتهم العقيدة حتى تغيرت مفاهيمهم رأساً على عقب :

فها هي " الخنساء " الشاعرة الباكية الحزينة التي أظهرت جزعها وتفجعها لفقد أخويها صخر ومعاوية في الجاهلية توصي أبناءها وهم يتجهون للمشاركة في القادسية بما يترجم أثر التربية التي تركها الإسلام في نفسها ؛ إذ تخاطب أبناءها الأربعة وتقدمهم فداء لدين الله طائعة راضية مرضية ، وتقول:[1]

" يا بني ، أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ،ووالله الذي لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت

---

[1] الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٤:١٨٢٨ تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ١٤١٢هـ /١٩٩٢م ، خزانة الأدب للبغدادي ،٤٣٨ تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي القاهرة ، الفاضل في صفة الأدب الكامل للوشاء ، ص ٢٢٠.

أباكم ، ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ [1] فإذا أصبحتم غدا - إن شاء الله - سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين . فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، واضطرمت لظى على سياقها ، وجللت نارا على أوراقها ، فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها ، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة " .

إذ تذكرهم بكرم نسبهم ، وحسن منبتهم ، وشرف حسبهم ، وصفاء أنسابهم ؛ مما يدعوهم إلى الاعتزاز بأنفسهم ويحقق لهم الخيرية على أقرانهم ويدعوهم إلى الإخلاص في الدفاع عن دينهم ونصرة معتقدهم .

ولم يقف ما أحدثه الإسلام في نفس الخنساء عند هذا الحد بل تعدى ذلك إلى أن كشف استشهاد أبنائها الأربعة في معركة القادسية ما تركته التربية الإيمانية في نفسها حين استقبلت نبأ استشهادهم قائلة :" الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته ".

ويبدو ذلك - أيضا - في وصية عبدة بن الطبيب الذي جمع بنيه لما أسن ، وأنشأ يسرد لهم ما خلفه لهم من مآثر باقية ، ومفاخر خالدة ، ثم نصحهم بتقوى الله ، وبر الوالدين ، والاتحاد ، وترك الاختلاف والتنابذ ، وحذرهم من الإصغاء إلى النمام والمنافق ، ثم نوه بحسن رأيه ... إلخ .

---

[1] سورة آل عمران ، آية ٢٠٠.

وما ذلك إلا استجابة لحاجات المجتمع الإسلامي الجديد الذي نبذ كثيراً من العادات والتقاليد الجاهلية ، حيث يبدو التأثر بالتعاليم الإسلامية في معظم أبيات القصيدة من صدٍّ عن نزعات الغي والهوى الشخصي ، وتذكير بنهاية الإنسان وفناء الحياة إذ يقول:[1]

أبني إني كبرتُ ورابني   بصري ، وفيَّ لمصلح مستمتع [2]
فلئن هلكت لقد بنيت مساعياً   تبقى لكم منها مآثر أربع :[3]
ذِكْرٌ إذا ذُكِرَ الكرام يزينكم   ووراثة الحسب المقدم تنفع
ومقام أيام لهن فضيلة   عند الحفيظة والمجامع تجمع
ولهيً من الكسب الذي يغنيكم   يوماًإذا احتضرالنفوسَ المطمع[4]
ونصيحة في الصدر صادرة لكم   ما دمت أبصر في الرجال وأسمع
أوصيكم بتقى الإله فإنه   يعطي الرغائب من يشاء ويمنع
وببر والدكم وطاعة أمره   إن الأبر من البنين الأطوع
إن الكبير إذا عصاه أهله   ضاقت يداه بأمره ، ما يصنع ؟
ودعوا الضغينةلا تكن من شأنكم   إن الضغائن للقرابة توضع
واعصوا الذي يزجي النمائم بينكم   متنصحاً ذاك السمام المنقع
يزجي عقاربه ليبعث بينكم   حرباً كما بعث العروق الأخدع
حران لا يشفي غليل فؤاده   عسلٌ بماء في الإناء مشعشع

---

[1] المفضليات ، للمفضل الضبي ١٤٥-١٤٩، الأغاني ١٦٣:١٨ ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٥٦-٤٥٧ ، الحيوان للجاحظ ١٦٦-١٦٧:٤ رسائل الآباء إلى الأولاد ص٢٨ .

[2] رابني بصري : أيقنت منه الريبة . لمصلح : لمن استصلحني فاستمتع بعقلي ورأيي .

[3]. المساعي : المكارم .

[4] اللهى : واحدتها لهوة ، وأصلها الحفنة من الطعام تطرح في الرحى .

لا تأمنوا قوماً يشبُّ صبيهم | بين القوابل بالعداوة ينشع
فضلت سماوتهم على أحلامهم | وأبت ضباب صدورهم لاتُنزعُ[1]
قوم إذا دمس الظلام عليهم | حدجوا قنافذ بالنميمة تمزع
أمثال زيد حين أفسد رهطه | حتى تشتت أمرهم فتصدعوا [2]
إن الذين ترونهم خُلانكم | يشفي صداع رؤوسهم أن تصرعوا
إن الحوادث يخترمن ، وإنما | عُمُر الفتى في أهله مستودع
يسعى ويجمع جاهداً مستهتراً | جداً ، وليس بآكل ما يجمع [3]
حتى إذا وافى الحمام لوقته | ولكل جنب-لا محالة- مصرع
نبذوا إليه بالسلام فلم يجب | أحداً وصَمَّ عن الدعاء الأسمع

ورغم ظهور القيم والتعاليم الإسلامية في الأبيات الأخيرة من هذه "الوصية " إلا أنها لم تخل من القيم المادية التي كان يعتز بها العرب في جاهليتهم مما يدل على أنه لم يسلم قائلها من كل ما هو جاهلي ؛ نظراً لقربه من الحياة الجاهلية وتأثره ببعض مفاهيمها وتقاليدها، إذ نلمح ذلك من خلال تذكيره لأبنائه بالمكارم التي بناها لهم من شرف وصيت و مال وحسب .

ومن الوصايا التربوية التي عني أصحابها ببناء شخصيات أبنائهم انطلاقا من تعاليم الإسلام وأساليبه ؛وصية يزيد بن الحكم الثقفي الذي توفي في السنة الخامسة للهجرة ، وهو من صحابة رسول الله ﷺ ، كان أبو العاص الثقفي جده ، وقد أوصى ابنه (بدراً)بقصيدة تجسد الأهداف التربوية التي أراد تحقيقها في تربية ابنه

---

[1] فضلت : أزادت في الفضل.

[2] زيد :هو ابن مالك الأصغر بن حنظلة بن مالك الأكبر.

[3] المستهتر : المولع بالشيء ، الذاهب العقل فيه من شدة حرصه عليه

في ظل الإسلام وانطلاقاً من مبادئه وقيمه إذ قال :[1]

يا بدر والأمثال يضـ (م) ـربها لذي اللب الحكيمُ :
دم للخليل بودّه (م) ما خير ودّ لا يدوم ؟!
واعرف لجارك حقه والحق يعرفه الكريم
واعلم بأن الضيف يو (م) ما سوف يحمد أو يلوم
والناس مبتنيان محـ (م) ـمود البناية أو ذميم
واعلم بنيّ فإنه بالعلم ينتفع العليم
إن الأمور دقيقها مما يهيج له العظيم
والتّبْلُ يصرع أهله والظلم مرتعه وخيم[2]
والمرء يُكرم للغنى ويُهان للعدم العديم
قد يقتر الحول النقـ (م) ـي ويكثر الحمق الأثيم[3]
يملي لذاك ويبتلى هذا فأيهما المضيم
والمرء يبخل في الحقو (م) ق وللكلالة ما يسيم
وما بخل من هو للمنو (م) ن وريبها غرض رجيم
ويرى القرون أمامه همدوا كما همد الهشيم
وتخرب الدنيا فلا بؤس يدوم ولا نعيم
كل امرئ ستئيم منـ (م) ـه العرس أو منها يئيم[4]

---

[1] حماسة أبي تمام ،ج٢:٦٦ وما بعدها ، القاهرة ١٩٥٥م .

[2] التبل :التأثر ، ويعني الثأر سيجلب قتلاً آخر مما يؤدي إلى استمرار القتل .

[3] الحول : كثير الاحتيال للوصول إلى الرزق .

[4] آم الرجل من زوجته ، يئيم أيما : فقدها .وآمت المرأة من زوجها : فقدته .

والحرب صاحبها الصليـ (م) ـب على تلاتلها العزوم [1]
من لا يمل ضراسها ولدى الحقيقة لا يخيم
واعلم بأن الحرب لا يَسْطِعُها المرح السؤوم [2]
والخيل أجودها المُنا (م) هب عند كبتها الأزوم [3]

إذ ضرب الشاعر لابنه الأمثال متأثراً بأسلوب القرآن في قوله تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾[6]... وما ذلك إلا لأن ضرب الأمثال وسيلة تربوية تجريبية أراد الشاعر توظيفها في إثارة حس الموصى لما سيلقى إليه من نصائح وإرشادات.

وحث الشاعر ولده على حفظ المودة، وحفظ الجوار، ورعاية الحقوق، وإكرام الضيف؛ لأن إكرامه مجلبة للمدح والمحبة، وأما التقصير في حق الضيف فإنه مدعاة للذم واللوم.

ومما يؤكده الشاعر في وصيته أن الناس عند تصنيفهم بناء على أخلاقهم وأحوالهم صنفان: صنف محبوب لحسن أخلاقه ومحمود سيرته، وصنف

---

[1] الصليب: القوي الشديد. تلاتل الحرب: شدائدها. العزوم: الماضي في عزمه.

[2] السؤوم: كثير السأم والملل والضجر.

[3] المناهب: من ينهب الأرض في عدوه. الكبة: الجملة في الحرب. الأزوم: العضوض.

[4] سورة الحشر آية ٥٩.

[5] سورة إبراهيم، الآية ٣٥.

[6] سورة النور، الآية ٢٤.

مذموم لأخلاقه الدنيئة وسيرته الذميمة .

ويحثه على طلب العلم لما للعلم من أثر في بناء الشخصية ، ويؤكد أهمية التخلي عن الظلم وأخذ الثأر -وهما من العادات التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي - ثم يحذره من الركون إلى الأيام والليالي ، وألا يركض وراء العصبية المقيتة ،ويحذره من البخل .

ولما كانت " القوة العسكرية " لازمة في كل عصر من العصور فقد أكد الشاعر على أنها من المتطلبات الجسدية التي لا يُستغنى عنها .

ولدى تحليل هذه الوصية نرى أنها تسعى إلى تحقيق الأهداف التالية:[1]

١. رعاية النمو النفسي والانفعالي وفهم الذات .

٢. الوقوف عند السلوك الاجتماعي ومعرفة القيم الإيجابية للأخذ بها والسلبية لتجنبها .

٣. الإيمان بقيمة الصديق الوفي والخليل المحب لتماسك الأفراد والجماعات.

٤. الحفاظ على العلاقات الاجتماعية الطيبة مع الجار والضيف .

٥. التواصل العلمي والقدرة على متابعة القراءة والكتابة والعلم .

٦. رفض الظلم ، ومعرفة نهاية كل ظالم لتجنبه ،وأخذ العبرة اللازمة.

٧. إناطة الرزق بالغيب ،وربط ذلك بالسعي الحثيث بما في القسم الأول من سلبية غير مقبولة ،ولدت فكرة التواكل.

٨. العيش من خلال منظار المعرفة القائل بزوال كل ما في الدنيا من نعيم أو بؤس .

---

[1] ملامح تربوية في الشعر الجاهلي والإسلامي . للدكتور علي شواخ أسحق الشعبي ص٥٨/٥٩ الطبعة الأولى/ الرياض، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

٩. العمل على تربية النفوس تربية عسكرية لأن الحروب تحتاج إلى أنفس قوية ، وعزائم جبارة ،والحفاظ على وسائل الحرب المهمة من باب الاحتياط والإعداد.

وهذه الأهداف مما جاء به الإسلام وحرص عليه في بناء شخصيات الأبناء بما يتلاءم مع تعاليم الإسلام ومثله العليا وفضائله التربوية .

ومما يمثل الوصايا في عصر صدر الإسلام ، ويجسد ما أحدثه الإسلام في تشكيل بنية المجتمع الإسلامي وصايا الخلفاء الراشدين ،ومنها وصية عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – التي وجهها لابنه عبد الله ضمن رسالة بعث بها إليه إذ قال : [1]

" أما بعد ، فإن من اتقى الله وقاه ، ومن اتكل عليه كفاه، ومن شكر له زاده ، ومن أقرضه جزاه ، فاجعل التقوى عمارة قلبك ، وجلاء بصرك ، فإنه لا عمل لمن لا نية له ، ولا خير لمن لا خشية له ، ولا جديد لمن لا خَلَقَ له ".

وأول ما يلاحظ في هذه " الوصية " التركيز على النصح والإرشاد الديني الذي يؤكد أن " الإسلام " قد صار هو الموجه للنفس البشرية ،وأن تعاليمه هي المصدر الذي تنبعث منه أحكام المسلمين ، حيث دعا عمر ابنه إلى تقوى الله، والتوكل عليه ، وشكره على نعمه ، مؤكداً له أن " الأعمال بالنيات" ، وهذا ما يمثل الخلق الإسلامي القويم للمجتمع في عصر صدر الإسلام، إذ نلمح التأثر بمعاني القرآن الكريم وألفاظه والاحتكام إليه في الحكم على سلوك الإنسان.

وهكذا فقد مثلت هذه " الوصية " تطوراً في معاني الوصية عما كانت

---

[1] العقد الفريد ، لابن عبد ربه ٣: ٩٩–١٠٠، الأمالي ، لأبي علي القالي ٢: ٥٣.

عليه في عصر الجاهلية ، وإن بقي أسلوبها كما كان قبلاً يعتمد على الاختصار والجمل القصيرة المستقلة وإن ارتبطت بما يليها بواو العطف .

ومن الصحابة والخلفاء-رضي الله عنهم- الذين اهتموا بتوجيه "الوصايا " لأبنائهم علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه - الذي حفظت له كتب الأدب عدداً من الوصايا ومنها :

وصيته لابنه الحسن التي حفظها العاملي في كتابه أسرار البلاغة إذ جاء فيها : [1]

" يا بني ، أوصيك بتقوى الله في الغيب والشهادة ، وكلمة الله في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، والعدل في النشاط والكسل ، والرضا عن الله -عز وجل - في الشدة و الرخاء.

يا بني ، ما شَرٌّ بعده الجنة بشَرٍّ ، ولا خير بعده النار بخير ،ولا نعيم دون الجنة محقور ،وكل بلاء دون النار عافية .

اعلم يا بني أنه مَنْ عَيَبَ نفسه شُغل عن عيب غيره ، ومن رضيَ بِقَسْم الله لم يحزن على ما فاته ، ومن سل سيف البغي قُتِلَ به ، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها ، ومن هتك حجاب أخيه انكشفت عورات بنيه ،ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره ،ومن كابد الأمور عُطب ، ومن اقتحم البحر غرق ، ومن أُعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تكبر على الناس ذل ،ومن سفه عليهم شُتم ،ومن سلك مسالك الشر اتهم ،ومن خالط الأنذال حُقر ،ومن جالس العلماء

---

[1] العقد الفريد ، لابن عبد ربه ٢:٩٩-١٠٠ .، أسرار البلاغة ، للعاملي ٣٤٢-٣٤٣ طبعة البابي الحلبي١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.

وُقِر ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عُرف به ، ومن كثر خطؤه، قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار .

يا بني ، مَنْ نظر في عيوب الناس ورضيها لنفسه فذلك الأحمق بعينه ، ومن تفطّن اعتبر واعتزل ، ومن اعتزل سلم ، ومن ترك الحسد كان له المحبة من الناس .

يا بني، عز المؤمن غناؤه عن الناس ، والقناعة مال لا ينفد ، ومن أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ، ومن علم أن كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما ينفعه ، والعجب ممن خاف العقاب فلم يَكُفَّ ، ورجا الثواب فلم يعمل ، والذّكر نور ، والغفلة ظُلمة ، والجهالة ضلالة ، والسعيد من وُعِظ بغيره ، والأدب خير ميراث ، وحُسن الخلق خير قرين .

يا بني، ليس مع قطيعة الرحم نماء ، ولا مع الفجور غناء .

يا بني، العافية عشرة أجزاء ، تسعة منها في الصمت إلا بذكر الله تعالى ، وواحد في ترك مجالسة السفهاء ، ومن تزين بمعاصي الله في المجالس أورثه الله ذلاً ، من طلب العلم علم .

يا بني ، رأس العلم الرفق وآفته الخُرق ، ومن كنوز الإيمان الصبر على المصائب ، العفاف زينة الفقر ، والشكر زينة الغنى .

يا بني ، كثرة الزيارات تورث الملالة ، الطمأنينة قبل الخبرة ضد الحزم ، إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله .

يا بني ، كم من نظرة جلبت حسرة ، وكم من كلمة سلبت نعمة ، ولا شرف أعلى من شرف الإسلام ، ولا كرم أعز من التقوى ،

ولا معقِل أعز من الورع ، ولا شفيع أنجح من التوبة ، ولا لباس أجمل من العافية ، ولا مال أذهب للفاقة من الرضى ، ومن اقتصد على بلغة الكفاف فقد تعجل الراحة ، وتبوّأ أحسن الدَّعة ، والحسن مفتاح التعب ومطية النصب ،وداع إلى التقحم في الذنوب [١] ، والشَّرَهُ داع إلى مساوئ العيوب ، وكفاك أدباً لنفسك ما كرهته لغيرك ، لأخيك المؤمن عليك مثل الذي لك عليه ، ومَنْ تعرض في أمور من غير نظر في العواقب فقد تعرض لفادحات النوائب ، التدبير قبل العمل يؤمنك الندم، من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ ، الصبر جُنّةٌ من الفاقة ، البخل جلباب المسكنة ، الحرص علامة الفقر ، وَصولٌ مُعدم خير من جافٍ مُكثر ، ولكل شيء قوت ، وابن آدم قوت الموت .

يا بني ، لا تؤيس مذنباً ، فكم من عاكف على ذنبه خُتم له بالخير ، وكم من مقبل على عمله مُفْسِدٌ له في آخر عمره ، ومن تحرى القصد[٢] خفّت عليه الأمور ، في خلاف النفس[٣] رشدها، الساعات تُنقص الأعمار ، ربُّك للباغين من أحكم الحاكمين ، وعالم بضمائر المضمرين ، وبئس الزاد إلى الميعاد العدوان على العباد ، في كل جُرعة شَرَق [٤] ، ومع كل لقمة غصص ، لا تُنال نعمة إلا بفراق أخرى ، ما أقرب الراحة من التعب ! والبؤس من النعيم ! والموت من الحياة ! فطوبى[٥] لمن أخلص لله علمه وعمله ، وحبه وبغضه ، وكلامه وصمته،

---

[١] التقحم بالذنوب : الارتماء فيها .

[٢] القصد: الاعتدال

[٣] في خلاف النفس : أي مخالفتها ، ويقصد مخالفة الهوى ، لأن النفس أمارة بالسوء .

[٤] الشرق :الغصة من الماء وغيره .

[٥] طوبى : هنيئاً ، وهي من أسماء الجنة .

وبخ [1] لعالمٍ عَلِمَ فكفَّ ، وعمل فجدَّ ، وخاف البيان فأعدَّ ، واستعدَّ ، إن سئل أَفْصَح ، وإن ترك صَمَتَ ، كلامه صواب ، وسكوته غير عيٍّ عن الجواب ، ما يكرهه الناس له ، ويزري على الناس بمثل ما يأتي ، من لانت كلمته وجبت محبته ، من لم يكن له سخاء ولا حياء ؛ فالموت أولى به من الحياة ، لا تتم مروءة الرجل حتى لا يبالي أيَّ ثوبيه لبس ، ولا أي طعامه أكل "[2]

إذ نلحظ في هذه " الوصية " جزالة الألفاظ ، ودقة المعاني المستمدة من معاني القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، والاعتماد على الحكم والأمثال في التعبير عن المعنى ، وقصر الجمل ، وتعدد المعاني في مختلف شئون الحياة انطلاقاً من تجربة إنسانية ثرية، مع الحرص على الجناس غير المتكلف كما هو المعهود في أسلوب علي - كرم الله وجهه - .

وفي وصية أخرى خص بها ابنه الحسن - أيضاً - قال : [3]

" من على أمير المؤمنين الوالد الفان ، المقر للزمان ، المستسلم للحدثان [4] ، المدبر العمر ، المؤمل ما لا يدرك السالك سبيل من هلك، غرض الأسقام [5] ، ورهينة الأيام ، وعبد الدنيا ، وتاجر الغرور ، وأسير المنايا ، وقرين الرزايا ، وصريع الشهوات ، ونُصب الآفات، وخليفة الأموات .

---

(1) بخ : اسم للتعظيم والإعجاب والرضا والمدح .

(2) لا يبالي أي ثوبيه لبس ، ولا أي طعامه أكل : كناية عن التواضع والقناعة والرضى .

(3) العقد الفريد ٣: ١٠٠-١٠١ ،الوصايا الخالدة ، لعبد البديع صقر ومصطفى حبر ص ٨٧-١٠٤.

(4) الحدثان : الليل والنهار .

(5) غرض الأسقام : هدفها .

أما بعد، يا بني ، فإن فيما تفكرت فيه من إدبار الدنيا عني ، وإقبال الآخرة عليَّ ، وجموح الدهر عليَّ ما يرغبني عن ذكر سواي ، والاهتمام بما ورائي ، غير أنه حيث تفرد بي همُّ نفسي دون هم الناس ، فصدقني رأيي ، وصرفني عن هواي ، وصرح بي محض أمري ، فأفضى بي إلى جِدٍّ لا يُزري به لعب ، وصدقٍ لا يشوبه كذب [1] ، ووجدتك يا بني بعضي ، بل وجدتك كلي ، حتى كأن شيئاً لو أصابك لأصابني ، وحتى كأن الموت لو أتاك أتاني ، فعند ذلك عناني من أمرك ما عناني[2] من أمر نفسي ، كتبت إليك كتابي هذا يا بني مستظهراً به إن أنا بقيت لك أو فنيت ، فإني موصيك بتقوى الله ، وعمارة قلبك بذكره، والاعتصام بحبله ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾[3] وأي سبب يا بني ، أوثق من سبب بينك وبين الله تعالى إن أنت أخذت به ! أحيِ قلبك بالموعظة ، ونوره بالحكمة ، وأمته بالزهد، وذلله بالموت ، وَقَوِّهِ بالغنى عن الناس ، وحَذِّره صولة الدهر ، وتقلُّب الأيام والليالي ، واعرض عليه أخبار الماضين ، وسر في ديارهم وآثارهم فانظر ما فعلوا ، وأين حلوا ، فإنك تجدهم قد انتقلوا من دار الغرور ونزلوا دار الغربة [4] ، وكأنك عن قليل يا بني قد صرت كأحدهم ، فبع دنياك بآخرتك ، ولا تبع أخرتك بدنياك ، ودع القول فيما لا تعرف ، والأمر فيما لا تُكلَّف ، وأمر بالمعروف بيدك ولسانك ، وانه

---

(1) لا يشوبه كذب : لا يخالطه .

(2) عناني : أهمني .

(3) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣.

(4) دار الغرور : الحياة الدنيا ، ودار الغربة : القبر.

عن المنكر بيدك ولسانك ، وباين [١] مَنْ فعله ، وخُض الغمرات إلى الحق ، ولا يأخذك في الحق لومة لائم ، واحفظ وصيتي ولا تذهب عنك صفحاً، فلا خير في علم لا ينفع، واعلم أنه لا غنى لك عن حُسن الارتياد [٢] ، مع بلاغك من الزاد ، فإن أصبت من أهل الفاقة من يحمل عنك زادك فيوافيك به في معادك فاغتنمه ، فإن أمامك عقبة كئود [٣] لا يجاوزها إلا أخف الناس حملاً فأجمل في الطلب ، وأحسن المُكتسب ، فَرُبَّ طلب قد جرَّ إلى حرَب ، وإنما المحروب من حُرب دينه ، والمسلوب من سُلب يقينه ، واعلم أنه لا غنى يعدل الجنة ، ولا فقر يعدل النار ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ".

فهذه " الوصية " وإن جاءت على شكل رسالة إلا أنها تحمل روح الإمام علي وزهده في الدنيا ورغبته فيما عند الله وخشيته منه ، وهو ككل والد ناصح يأمر ولده بحفظ وصيته ،ويحثه على العمل بما فيها من إرشادات وتوجيهات تحقق النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة .

وفي وصية أخرى يتوجه الإمام علي - كرم الله وجهه - إلى ولده محمد بن الحنفية يرسم له فيها دستور الأخلاق والأدب مما يرتفع بالنفوس إلى أعلى المقامات وأسمى المراتب إذ يقول : [٤]

" يا بني ، تَفَقَّهْ في الدين ، وَعَوِّد نفسك الصبر على المكروه ، وكِلْ نفسك في أمورك كلها إلى الله - عز وجل - فإنك تكلها إلى

---

[١] باين من فعله : فارق واهجر ، والضمير يعود على المنكر في الجملة السابقة .

[٢] حسن الارتياد : حسن الطلب .

[٣] عقبة كئود : الكئود (من الأرض) : التي لا تنبت شيئاً ،والمراد : عقبة صعبة ، وموقف عظيم .

[٤] العقد الفريد ٣: ١٠١- ١٠٢.

كهف حريز ، ومانع عزيز، وأخلص المسألة لربك فإن بيده العطاء والحرمان ،وأكثر الاستخارة له ، واعلم أن من كان مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن كان لا يسير ، فإن الله تعالى قد أبى إلا خراب الدنيا وعمارة الآخرة ، فإن قدرت أن تزهد فيها زهدك كله فافعل ذلك ، وإن كنت غير قابل نصيحتي إياك فاعلم يقينا أنك لن تبلغ أملك ، ولا تعدو أجلك ، فإنك في سبيل من كان قبلك ، فأكرم نفسك عن كل دنية وإن ساقتك إلى الرغائب ، فإنك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً، وإياك أن توجف [1] بك مطايا الطمع وتقول : متى ما أُخّرت نزعت ، فإن هذا أهلك من هلك قبلك ، وأمسك عليك لسانك ، فإنَّ تلافيك ما فرط من صمتك أيسر عليك من إدراك ما فات من منطقك ، واحفظ ما في الوعاء بشد الوكاء [2] ، فَحُسْنُ التدبير مع الاقتصاد أبقى لك من الكثير من الفساد ، والحرفة [3] مع العفة خير من الغنى مع الفجور ، والمرء أحفظ لسره ، ولربما سعى فيما يضره ، وإياك والاتكال على الأماني ، فإنها بضائع النّوكى[4] ، وتُثَبّط عن الآخرة والأولى ، ومن خير حظ الدنيا القرين الصالح ، فقارن [5] أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشر تبن عنهم ، ولا يغلبنَّ عليك سوء الظن ، فإنه لن يدع بينك وبين خليل صلحا . أَذْكِ قلبك بالأدب كما تُذكى النار بالحطب، واعلم أن كفر النعمة لؤم ، وصحبة الأحمق شؤم ، ومن الكرم مَنْعُ الحرم ، ومن حلم ساد ، ومن تفهم ازداد ، امحض أخاك

---

[1] توجف : تسرع .

[2] الوكاء : رباط الوعاء والقربة والكيس ونحوها.

[3] الحرفة : الضيق والإقلال .

[4] النوكى : مفردها نوك ، وهو الأحمق .

[5] قارنه (قرانا ومقارنة): صاحبه مقترنا به .

النصيحة [١] ،حسنة كانت أو قبيحة ، لا تَصرم أخاك على ارتياب [٢] ، ولا تقطعه دون استيعاب، وليس جزاء من سرك أن تسوءه ، الرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك ، فإن لم تأته أتاك ، واعلم يا بني أنه ما لك من دنياك إلا ما أصلحت به مثواك ، فأنفق من خيرك ، ولا تكن خازناً لغيرك ، وإن جزعت على ما يفلت من يديك ، فاجزع على ما لم يصل إليك ، ربما أخطأ البصير قصده ، وأبصر الأعمى رشده ، ولم يهلك امرؤ اقتصد ، ولم يفتقر من زهد ، من ائتمن الزمان خانه ، ومن تعظم عليه أهانه، رأس الدين اليقين ، وتمام الإخلاص اجتناب المعاصي ، وخير المقال ما صَدَّقه الفعال ، سل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار ، واحمل لصديقك عليك، واقبل عذر من اعتذر إليك ، وأخّر الشر ما استطعت ، فإنك إذا شئت تعجلته ، لا يكن أخوك على قطيعتك أقوى منك على صلته ، وعلى الإساءة أقوى منك على الإحسان ، لا تُملكنَّ المرأة من الأمر ما يجاوز نفسها ، فإن المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة [٣] ، فإن ذلك أروم لحالها ، وأرخى لبالها ، واغضض بصرك بسترك ، واكففها بحجابك ، وأكرم الذين بهم تصول، فإذا تطاولت [٤] تطول ، أسأل الله أن يلهمك الشكر والرشد، ويقويك على العمل بكل خير ، ويصرف عنك كل محذور برحمته، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته".

فهذه الوصية / الرسالة قد جاءت كسابقتها ترسم دستور الأدب

---

[١] امحض أخاك النصيحة : أخلص له فيها وخصه بها .

[٢] لا تصرم أخاك على ارتياب:أي لا تقاطعه اعتمادا على الشك .

[٣] القهرمانة : مدبرة شؤون البيت .

[٤] تطاولت : تكبرت وترفعت .

مما يحقق لمن اتعظ بها وعمل بما جاء فيها خيري الدنيا والآخرة ، ويرفع به إلى أعلى المراتب والدرجات ؛ لأنها تقوم على مبادئ الإسلام وتعاليمه.

ومن الوصايا التي وجهها الإمام علي - كرم الله وجهه- إلى أبنائه الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية قوله :[1]

" أوصيكما بتقوى الله[2] ، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تبكيا على شيء منها زوى عنكما ، وقولا الحق وارحما اليتيم ،وأعينا الضائع الجائع ، وكونا للظالم خصماً ، وللمظلوم عوناً، ولا تأخذكما في الله لومة لائم .

ثم نظر إلى ابن الحنفية ، فقال :

هل فهمت ما أوصيت به أخويك ؟

قال : نعم .

قال : أوصيك بمثله ، وأوصيك بتوقير أخويك، وتزيين أمرهما، ولا تقطع أمراً دونهما .

وقال لهما : أوصيكما به ؛ فإنه شقيقكما ، وابن أبيكما ، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه .

ثم قال : وإن الساعة آتية لا ريب فيها ، وإن الله يبعث من في القبور ، ثم إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لرب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين .

---

[1] المعمرون والوصايا ١٥٠-١٥١؛ المستطرف ١: ٧٨-٧٩.

[2] الخطاب (هنا) للحسن والحسين - رضي الله عنهما.

وإني أوصيك يا حسن وجميع ولدي ومن بلغه كتابي هذا بتقوى الله ربكم ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، فإني سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول : إصلاح ذات البين أفضل من عام صيام وصلاة ، انظروا ذوي أرحامكم فصلوهم ؛ يهون الله عليكم الحساب ، والله الله في الأيتام ، فلا تُغَيرُنَّ أفواههم بحضرتكم [1] ، والله الله في الضعيفين ، فإن آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال : أوصيكم بالضعيفين خيراً [2] .

والله الله في القرآن فلا يسبقكم بالعمل به غيركم ، والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم ، والله الله في الزكاة ؛ فإنها تطفئ غضب ربكم عنكم ، والله الله في صيام رمضان فإن صيامه جُنّة لكم من النار، والله الله في الحج فإن بيت الله إذا خلا لهم تناظروا ، والله الله في الفقراء والمساكين فشاركوهم في معايشكم وأموالكم .

عليكم بالبر والتواصل والتبار [3] ، وإياكم والتقاطع والتدابر والتفرق وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، حفظكم الله من أهل البيت وحفظ فيكم نبيكمﷺ " .

فهذه الوصية الموجهة من الإمام علي - كرم الله وجهه - لأبنائه جميعاً وجميع أبناء الأمة ممن وصلتهم هذه الوصية تركز على تقوى الله ، وعلى الألفة والمحبة والتواصل ، إلى جانب حثها على التمسك بأركان الإسلام لما لها من أثر في سلوك المسلم وتصرفاته .

---

[1] أي لا تجعلوهم يجوعون وأنتم تنظرون .

[2] الضعيفان : النساء والموالي .

[3] التبار : البر ، أي أن يبر كل منكم الآخر .

وقد عكس الإمام علي - كرم الله وجهه - في هذه الوصية صورة زهده وورعه وتدينه كما عكس صورة تجربته وحنكته وخلاصة آرائه في شؤون الحياة ؛ مدعماً رأيه بنصوص القرآن الكريم وألفاظ الرسول الكريم ﷺ رغبة في بناء شخصية الإنسان المسلم وفق تعاليم الإسلام وقيمه.

ومما ينسب للإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وصيته الشعرية التي خص بها ابنه الحسين - رضي الله عنهما - إذ خاطبه قائلاً : [1]

أحسين إني واعظ ومؤدبُ   فافهم فأنت العاقل المتأدبُ
واحفظ وصية والد متحنن   يغذوك بالآداب كيلا تعطب
أبني إن الرزق مكفول به   فعليك بالإجمال فيما تطلب
لا تجعلن المال كسبك مفردا   وتُقى إلهك فاجعلن ما تكسب
كفل الإله برزق كل برية   والمال عارية تجيء وتذهب
والرزقُ أسرع مِنْ تَلَفُّتِ ناظر   سببا إلى الإنسان حين يُسَبَّبُ
ومن السيول إلى مقر قرارها   والطير للأوكار حين تُصوِّب
أبني إن الذكر فيه مواعظ   فمن الذي بعظاته يتأدب
فاقرأ كتاب الله جهدك واتله   فيمن يقوم به هناك وينصب
بتفكر وتخشع وتقرب   إن المقرب عنده المتقرب
واعبد إلهك ذا المعارج مخلصا   وانصت إلى الأمثال فيما تضرب
وإذا مررت بآية وعظية   تصف العذاب فقف ودمعك يُسكب
يا من يعذب من يشاء بعدله   لا تجعلني في الذين تُعَذِّب

[1] ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ١٧٠-١٧١ ، دار الأرقم بن أبي الأرقم ، بيروت (د.ت).

إني أبوء بعثرتي وخطيئتي   هرباً إليك وليس دونك مهرب
وإذا مررت بآية في ذكرها   وصف الوسيلة والنعيم المعجب
فاسأل إلهك بالإنابة مخلصا   دار الخلود سؤال من يتقرب
واجهد لعلك أن تحل بأرضها   وتنال روح مساكن لا تخرب
وتنالَ عيشا لا انقطاع لوقته   وتنال ملك كرامة لا تسلب
بادر هواك إذا هممت بصالح   خوف الغواية إذ تجيء وتغلب
وإذا هممت بسيئ فاغمض له   وتجنب الأمر الذي يُتجنب
واخفض جناحك للصديق وكن له   كأب على أولاده يتحدب
والضيفَ أكرِمْ ما استطعت جواره   حتى يعدك وارثا يتنسب
واجعل صديقك من إذا آخيته   حفظ الإخاء وكان دونك يضرب
واطلبهم طلب المريض شفاءه   ودع الكذوب فليس ممن يُصحب
واحفظ صديقك في المواطن كلها   وعليك بالمرء الذي لا يكذب
واقل الكذوب وقربه وجواره   إن الكذوب ملطخ ما يصحب
يعطيك ما فوق المنى بلسانه   ويروغ منك كما يروغ الثعلب
واحذر ذوي الملق اللئام فإنهم   في النائبات عليك ممن يخطب
يسعون حول المرء ما طمعوا به   وإذا نبا دهر جَفَوا وتغيَّبُوا
ولقد نصحتك إن قبلت نصيحتي   والنصح أرخصُ ما يُباع ويوهب

ولا أريد أن أقف عند مدى قناعتي بصحة نسبة هذه "الوصية" للإمام علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه - ولكنني رغم قناعتي بأنها أقرب إلى النظم منها إلى الشعر ؛ لأن عمل الخيال فيها عمل محدود ؛ فإنني أؤكد أهمية الطابع الفكري الذي ساد الوصية وصحة المضامين التي شملتها وتلاؤمها مع تعاليم الدين الإسلامي وما أحدثه من تحولات جوهرية في مفاهيم المجتمع العربي وقيمه

وتقاليده ؛ إذ استمدت كثيراً من مفاهيمها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، بل واستعارت بعض ألفاظهما .

ومن وصاياه الشعرية التي خص بها ابنه الحسين - رضي الله عنه - وكتب بها إليه قوله :[1]

عليك ببر الوالدين كليهما　　وبر ذوي القربى وبر الأباعد
فلا تصحبنّ إلا تقيًّا مهذباً　　عفيفاً زكيًّا مُنجزاً للمواعد
وكفَّ الأذى واحفظ لسانك واتقي　　فديتك في ود الخليل المساعد
ونافس ببذل المال في طلب العلى　　بهمة محمود الخلائق ماجد
وكن واثقاً بالله في كل حادث　　يَصُنْكَ مدى الأيام من عين حاسد
وبالله فاستعصم ولا ترجُ غيره　　ولا تك في النعماء عنه بجاحد
وغُضَّ عن المكروه طرفك واجتنب　　أذى الجار واستمسك بحبل المحامد
ولا تَبْنِ في الدنيا بناء مؤمل　　خلوداً فما حيٌّ عليها بخالد

فهذه الوصية التي عنيت بهذه الجوانب التربوية وهي : بر الوالدين ، وبر ذوي القربى وغيرهم، والحث على مصاحبة من اتصف بالتقى والعفة والالتزام بالمواعيد ، والحث على مكارم الأخلاق كالكرم وطلب المعالي ، إلى جانب الحث على تقوى الله والاتكال عليه ، والإحسان إلى الجيران ، وعدم الركون إلى الدنيا لأنها فانية وكل ما فيها إلى زوال، ومما يحسن التمسك به

[1] جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، لأحمد الهاشمي ، ص٦٦١ ، دار الكتب العلمية /بيروت و لم ترد الوصية في ديوان الأمير علي بن أبي طالب الذي نشرته دار الأرقم بن أبي الأرقم .

والتفكير به ، ولكن توجيهه لصحابي جليل تربى في بيت النبوة وفي كنف والديه علي وفاطمة – رضي الله عنهما – مما يشي بوضع هذه الوصية ونسبتها للإمام علي – كرم الله وجهه– .

ومن وصايا علي – كرم الله وجهه – التربوية لابنه الحسن التي حث فيها على الفطنة وعدم الاعتداء قوله : [(1)]

" لا تدعون أحداً إلى المبارزة ، وإن دعيت إليها فأجب ، فإن الداعي إليها باغٍ والباغي مصروع ".

وقد أوصى قيس بن عاصم المنقري بنيه وصية بدا فيها تأثره بتعاليم الإسلام وحثهم على الالتزام بها إذ قال :[(2)]

" يا بني ، خذوا عني ؛ فلا أحد أصلح لكم مني : إذا دفنتموني فانصرفوا إلى رحالكم ، فسوِّدوا أكبركم ، فإن القوم إذا سَوَّدوا أكبرهم خلفوا أباهم ، وإذا سودوا أصغرهم ؛ أزرى ذلك بهم في أكفائهم ، وإياكم ومعصية الله، وقطيعة الرحم ، وتمسكوا بطاعة أمرائكم ؛ فإنهم مَنْ رفعوا ارتفع ، ومن وضعوا اتضع ، وعليكم بهذا المال فأصلحوه فإنه منبهة للكريم ، وجُنّة لِعرض اللئيم وإياكم والمسألة فإنها أخر [(3)] ، وإنَّ أحداً لم يسأل إلا ترك الكسب ، وإياكم والنياحة ،

---

(1) عيون الأخبار، لابن قتيبة ، ١: ١٦٣.

(2) المعمرون والوصايا ١٣٥ ، شرح ابن أبي حديد ٤:١٥٥ ، وتهذيب الكمال :١١ ، بلوغ الأرب ٣: ١٦٧-١٦٨،وجمهرة خطب العرب ١:١٧١ -١٧٢.

(3) أخر (بقصر الهمزة لا غير):أي أدنى وأرذل. وقد رويت بالمد ،وعلق أحمد زكي صفوت على ذلك بقوله : "ومن رواه بالمد أخطأ".

فإني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عنها [1] وادفنوني في ثيابي التي كنت أصلي فيها وأصوم ، ولا يعلم بكر بن وائل بمدفني ؛ فقد كانت بيني وبينهم مشاحنات في الجاهلية والإسلام ، وأخاف أن يُدخلوا عليكم بي عاراً ،وخذوا عني ثلاث خصال : إياكم وكل عرق لئيم أن تلابسوه ؛ فإنه إن يسرركم اليوم يسؤكم غداً ، واكظموا الغيظ واحذروا بني أعداء آبائكم ؛ فإنهم على منهاج آبائهم ، ثم قال :

أحيا الضغائن آباء لنا سلفوا فلن تبيد وللآباء أبناء ".

وقد أوصى العباس ابنه حين قَدَّمه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بما رواه الشعبي عن ابن عباس -رضي الله عنهما -قال :[2]

" قال لي أبي : أرى هذا الرجل (يعني عمر بن الخطاب) يستفهمك ويُقَدِّمُك على الأذكياء من أصحاب محمد ﷺ وإني موصيك بخلال أربع : لا تُفشينَّ له سرًّا ، ولا يُجَرِّبَنَّ عليك كذباً ، ولا تطو عنه نصيحة ، ولا تغتابن عنده أحداً .

قال الشعبي : فقلت لابن عباس : كل واحدة خير من ألف . قال: إي والله ومن عشرة آلاف ".

وكيف لا تساوي كل وصية من هذه الوصايا ألفاً بل عشرة آلاف ، وهي ترسم دستوراً أخلاقيًّا في أدب مَنْ يصحب السلطان انطلاقاً من تعاليم الشريعة الإسلامية وما ركزت عليه في بناء شخصية الإنسان المسلم فقد قال

---

(1) وفي رواية " المعمرون والوصايا " : فإن رسول الله ﷺ ، لم ينح عليه .

(2) العقد الفريد ١: ١٠-١١ ، آداب الملوك ، للثعالبي ، ص٢٣٤، المستطرف ١:٨٨-٨٩ وفي الحيوان للجاحظ ٥:١٨٩-١٩٠ بلفظ مختلف .

المأمون : **الملوك تتحمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء : القدح في الملك ، وإفشاء السر ، والتعرض للحرم** .[1] وإن مقارنة يسيرة بين وصية العباس ورأى المأمون تدل على تأثر كل منهما بالدين الجديد وما أحدثه من آثار في حياة الأمة وقيمها واتجاهاتها .

ومن آداب صحبة السلطان - أيضا- وصية أبي سفيان وزوجه لابنهما معاوية حين عمل لعمر - رضي الله عنه -وهي :[2]

" لما قدم معاوية من الشام ، وكان عمر قد استعمله عليها ، دخل على أمه هند ؛ فقالت له : يا بني ، إنه قلما ولدت حرة مثلك ، وقد استعملك هذا الرجل (تعني عمر بن الخطاب) فاعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهته ".

ثم دخل على أبيه أبي سفيان ؛ فقال له : يا بني ، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم ، فرفعهم سَبْقُهُم وقصَّر بنا تأخُّرُنا ، فصرنا أتباعاً وصاروا قادة ، قد قلدوك جسيماً من أمرهم ، فلا تخالفنَّ أمرهم ، فإنك تجري إلى أمد لم تبلغه ، ولو قد بلغته لتَنَفَّستَ فيه .

قال معاوية : فعجبت من اتفاقهما في المعنى على اختلافهما في اللفظ "

وما ذلك إلا توظيف لتعاليم الإسلام في طاعة أولي الأمر ؛ إذ قال تعالى:﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ [3] وقال رسول الله

---

[1] العقد الفريد ١:١٣ .

[2] نفسه :١٤ .

[3] سورة النساء ،آية ٥٩ .

ﷺ " أطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم ، ولو ولي عليكم عبد رأسه زبيبة".

ومن وصايا الصحابة -رضوان الله عليهم - التي جسدت تأثرهم بالدين الجديد، والتي تؤكد التحولات الجوهرية في حياة الفرد والمجتمع في عصر صدر الإسلام ، وصية معاذ بن جبل لابنه التي حث فيها على التعفف عما بأيدي الناس ، وإلى "الالتزام " بالأخلاق الحميدة التي لا يحتاج صاحبها إلى " الاعتذار " عما صدر عنه من قول أو فعل ، والالتزام بإتقان العبادات وإحسان أدائها وبخاصة الوضوء والصلاة لما للوضوء من أهمية في إظهار طهارة البدن الظاهر ، ولما للصلاة من أثر في طهارة الباطن ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ [1] ، مع تأكيده – رضوان الله عليه – على أهمية الإكثار من "الخير " يوماً بعد يوم ليزداد " المرء " خيراً وحسناً وإحساناً يوماً بعد يوم ،إذ قال :[2]

" يا بني ، أظهروا اليأس مما عند الناس فإنه غنى ، وإياكم وطلب ما يعتذر منه من القول والفعل ، وإذا صليت يا بني فأسبغ الوضوء، وصلِّ صلاة مودع يرى أنه لن يؤوب إلى أهله، فإن استطعت أن تكون اليوم خيراً منك أمس ، وغداً خيراً منك اليوم فافعل ".

وممن أوصى بنيه من الصحابة – رضوان الله عليهم – الأشعث بن قيس الكندي، الذي كان أمير كندة في الجاهلية والإسلام، ووفد على النبي ،

---

[1] سورة العنكبوت ،آية ٤٥ .

[2] المعمرون والوصايا ، ص١٢٦.

ﷺ، وشهد اليرموك والكثير من المواقع الإسلامية ، وكان مع علي -كرم الله وجهه- في صفين ، وتوفي سنة ٤٠هـ ، ومما أوصى به بنيه قوله :[1]

" يا بني ، لا تذلوا في أعراضكم ، وانخدعوا في أموالكم ولْتَخِفَّ بطونكم من أموال الناس ، وظهوركم من دمائهم ، فإن لكل امرئ تبعة ، وإياكم وما يعتذر منه أو يستحيا ، فإنما يعتذر من ذنب ويستحيا من عيب ،وأصلحوا المال لجفوة السلطان ، وتغير الزمان ، وكفوا عند الحاجة عن المسألة ، فإنه كفى بالرد منعاً ، وأجملوا في الطلب حتى يوافق الرزق قدرا .

وامنعوا النساء من غير الأكفاء ؛ فإنكم أهل بيت يتأسى بكم الكريم ، ويتشرف بكم اللئيم، وكونوا في عوامِّ الناس ما لم يضطرب الحبل ، فإذا اضطرب الحبل فالحقوا بعشائركم ".

إذ حرص الأشعث بن قيس في هذه الوصية على حث أبنائه على حفظ أعراضهم والتساهل في بذل المال ، وأوصاهم بالتعفف عن أموال الناس ، والابتعاد عن دمائهم كما حثهم على الابتعاد عن الذنوب والعيوب ، وأن يتعودوا الاقتصاد في النفقة والتخطيط للمستقبل ، وألا يزوجوا بناتهم غير الأكفاء مذكراً لهم بمكانتهم ومنزلتهم ...

وأما عمير بن حبيب فقد أوصى بنيه بوصية تربوية حثهم فيها على البعد عن السفه والسفهاء ودعاهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحمل تبعة ذلك إذ قال:[2]

---

(1) العقد الفريد ٣:٩٩ .

(2) الأمالي لأبي علي القالي ٢:٥٦ ، جمهرة خطب العرب ١:١٧١ .

" يا بني ، إياكم ومخاطبة السفهاء ؛ فإن مجالستهم داء ، وإنه من يحلم عند السفيه يسر بحلمه ، ومن يجبه يندم ، ومن لا يقر بقليل ما يأتي به السفيه يقر بالكثير ، وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فليوطن قبل ذلك على الأذى ، وليوقن بالثواب من الله – عز وجل – أنه من يوقن بالثواب من الله – عز وجل – لا يجد مس الأذى".

إذ إن هذه الوصية التربوية لم تخرج عن تعاليم الشريعة الإسلامية في تعاليمها ومضامينها :

إذ فيها مضمون الحديث النبوي الشريف :" **لا تكن إمعة ، تقول : إذا أحسن الناس أحسنت وإذا أساءوا أسأت ، ولكن وطن نفسك على أن تحسن إذا أساء الناس، وألا تسيء إذا أساءوا** ".وفيها إشارة إلى حث الإسلام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله تعالى :" ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ [1] ، وقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ [2] .وقد ربط القرآن الكريم بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جهة والصبر من جهة أخرى في وصية لقمان لابنه إذ قال :﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾ [3]

---

[1] سورة آل عمران ،آية ١٠٤ .

[2] سورة آل عمران ،آية ١١٠ .

[3] سورة لقمان ، الآية ١٧ .

ومن وصايا الصحابة -رضوان الله عليهم - التي وجهها أصحابها إلى أبنائهم ليكونوا حلقة اتصال فيما بينهم وبين أصحابها وصية عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - التي حَمَّلَها لابنه عبد الله - رضي الله عنه - لينقلها إلى الخليفة من بعده ، ولم توجه مباشرة إلى عبد الله إذ ذكروا عن قطر بن خليفة وغيره أن عمر بن الخطاب دعا ابنه عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - فقال:[1]

" أي بني إذا قام الخليفة بعدي فأته ، فقل له : إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقرئك السلام ، ويوصيك بتقوى الله وحده لا شريك له ، ويوصيك بالمهاجرين والأنصار ، أن تقبل من محسنهم ، وتتجاوز عن مسيئهم ، ويوصيك بأهل الأمصار خيرا ؛ فإنهم غيظ العدو وجُباة الفيء ، لا تحمل فيئهم إلا عن فضل منهم ، ويوصيك بأهل البادية خيراً ، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام، أن تأخذ من حواشي أموالهم فيرد على فقرائهم ، ويوصيك بأهل الذمة خيراً ، أن تقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقاتهم ".

إذ جسدت هذه " الوصية " عظم المسئولية التي تحملها عمر - رضي الله عنه - تجاه أفراد رعيته حيًّا ، وأراد أن يحافظ عليها ميتاً من خلال خليفته من بعده ، مما يؤكد حرصه على الحفاظ على بنية المجتمع وكيانه اعتماداً على ما تركه الدين الإسلامي من آثار في حياة الأمة وتوجهاتها .

[1] المعمرون والوصايا ؛ ص١٤٩ ، البيان والتبيين ٢ :٣١ .

ولم تنحصر الوصايا في هذا العصر بالبنين ، فقد أورد صاحب الأغاني قصة زواج عثمان بن عفان -رضي الله عنه - من نائلة بنت الفرافصة التي كان والدها نصرانيًّا وكتب إلى ابنه " ضب " بالموافقة على زواجها ، فأوصاها ليلة هدائها(زواجها) بقوله :[1]

" إنك تقدمين على نساء من نساء قريش هن أقدر على الطيب منك ، فاحفظي عني خصلتين : الكحل والماء ، فتطهري حتى يكون ريحك ريح شن أصابه مطر "[2] .

وبعد أن استعرضنا هذه" الوصايا " من وصايا الصحابة - رضوان الله عليهم - في صدر الإسلام نستطيع أن نلمح فيها الخصائص التالية :

- جزالة الألفاظ ، وسهولة العبارات ، وقوة الأسلوب لتأثرها بأسلوب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ؛ إلى جانب صدورها عمن عرفوا بالفصاحة والبيان .
- محاكاتها لأسلوب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وتضمين بعض ألفاظهما والاستشهاد بما جاء فيهما من النصوص .
- توظيف التعاليم الإسلامية في الوصايا نظراً لتأثر الآباء والتزامهم العقدي بتعاليم الإسلام وما أحدثه من تحولات جوهرية بحياة الأمة .

---

[1] الأغاني ١٥: ٧٠-٧١ (بولاق) ،عيون الأخبار ٢: ٣٦٣ ، الموشى ، للوشاء ص ١٢٥، دار صادر بيروت ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م. سير أعلام النساء ، لعمر رضا كحالة ٥: ١٤٧-١٤٨، مؤسسة الرسالة الطبعة الرابعة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

[2] هذه عبارة الأغاني ، وفي الموشى للوشاء :" حتى تكون ريحك كريح الشباب المطهرين " .

- تنوعها بين الإيجاز والإطناب مراعاة لمناسبة الوصية ، ولاختلاف قدرات منشئيها الأدبية والبلاغية .
- احتفاظها بالقالب التعبيري العام الذي كان سائداً في الوصايا الجاهلية من حيث قصر الجمل وتوازنها ، مع الحرص على السجع الجميل في غير تكلف ، والتركيز على الحكم والأمثال في الغالب .
- بروز الطابع الديني بشكل واضح ، حيث الافتتاح والاختتام بالحمد والسلام - في الوصايا النثرية - والعبارات الدينية التي تجسد أثر النقلة الإيمانية التي أحدثها الإسلام في الفرد والمجتمع .
- ظهور التحول العام الذي أحدثه الإسلام في المجتمع العربي ؛ إذ حلت الأخوة مكان النزاع والأنانية الفردية ، وحل الجهاد محل الغزو ، وحلت الجماعة المؤمنة والمجتمع المتآخي الأفراد، والمتوحد في أهدافه واتجاهاته مكان القبيلة وقيمها وتوجهاتها .

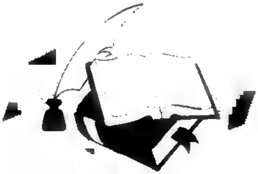

وصايا الآباء إلى الأبناء في العصر الأموي

لقد أكد النقاد أن " الأدب " يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبيئة والنفس ، ويتخذ خصائصه من خصائصها .

وقد لاحظنا ما تركه " الإسلام " من تحولات في قيم واتجاهات ومفاهيم المجتمع العربي ؛ مما بدا أثره واضحاً في " وصايا الآباء إلى الأبناء " في عصر صدر الإسلام .

وما من شك في أن ما اتسمت به أيام الدولة الأموية من قلاقل وفتن في أوائل أيامها ، ثم ما تمتعت به من منعة واستقرار فيما بعد ، إلى جانب اندفاع المسلمين خارج جزيرة العرب في سبيل نشر الإسلام، واتصالهم بغيرهم من الشعوب وامتزاجهم بغيرهم من الأمم مما أتاح لهم الانفتاح على ثقافات الأمم المجاورة و الإفادة منها؛ إذ أعاد الدكتور شوقي ضيف عناصر الثقافة العربية في العصر الأموي إلى ثلاثة جداول مهمة : جدول جاهلي ، وجدول إسلامي وجدول أجنبي ، إذ إن الجدول الجاهلي يمثله ما ورثه العرب من شعر وتقاليد ومعارف ، وأما الجدول الإسلامي فيبدو في القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ، وسيرته وغزواته ، ثم الفتوح الإسلامية وأحداثها وأحداث الجهاد ، ثم الصراعات الداخلية بين الفرق المختلفة ، وتمثل الجدول الأجنبي باندفاع المسلمين لطلب ما لدى الأمم المجاورة من معارف تطبيقية ومعارف ثقافية وعلمية نظرية،[1] مما ترك أثره في نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعقائدية ، ومما

---

[1] العصر الإسلامي ، للدكتور شوقي ضيف ١٩٩ وما بعدها ط ٨ دار المعارف بمصر (د.ت)

انعكس على المفاهيم والتقاليد والقيم ، وكان له أثره في التجارب الشخصية التي أدت إلى تطور الفنون الأدبية بعامة والوصايا بخاصة :

إذ نشطت " وصايا الآباء إلى الأبناء " في العصر الأموي نتيجة التطور الفكري والاجتماعي الذي تعرض له المجتمع الإسلامي في ذلك العصر ،"ونهضت بدورها الوظيفي إزاء تلك المتغيرات ، واتبعت خطًّا صاعداً سواء من الناحية العددية أو النوعية "[1] .

فلما حضرت الوفاة معاوية بن أبي سفيان (مؤسس الدولة الأموية) وابنه يزيد غائب ؛ دعا مسلم بن عقبة المري ، والضحاك بن قيس الفهري ، وقال لهما :[2]

" أبلغنا عني يزيد وقولا له :

انظر إلى أهل العراق ، فإن سألوك عزل عامل لهم في كل يوم فاعزله عنهم؛ فإنَّ عزل عامل أهون عليك من سَلِّ مائة ألف سيف ، ثم لا تدري على ما أنت عليه منهم .

ثم انظر أهل الشام ، فاجعلهم الشعار دون الدثار [3] ، فإن رابك من عدوك ريب فارمهم بهم ، فإن أظفرك الله بهم ، فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، ولا يقيموا في غير بلادهم فيتأدبوا بغير أدبهم .

لست أخاف عليك غير عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن

---

[1] أدب البنوة في نثر العصرين الأموي والعباسي الأول ، ص ١٦، وانظر : العقد الفريد ٤:١٧٥ وجمهرة خطب العرب ٢:١٨٧و ٥:١٢٢ ، البيان والتبيين ٢:٨٩-٩٠ .

[2] المعمرون والوصايا ١٥٥-١٥٦ .

[3] اجعلهم الشعار دون الدثار : كناية عن الاحتضان والتقريب . والشعار : ما يلبس تحت الدثار من اللباس مما يلي الجسد .

الزبير ، وحسين بن علي ، فأما عبد الله بن عمر فرجل قَدَّ وقذه الورع[1]، وأما الحسين فإني أرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه ، وخذل أخاه ، وأما ابن الزبير فإنه خبٌّ ضبٌّ [2]، فإذا طلع فاثبت له ، فقلما مارست رجلاً مثله ، فوالله لو قذفته في بئر مملوءة زفتا لخرج منها متلمساً " [3]

وتمثل هذه " الوصية " تطوراً نوعيًّا في فن الوصايا لا في التوجيه السياسي فحسب ، بل في كشف نفسية معاوية السياسي الداهية الذي رسم السياسة التي يريدها لولي عهده حين رسم له أسلوب التعامل مع كل بيئة وكل مجموعة من الناس بما يناسبها ويتلاءم مع توجهاتها ، ورسم له الصورة الواضحة - في ذهنه - لشخصية كل من الرؤوس الثائرة ضد البيت الأموي والذين يمثلون الزبيريين والشيعة وأتباع ابن عمر من الصحابة وأبناء الحجاز ، وفي ترجمة أسلوب التوسط والاعتدال وإيجاد التوازن بين الشدة واللين الذي عُرف به معاوية من خلال مقولته الخالدة :" **لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ، إذا شدوها أرخيها ، وإذا أرخوها شددتها** "[4]

إذ أوصى ولي عهده بتلبية رغبات أهل العراق خوفاً من الثورة عليه ، وأوصاه بالاستعانة بأهل الشام والضن بهم عن الابتعاد عنه أو عن وطنهم ، وأوصاه بأهل الحجاز خيراً لأنهم الأهل والعشيرة .

---

[1] قد وقذه الورع : كناية عن انشغاله عن السياسة بالورع . يقال : وقذه النوم : أي غلبه .

[2] خب ضب : أي مراوغ مخادع.

[3] لو قذفته في بئر مملوءة زفتا لخرج منها متلمساً : كناية عن الحنكة والقدرة على التصرف ومعالجة الأمور .

[4] العقد الفريد ١:٢٥ آداب الملوك ، للثعالبي ص ٨٣ ، وفيه أن معاوية قال يوماً لزياد : أنا أسوس أم أنت ؟فقال : أتجعل رجلاً خبط الناس بسيفه كمن ساسهم بالرفق واللين واللطف حتى سمعوا له وأطاعوا ؟، غرر الخصائص الواضحة، للوطواط، ص ١٠٣.

ونلاحظ أن هذه " الوصية " لم يظهر فيها الجانب التربوي الذي لاحظناه في الوصايا الجاهلية ووصايا صدر الإسلام لاهتمامها بجانب الإعداد لولاية العهد ، ونلاحظ فيها خفوت الوازع الديني الذي برز جليًّا في صدر الإسلام حيث الحث على طاعة الله ، والتقوى ... إلى جانب وضوح الاندفاع إلى حب الدنيا والحرص على الملك والسلطان مما أكده قول معاوية عن نفسه: **"إن عليًّا طلب الدنيا بالدين فجمعت له ، وإني طلبت الدنيا بالدنيا فنلتها"**[(١)]

وتتميز هذه " الوصية " بوضوح النزعة العقلية والمنطقية ؛ إذ جاء أسلوبها متفاوتاً بين الأمر وجوابه ، والشرط وجوابه ، مع الحرص على التعليل وذكر الأسباب والنتائج ، مما أدى إلى وضوح المعاني ، وسهولة العبارات ، نظراً لجمال الألفاظ وانتقائها ، والبعد عن الزخارف اللفظية إلا ما جاء دون قصد كالسجع والتقسيم والازدواج .

وأما مروان بن الحكم(أحد خلفاء بني أمية ٢هـ/٦٢٣م- ٦٥هـ/٦٨٥م وأول من ضرب الدنانير الشامية) فقد أوصى ابنه عبد العزيز حين استعمله على مصر ، فقال له حين ودعه : أرسل حكيماً ولا توصه ، ثم قال :[(٢)]

" أي بني ، انظر إلى عمالك ، فإن كان لهم عندك حقٌّ غدوة فلا تؤخرهم إلى عشية ، وإن كان لهم عشية فلا تؤخرهم إلى غدوة ، وأعطهم حقوقهم عند محلها تستوجب بذلك الطاعة منهم .

وإياك أن يَظْهر لرعيتك منك كذبٌ فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق .

---

(١) البصائر والذخائر ، لأبي حيان التوحيدي ١: ٢٠١، ٢: ٤٣ دمشق ١٩٦٦م.

(٢) العقد الفريد ١:٤٠-٤١ ، جمهرة خطب العرب ٢:١٩١ .

واستشر جلساءك وأهل العلم ، فإن لم يستبن لك فاكتب إليَّ يأتك رأيي فيه -إن شاء الله تعالى .

وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سورة الغضب [1] واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب ، منطفئ الجمرة ، فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة .

ثم انظر إلى ذوي الحسب والدين والمروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك . ثم ارفع منازلهم منك على غير استرسال ولا انقباض .

أقول هذا وأستخلف الله عليك ".

وقد أوردت بعض كتب التراث وصيته لابنه عبد العزيز حين ولاه مصر وخاف أنصار الزبيريين فخاطبه قائلاً :[2]

" يا بني ، عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك ، واجعل وجهك طلقاً ، تصفُ لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره ، يكن عيناً لك على غيره ، وينقاد قومه إليك ، وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ".

ومن الملاحظ أن هاتين الوصيتين ترسمان جانباً من جوانب سياسة الحكم في عصر بني أمية ؛ إذ رسم فيهما مروان بن الحكم الأسلوب الأمثل في معالجة الشقاق واستقطاب الخصوم واستمالة أتباعهم .

---

(1) سورة الغضب : حدته وشدته .

(2) خطط المقريزي ١:٢٠٩ ، مطبعة بولاق ، مصر

وقد خلت الوصيتان من التوجيهات التربوية الخالصة ؛ نظراً لاهتمامها بالتوجيهات السياسية الخاصة بأصول القيادة وأصول الحكم ؛ لأنها موجهة إلى "الوالي " بصفته الرسمية ، لا إلى الابن بصفته الخاصة ،إذ ركزت كل منهما على: العناية بالعمال والأتباع، ورعاية حقوقهم لضمان ولائهم وطاعتهم ، وركزت على نزاهة " الوالي " وبعده عن كل ما يشين كالكذب والرشوة ، ووجهت الوالي إلى أهمية الرفق واللين في معاملة الرعية ، وأهمية الاستشارة قبل اتخاذ القرار؛ لأن ذلك من مظاهر الحلم والأناة وإصابة الرأي .

ويلاحظ - أيضاً - خلو هاتين الوصيتين من الحث على تقوى الله والتذكير بالآخرة، وغيرها من التوجيهات الدينية التي اتسمت بها الوصايا في عصر صدر الإسلام .

وأما عبد الملك بن مروان (الذي يعد المؤسس الثاني للدولة الأموية بعد معاوية بن أبي سفيان) فقد سار على نهج والده مروان بن الحكم في أسلوب وصاياه لأبنائه من حيث رسم أصول الحكم ومقوماته حين أحس بقرب وفاته ؛ إذ خاطبهم قائلاً : [1]

" يا بني ، أوصيكم بتقوى الله ، فإنها أحصن كهف ، وأزين حُلية ، ليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير منكم حق الكبير ، وإياكم والاختلاف والفرقة فإن بها هلك الأولون قبلكم ، وذل ذوو العدد والكثرة ، وانظروا مسلمة [2] فاصدروا عن رأيه فإنه جُنّتكم الذي به تستجنون ، ونائبكم الذي عنه تفترون، أكرموا

---

[1] المعمرون والوصايا ، ص ١٦٠-١٦١، مروج الذهب ، للمسعودي ٣: ١٦٠-١٦١.

[2] مسلمة : هو مسلمة بن عبد الملك .

الحجاج[1] فإنه وَطَّأ لكم المنابر [2] وكونوا عند القتال أحرارا، وعند المعروف منارا ، وكونوا بني أم بررة ، احلولوا في مرارة ، ولينوا في شدة.

ثم رفع رأسه إلى الوليد [3] فقال :

يا وليد ، لا أعرفنك إذا وضعتني في حفرتي تمسح عينيك وتعصرها فعل الأمة ، ولكن إذا وضعتني في حفرتي فشمر واتزر [4] ، والبس جلد النمر [5] ، ثم اصعد المنبر ، فادع لنا إلى البيعة ، فمن قال كذا فقل كذا [6] ".

فهذه الوصية تلتقي مع سابقاتها في هذا العصر في تأسيس أصول الحكم وبنائه على أساس الرفق بالرعية ، وعلى أساس الوسطية التي التزمها الأمويون منذ عهد معاوية - رضي الله عنه - ، إذ أوصى عبد الملك بن مروان أبناءه في مفتتح هذه الوصية بتقوى الله وطاعته ؛ لأن في ذلك ما يحقق صلاح الأمور ويؤكد السداد والتوفيق ،ثم وجه أنظارهم إلى أهمية التآلف والتآخي والاتحاد محذراً لهم من الأثرة والتحاسد والتنافس فيما بينهم .

---

[1] الحجاج : هو الحجاج بن يوسف الذي كان له دور بارز في توطيد حكم عبد الملك بن مروان في الحجاز والعراق .

[2] وطأ لكم المنابر : كناية عن توطيد أركان الحكم ونشر الأمن والاستقرار.

[3] الوليد: هو الوليد بن عبد الملك ، ولي الخلافة بعد أبيه ، وهو من أفضل خلفاء بني أمية ، قام بعمارة المسجد الأقصى ، ومسجد المدينة المنورة ومسجد دمشق .

[4] شمر واتزر : كناية عن التهيؤ لتحمل المسئولية .

[5] البس جلد النمر : كناية عن إظهار الجد والصرامة ، والتجلد.

[6] من قال كذا فقل كذا : أي من أعرض عن البيعة وأشاح بوجهه عنك، فاضرب عنقه . وقد وردت الوصية في جمهرة خطب العرب باختلاف بعض الألفاظ ٢: ١٩٨.

وبعد ذلك وجه أبناءه إلى الاهتمام بأهم رجال عبد الملك وأبرزهم أثراً في نشر الأمن والاستقرار في الدولة ألا وهو الحجاج بن يوسف الثقفي فدعاهم إلى إكرامه لما له من أياد بيضاء عليهم وعلى آبائهم.

ثم خَصَّ عبد الملك ابنه وولي عهده " الوليد " بوصية تتلاءم مع حجم المسئولية التي ستلقى على عاتقه بعد وفاة والده ، إذ حثه على أن يشمر عن ساعد الجد ، وأن يُظهر الشجاعة والبطولة والقدرة على تحمل المسئولية من خلال " بيانه السياسي " الذي عليه أن يلقيه حال تسلم السلطة ، وأن يضرب بيد من حديد كل من يتوانى عن بيعته وإبداء الولاية والطاعة له .

وأوصى عبد الملك بن مروان ابنه الوليد ورسم له سياسة " التوازن " التي ينبغي أن يحرص عليها في تعامله مع الرعية فقال : [1]

" يا بني ، اعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو تملكه إلا حرفان : حزم وتوان ".

وتلتقي هذه " المفاهيم" السياسية التي تضمنتها هذه " الوصية " مع ما أجاب به عبد الملك بن مروان ابنه الوليد عندما سأله :

" يا أبت ما السياسة ؟ قال :" هيبة الخاصة مع صدق مودتها، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع " [2]

وتلتقي مع ما قاله الحكماء في السياسة حين قالوا : [3]

" أَسْوَسُ الناس لرعيته من قاد أبدانها بقلوبها ، وقلوبها

---

[1] العقد الفريد ١: ٤٢.

[2] العقد الفريد ١: ٢٤٥. والصنائع : جمع صنيع أو صنيعة ، ويقصد : الرجال الذين يتخذهم السلطان لنفسه ، والمعنى : أن يتغاضى السلطان عن زلات صنائعه وأعوانه من الرجال .

[3] نفسه ١: ٢٦.

وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرهبة " .

ونظراً لتميز شخصية عبد الملك بن مروان بين خلفاء بني أمية من حيث ذكاؤه وفطنته وأدبه وفضله،إذ قال فيه الشعبي :" ما جالست أحداً إلا وجدت لي عليه الفضل إلا عبد الملك بن مروان ، فإنه ما ذاكرته حديثاً إلا وزادني فيه ، ولا شعراً إلا وزادني فيه "، وقال نافع عنه :"لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميرا ولا أفقه ولا أنسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان " [(١)] فقد اهتم بتوجيه وصاياه التربوية لأهله وأبنائه ، و لم يقتصر على الوصايا السياسية ، ومن ذلك قوله لأهله وبنيه : [(٢)]

" يا بني ، أمية ، ابذلوا نداكم ، وكفوا أذاكم ، واعفوا إن قدرتم ، ولا تبخلوا إذا سئلتم ، فإن خير المال ما أفاد حمداً أو نفى ذماً ، ولا يقولن أحدكم : ابدأ بمن تعول؛ فإنما الناس عيال الله ، وقد تكفل الله بأرزاقهم ، فمن وسَّعَ أخلف الله عليه ، ومن ضَيَّق ضَيَّق الله عليه".

إذ حث أهله وبنيه في هذه " الوصية " على البذل والكرم والعطاء ، وألا يقتصر عطاؤهم على أهلهم وذويهم ،لأنهم الأولى والأقرب ، ولكن حثهم على أن يعم عطاؤهم الناس جميعاً، وما ذلك إلا شعوراً منه بالواجب الاجتماعي والسياسي لبنيه وأهله ليرتفع ذكرهم ويقل ذمهم من منطلق المسئولية التي تحملها بنو أمية وساروا على نهجها في سلوكهم مع أفراد رعاياهم وأتباعهم .

ومن ذلك - أيضاً - وصيته لأبنائه التي حثهم فيها على اصطناع

[(١)] تاريخ الرسل والملوك / للطبري ، ص ١١٤ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر . والفخري في الآداب السلطانية ، لابن الطقطقي ص ١٢٤، دار صادر ، بيروت .

[(٢)] العقد الفريد ٣:٩٩، الفاضل في صفة الأدب الكامل ، للوشاء ، ص ١٥٣، جمهرة خطب العرب ٢: ٥٠٣.

المعروف وتمثيل آبائهم وأجدادهم خير تمثيل من خلال قوله : [(١)]

" يا بني عبد الملك ، أحسابكم أحسابكم ، صونوها ببذل أموالكم فما يبالي رجل منكم ما قيل فيه من الهجو بعد قول الأعشى:[(٢)]

تبيتون في المشتى ملأى بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

ولم يقتصر عبد الملك بن مروان على التمثيل والاستشهاد بشعر الشعراء ، بل كان بارعاً في قول الشعر - وإن كان مقلا - ومن شعره الذي ضمنه بعض وصاياه وتوجيهاته لأبنائه هذه الأبيات التي نظمها قبل موته ودعا بنيه إلى حفظها : [(٣)]

انفوا الضغائن عنكم وعليكم عند المغيب وفي حضور المشهد
بصلاح ذات البين طول بقائكم إن مُدَّ في عمري وإن لم يُمدد
ولمثل ريب الدهر ألف بينكم بتراحم وتواصل وتودد
حتى تلين قلوبكم وجلودكم لِمُسَوَّدٍ منكم وغير مُسَوَّدِ
إن القداح إذا جمعن فرامها بالكسر ذو حَنَقٍ وبطش ٍ أيِّدِ
عَزَّتْ فلم تُكسر،وإن هي بُدِّدَتْ فالوهن والتكسير للمتبدد

---

(١) مروج الذهب ، للمسعودي ٣: ٢٠٣.

(٢) غرثى : جمعها غراث أي جوعى ، وجائعات - خمائص : جميع خميصة وخمصانة : خالية البطن ضامرة ، وفي ديوان الأعشى ص ١٤٩ : يبيتون في المشتى ملاء بطونهم وجاراتهم غرثى يبتن خمائصا

(٣) المعمرون والوصايا ص ١٦١، وبعض الأبيات في محاضرات الأدباء للراغب الصفهاني ١: ٣٥٧.

وإن قَصَّرت هذه الوصية من الناحية الفنية إلا أنها اشتملت على معاني جميلة ووصايا قيمة عرضها عبد الملك بيسر وسهولة وبأسلوب واضح ليسهل حفظها وتمليها ، إذ حذر أبناءه من الحقد والضغينة والحسد ، وحثهم على التآلف والمودة وإصلاح ذات البين ، واستعار المعنى الذي أوصى به بعض حكماء العرب أبناءه حين قال :[1]

كونوا جميعاً، يا بني إذا اعترى خَطْبٌ ولا تتفرقوا آحادا

ونظراً لما تميز به عبد الملك بن مروان من شغف بالعلم والأدب ، كما ذكر الشعبي ، فقد حرص على أن يوصي أبناءه بتعلم العلم واكتسابه لما للعلم من فوائد ونتائج تظهر في الدنيا والآخرة ، فقد أوصى أبناءه بقوله : [2]

" أي بني ، تأدبوا فإن كنتم ملوكا بررتم ، وإن كنتم أوساطا فقتم استفيدو من الأدب ولو كلمة واحدة " .

وأوصاهم – كذلك – حاثّا على طلب الأدب بقوله : [3]

" عليكم بطلب الأدب ، فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالاً، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالاً ".

وقد روت كتب الأدب عدداً من وصايا عتبة بن أبي سفيان لأبنائه ، ومن ذلك ما رواه ابنه عمرو إذ قال : [4]

---

[1] أقوال مأثورة وكلمات جميلة ، د. محمد لطفي الصباغ ص ١٤٥، المكتب الإسلامي ط ٢ بيروت ، دمشق ، عمان ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

[2] غرر الخصائص الواضحة ، للوطواط ، ص ١٤٣ ،أدب الدنيا والدين ، للماوردي ، ص ٢٥، البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٥٥م . مع اختلاف ببعض الألفاظ .

[3] العقد الفريد، لابن عبد ربه ، ٢: ٢٥٩.

[4] العقد الفريد ، ٣: ٩٩.

" لما بلغت خمس عشرة سنة قال لي أبي :

يا بني ، قد تقطعت عنك شرائع الصبا فالزم الحياء تكن من أهله ، ولا تزايله [1] فتبين منه، ولا يغرنّك من اغتر بالله فيك فمدحك بما تعلم خلافه من نفسك ، فإنه مَنْ قال فيك من الخير ما لم يعلم إذا رضي ، قال فيك من الشر مثله إذا سخط، فاستأنس بالوحدة من جلساء السوء ، تسلم من غبّ عواقبه ".

فإن هذه الوصية وإن كانت قليلة الكلمات ، موجزة الفقرات ،إلا أن عتبة استطاع أن يصل بها إلى أعلى قدر من التأثير على ابنه ، وأصبحت كلماتها راسخة في ذهنه ، وفي وجدانه ، إذ إنه تذكرها بعد مرور فترة على وفاة أبيه ، وعلى سماع " الوصية " منه وهو الذي رواها عنه . [2]

وفي هذه الوصية يولي عتبه اهتماماً واضحاً بأهم مراحل العمر وأنسبها بالتربية والتوجيه ؛ لأنها المرحلة المخصبة المجدية في تربية وتعليم الأبناء ، كما قال الشاعر :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت   ولا يلين إذا قومته الخشب

حتى قالت العرب : فما أصعب فطام الكبير ؛ وما أعسر رياضة الهرم[3] وقال شاعرهم :

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً   فمطلبها كهلاً عليه عسير

لذا فقد أوصى عتبة ابنه في هذه المرحلة من مراحل حياته بكبح الأهواء

---

(1) لا تزايله : لا تفارقه ولا تتخلى عنه .

(2) انظر: الوصايا في الأدب العربي القديم ، د.سهام الفريح ، ص ٨٤ .

(3) الأطفال بهجة الحياة وأمل المستقبل ؛ لهشام عبد الرزاق الحمصي ،ص ٣٥ ،دار الكلم الطيب ، بيروت /دمشق ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

والرغبات ، والتزام الحياء حتى يصير الحياء لديه خلقاً وعادة ؛ لأن " الحياء من الإيمان " كما قال رسول الله ﷺ .

ونظراً لما يتركه " المديح " في النفوس من الاغترار والثقة الزائدة في النفس مما يؤدي إلى الغفلة -أحياناً - فقد أوصاه ألا يغتر بالمديح الذي يصفه بما ليس فيه ، وحثه على الابتعاد عن قرناء السوء ؛ امتثالاً لرأي رسول الله ﷺ ، في الأصحاب عندما قال :[1]

" إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير : فحامل المسك إما أن يُحْذِيَك[2] ، وإما إن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما إن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة "

وقد أكد عمرو بن عتبة أن أباه كان دائم الحرص على توجيه أبنائه وإيصائهم إذ قال :[3]

" كان أبونا لا يرفع المواعظ عن أسماعنا فأراد مرة سفراً فقال:

يا بني ، تألفوا النعم بحسن مجاورتها ، والتمسوا المزيد منها بالشكر عليها، واعلموا أن النفوس أقبلُ شيء لما أعطيت ، وأعطى شيء لما سُئلت ،فاحملوها على مطية لا تُبطئ إذا رُكبت ، ولا تُسبق وإن تُقُدِّمت ، عليها نجا مَن هرب من النار ، وأدرك مَنْ سابَق إلى الجنة، فقال الأصاغر :يا أبانا ، ما هذه المطية ؟ قال : التوبة ".

---

(1) الحديث متفق عليه .

(2) يحذيك : يعطيك ، ويمنحك، ويهديك .

(3) عيون الأخبار ،لابن قتيبة الدينوري ،١:٧١٩ ،تحقيق محمد الإسكندراني ، دار الكتاب العربي ، ط ٢ بيروت ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

وهذه الوصية كسابقتها ركز فيها منشئها على الجوانب التربوية التي يرغب في لفت أنظار أبنائه إليها ، وجاءت بألفاظ موجزة ، وعبارات قصيرة ليسهل حفظها وتفهمها واستيعابها ، وجسدت معانيها وأفكارها تجربة رجل خبير الحياة وأدرك أسرارها ، إذ حث أبناءه على مؤالفة النعم ، والتعود على شكرها والشعور بقيمتها ؛ لقوله تعالى :﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[1]، وترجمت أفكارها -أيضاً - إدراك دور " التوبة " في حياة الإنسان ، وأنها المهرب من النار والسبيل إلى الجنة ، وما أدرك ذلك إلا لأن"التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستّار العيوب وعلاّم الغيوب ، مبدأ السالكين ، ورأس مال الفائزين، وأول أقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين "[2] ، ولهذا قال لقمان لابنه :[3]

" **يا بني ، لا تؤخر التوبة ؛ فإن الموت يأتي بغتة** " ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين :[4]

أحدهما : أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو .

الآخر : أن يعاجله المرض أو الموت فلا مهلة للاشتغال بالمحو .

ولذلك ورد في الخبر " **إن أكثر صياح أهل النار من التسويف** ".

ولأهمية التوبة فقد قال ﷺ :

" **إن الله – عز وجل – يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى**

---

[1] سورة إبراهيم ، آية رقم ٧ .

[2] إحياء علوم الدين ، لأبي حامد الغزالي ،٤:١٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

[3] نفسه ٤:١٣

[4] نفسه ٤:١٣ .

النهار ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها "[١] وقال ﷺ : " لَلّهُ أفرح بتوبة أحدكم من فرحة أحدكم براحلته ..."[٢]

وأما عمر بن عبد العزيز (خامس الخلفاء الراشدين ، وأحد خلفاء بني أمية ، الذي عرف بالتقى والورع والصلاح) فقد كتب إلى ابنه عبد الملك عندما كان في المدينة بهذه الوصية :[٣]

" أما بعد، فإن أحق من تعاهدت بالوصية والنصيحة بعد نفسي أنت ، وإن أحق من وعا ذلك وحفظه أنت، إن الله – له الحمد– قد أحسن إلينا إحساناً كثيراً بالغافي لطيف أمرنا وعامته ، وعلى الله إتمام ما غير من النعمة ، وإياه نسأل العون على شكرها ، فاذكر فضل الله عليك وعلى أبيك ، ثم أعن أباك على ما قوي عليه ، وعلى ما ظننت أن عنده فيه عجزًا عن العمل فيما أنعم به عليه وعليك في ذلك فراغ نفسك وشبابك وصحتك ، وإن استطعت أن تكثر لسانك بذكر الله تحميداً وتسبيحاً وتهليلاً فافعل ، فإن أحسن ما وصلت به حديثاً حسناً حمد الله وشكره ، وإن أحسن ما قطعت به حديثاً سيئاً حمد الله وذكره ، فلا تفتتن بما أنعم الله عليك فيما عسيت أن تقرظ به أباك بما ليس فيه ، وإن أباك كان بين ظهري إخوته ، يفضل عليه الكبير ، ويدني دونه الصغير ، وإن كان الله –وله الحمد – رزقني من والدي حُبًا جميلاً كنت به راضياً ، أرى ببره أفضل ولده عليه حقًا حتى ولدت وولدت طائفة من أخوتك ولا أخرج بكم من المنزل الذي أنا فيه ".

وقد انعكست سيرة عمر لابن عبد العزيز في هذه " الوصية " إذ بدا اهتمامه بالجانب الديني ، وأوصى ابنه بذكر فضل الله وإحسانه ، وحثه على

---

[١] الحديث رواه مسلم في باب التوبة ، ورواه أحمد بن حنبل (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ١:١٧٩).

[٢] الحديث متفق عليه .

[٣] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ،لابن الجوزي ،ص ٢٩٨-٢٩٩، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.جمهرة رسائل العرب ٢:٣١٣-٣١٤. رسائل الآباء للأولاد ص ٣٢ .

أن يبقى لسانه رطباً بذكر الله تحميداً وتسبيحاً وتهليلا ، وأوصاه بألا يفتتن بنعم الله وإحسانه عليه وألا يستعملها إلا بما أمر الله به ؛ رغبة فيما عند الله من الثواب والرضوان والمغفرة .

وقد ذكّر عمر بن عبد العزيز ولده في هذه الوصية بسنته مع أهله وذويه ؛ إذ كان يفضل الكبير ويكرمه ، ويدني الصغير ويحسن إليه ، وأنه يريد لأبنائه أن يسلكوا مسلكه ويتبعوا سنته ؛ لذا فإنه لم يوصِ لأبنائه بشيء من ماله، وإنما رد ماله وما ورثه من أبيه إلى بيت المال ، وعندما سئل عن ذلك قال :[1]

" يا بني ، أما قولك إني أقفرت أفواه ولدي من هذا المال ؛ فوالله إني ما منعتهم حقًا هو لهم ، ولم أعطهم ما ليس لهم ، وأما قولك لو أوصيت بهم إليّ وإلى نظرائي من أهل بيتك ؛ فإن وصيي ووليي الله الذي أنزل الكتاب وهو يتولى الصالحين :

بنيَّ أحد رجلين ، إما رجل يتقي فسيجعل الله له مخرجاً ، وإما رجل مكب على المعاصي فإني لم أكن أقويه على معصية الله ".

ثم بعث إليهم - وهم بضعة عشر ذكراً - ونظر إليهم فذرفت عيناه ، ثم قال :

"بنفسي الفتية الذين تركتهم عيلة لا شيء لهم ، فإني قد تركتهم بخير .

أي بني ، إنكم لن تلقوا أحداً من العرب ولا من المعاهدين إلا أن لكم عليهم حقًا.

أي بني ، إن أباكم ميل بين أمرين : بين أن تستغنوا ويدخل

---

[1] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ،ص ٣٢١.

أبوكم النار ، أو تفتقروا ويدخل الجنة ، قوموا عصمكم الله ".

وهذا مما يدل على تقوى الرجل ومخافة الله ، وفقهه لمعنى قوله تعالى:[1] **﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديدا ﴾** .

وأما المهلب بن أبي صفرة (وهو من أشهر قواد بني أمية وأحد ولاتهم على خراسان ، وصاحب المكانة والحظوة لديهم) فقد أوصى أبناءه عندما حضرته الوفاة بقوله:[2]

" أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم ، فإن تقوى الله تعقب الجنة ، وإن صلة الرحم تنسئ الأجل، وتثري المال ، وتجمع الشمل ، وتكثر العدد ، وتعمر الديار ، وتعز الجانب .

وأنهاكم عن معصية الله ، وقطيعة الرحم ، فإن معصية الله تعقب النار ، وإن قطيعة الرحم تورث القلة والذلة ، وتفرق الجمع ، وتدع الدار بلاقع[3] ، وتطمع العدو، وتبدي العورة .

يا بني ، قومكم ، قومكم إنه ليس لكم فضل عليهم ، بل هم أفضل منكم ، إذا فضلوكم وسودوكم ووطئوا أعقابكم ، وبلغوا حاجاتكم فيما أردتم ، فلهم بذلك حق عليكم وبلاء عندكم ، لا تؤدون شكره ، ولا تقومون بحقه ، فإذا طلبوه فاطلبوه ، وإذا سألوه فأعطوهم ، وإن لم يسألوا فابتدئوهم ، وإن شتموا فاحتملوا لهم ، وإن غشوا أبوابكم فلتُفتح لهم ، ولا تُغلق دونهم .

---

(1) سورة النساء آية ٩ .

(2) المعمرون والوصايا ص ١٤١-١٤٣ ، لباب الألباب ، لأسامة بن منقذ ص ٢٩-٣١،جمهرة خطب العرب ٢:٢٨٥-١٨٦ .

(3) تدع الدار بلاقع : كناية عن الخراب والدمار . والبلاقع : جمع بلقع وبلقعة ، وهي الأرض التي لا حياة فيها .

يا بني ، إني أحب للرجل منكم أن يكون لفعله الفضل على لسانه، وأكره أن يكون للسانه الفضل على فعله .

يا بني ، اتقوا الجواب وزلة اللسان ، فإني رأيت الرجل يعثر قدمه فيقوم من زلته فينتعش منها سويًا ، ويزل لسانه فيوبقه وتكون فيه هلكته .

يا بني ، إذا غدا عليكم رجل وراح فكفى بذلك مسألة وتذكرة بنفسه .

يا بني ، ثيابكم على غيركم أجمل منها عليكم ، ودوابكم تحت غيركم أجمل منها تحتكم .

يا بني ، أحبوا المعروف وافعلوه ، واكرهوا المنكر واجتنبوه ، وآثروا الجود على البخل ، واصطنعوا العرب وأكرموهم ؛ فإن العربي تعده العدة فيموت دونك ويشكر لك ، فكيف بالصنيعة إذا وصلت إليه في احتمالها وشكرها والوفاء منها لصاحبها !!

يا بني ، سَوِّدوا أكابركم ، وأعزوا ذوي أسنانكم [1]، وارحموا صغيركم وقربوه وألطفوه ، وأجيروا يتيمكم ، وجودوا عليه بما قدرتم ، وخذوا على أيدي سفهائكم ، وتعهدوا جيرانكم وفقراءكم بما قدرتم عليه ، واصبروا للحقوق ، واحذروا عار عدوكم عليكم في الحرب بالأناة والتؤدة في اللقاء ، وعليكم بالتماس الخديعة في الحرب لعدوكم ، وإياكم والنزق والعجلة ، فإن المكيدة والأناة والخديعة أنفع من الشجاعة .

واعلموا أن القتال والمكيدة مع الصبر ، فإذا كان القضاء عند

[1] أعزوا ذوي أسنانكم : أي أعزوا أترابكم ومن هم في مثل سنكم .

اللقاء ؛ فإن ظفر امرؤ وأخذ بالحزم قال العاقل : قد أتى الأمر من وجهه ، وإن لم يظفر قال : ماضَيَّع ولا فَرَّط ولكن القضاء غالب ، فالزموا الحزم على أي الحالين (١) وقع الأمر .

والزموا الطاعة والجماعة ، وإياكم والخلاف وفراق الجماعة ، وتواطئوا ، وتوازروا (٢) ، وتواصلوا ، وتعاطفوا ؛ فإن ذلك يثبت المودة ، وتحابوا ، وخذوا فيما أوصيكم بالجد ، والقيام به تظفروا بدنياكم كما كنتم فيها وآخرتكم إذا صرتم إليها ، ولا قوة إلا بالله ، وليكن أول ما تبدأون به أنفسكم إذا أصبحتم : تعلموا القرآن الكريم والسنن والفرائض ، تأدبوا بأدب الصالحين مَنْ قبلكم مِنْ سلفكم الصالح ، ولا تُقاعدوا أهل الدعارة والريبة ولا تخالطوهم ، ولا يطمعن في ذلك منكم ، وإياكم والخفة في مجالسكم ، وكثرة الكلام ؛ فإنه لا يسلم منه صاحبه ، وأدوا حق الله عليكم؛ فإني قد أبلغت إليكم الوصية ، واتخذت الله عليكم الحجة ".

وما من شك إن هذه " الوصية " قد شملت جوانب تربوية رغب منشئها في إيصاء أبنائه بها بدءاً من تقوى الله ، وصلة الرحم ، ومروراً بالاهتمام بما ينطق به اللسان ؛لأن الكلمة مسئولية لقوله تعالى : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**﴾(٣)، ولأن العرب تقول :" **مقتل الرجل بين فكيه** "(٤) ، ثم تركز

---

(١) على أي الحالين وقع الأمر: أي في حال النصر أو الهزيمة .

(٢) توازروا : ليكن كل منكم وزيراً للآخر ، أي ناصحاً ومعيناً.

(٣) سورة ق , الآية رقم ١٨ .

(٤) مثل عربي ، وقد ورد ضمن وصية أكثم بن صيفي لبنيه .

الوصية على الجود والكرم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأصول التعامل مع الكبير والصغير .

ولما كان منشئ الوصية (المهلب بن أبي صفرة) من أشهر قواد بني أمية كان لا بد له من أن يعرج في وصيته على بعض التوجيهات السياسية والحربية إلى جانب توجيهاته ونصائحه الاجتماعية والتربوية إذ حثهم على الصبر والحزم ، وأكد على أهمية الطاعة والجماعة ، وحذرهم من الفرقة والاختلاف .

ولما كان العلم بعامة وتعلم القرآن بخاصة مما ينفع الإنسان في حياته الدنيا والآخرة كما قال رسول الله ﷺ :" **من أراد الدنيا فعليه بالقرآن ، ومن أراد الآخرة فعليه بالقرآن ، ومن أرادهما معاً فعليه بالقرآن** " فقد حث المهلب أبناءه على تعلم القرآن والسنن والفرائض ، وأن يتأدبوا بأدب الصالحين من السلف .

ولم تقف أهمية هذه " الوصية " عند هذه الجوانب التربوية والسياسية والحربية ، ولكن ما يلفت النظر فيها هذه الدقة في توازن العبارات واعتدال الألفاظ مما يجسد القدرة الأدبية والفنية لمبدعها .

وإن هذه القدرة الفنية قد تجلت في وصية أخرى حملت معاني الوصية السابقة وبعض ألفاظها كان قد أوصى بها المهلب بن أبي صفرة بنيه إذ خاطبهم قائلاً:[1]

" يا بني ، تباذلوا تحابوا ، فإن بني الأم يختلفون ، فكيف بنو العلات [2] ؟إن البر ينسأ الأجل ويزيد العدد ، وإن القطيعة تورث القلة،وتعقب النار بعد الذلة ، واتقوا زلة اللسان؛ فإن الرجل تزل رجله

---

[1] البيان والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق علي ملحم ١٣١ مكتبة دار الهلال ط ٢ بيروت ١٤١٢هـ /١٩٩٢م .

[2] بنو العلات : أبناء الرجل الواحد من نساء مختلفات .

فتنتعش ، ويزل لسانه فيهلك ، وعليكم في الحرب بالمكيدة ؛ فإنها أبلغ من النجدة . فإن القتال إذا وقع القضاء ، فإن ظفر فقد سعد ، وإن ظُفر به لم يقولوا أفرط ".

ونقل أبو منصور الثعالبي عن الزمخشري وصية موجزة في آداب السلطان أوصى بها المهلب ولده يزيد قائلاً :[1]

" يا بني ، استعقل الحاجب ، واستظرف الكاتب ؛ فإن حاجب الرجل وجهه ، وكاتبه لسانه ".

وأورد ابن عبد ربه في عقده وصية موجزة للمهلب أوصى بها بنيه بالرضا والقناعة والتسامح مع الأعوان إذ قال :[2]

" يا بني ، إذا غدا عليكم الرجل وراح مسلماً فكفى بذلك تقاضياً " .

وفي هذا المعنى قال الشاعر :[3]

أروح بتسليمي عليك وأغتدي وحسبك بالتسليم مني تقاضياً .

أي: يكفيك مني وفاء أنني أسلم عليك في غدوتي ورواحي .

ومن وصايا المهلب - أيضا - لبنيه وصية حثهم فيها على استغلال الوقت والإفادة منه بقوله :[4]

" إياكم أن تجلسوا في الأسواق إلا عند زرّاد أو ورّاق " [5]

---

[1] آداب الملوك ، للثعالبي ، ص ١٣٦، وربيع الأبرار ، للزمخشري ٤:٢٤٦ .

[2] العقد الفريد ١:٢٠٩ .

[3] نفسه .

[4] نفسه ٢:٧٩ .

[5] الزراد : صانع الزرد للحرب ، والوراق : بائع الكتب . (وأراد : الوراق للعلم ، والزراد : للحرب).

وأما زياد بن أبيه (أحد دهاة العرب ، وأحد رجال الدولة الأموية الذين كانوا وراء استتاب الأمن والاستقرار للأمويين) فقد أوصى ابنه بوصية موجزة العبارة ، قصيرة الجمل ، عكست بعض الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها تابع السلطان ، وترجمت فطنة زياد وذكاءه إذ قال : [1]

" يا بني ، إذا دخلت على أمير المؤمنين فادع له ثم اصفح صفحاً جميلاً ، ولا يرين منك تهالكاً عليه ، ولا انقباضاً عنه " .

ورغم إيجاز هذه " الوصية " وقصر جملها إلا أنها تغوص في باطن النفس البشرية لتصف ما يرتضيه السلطان من أتباعه من إظهار الطاعة والولاء ممثلاً في الدعاء له والثناء على أمره ، والاعتدال والتوسط في مخالطته ومجالسته ؛ لئلا يمل بقاءه إذا تهالك عليه ولا يَفْترض جفوته إذا دام ابتعاده عنه .

ومن الملاحظ أن زياداً قد ضمن كلامه قول الله تعالى : ﴿ وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل ﴾[2] . مع بعض التغيير في ألفاظ الآية في قوله : " ثم اصفح صفحاً جميلاً " تحقيقاً لجناس الاشتقاق بين " اصفح " وصفحاً " إلى جانب التقابل غير المتكلف بين قوله " تهالكا عليه " و " انقباضاً عنه " .

ولا يعني قصر هذه " الوصية " وإيجازها عجزاً من زياد عن القول أو ضنًّا على أبنائه بتوجيهاته ، فقد عُرف زياد بالقدرة على الإطالة دون الخشية من الخطأ أو الزلل ؛ إذ قال أحدهم عن زياد :[3]

" ما رأيت أحداً يتكلم فيُحسن إلا أحببت أن يصمت خوفاً من أن

---

[1] عيون الأخبار ، لابن قتيبة ١:٦٢ ، آداب الملوك ، لأبي منصور الثعالبي ، ٢٣٤ .

[2] سورة الحجر ,آية ٨٥ .

[3] عيون الأخبار ١:٥٦٨ .

ينسى إلا زياداً فإنه كلما زاد ، زاد حسناً " .

ومما يدل على دقة أفكاره وصحة آرائه أن عمرو بن عبيد – رحمه الله– قال : كتب عبد الملك بن مروان وصية زياد بيده وأمر الناس بحفظها وتدبر معانيها ، وهي :[1]

" إن الله– عز وجل – جعل لعباده عقولاً عاقبهم بها على معصيته ، وأثابهم بها على طاعته ، فالناس بين محسن بنعمة الله عليه ، ومسيء بخذلان الله إياه ، و لله النعمة على المحسن ، والحجة على المسيء، فما أولى مَنْ تمت عليه النعمة في نفسه ، ورأى العبرة في غيره ، بأن يضع الدنيا بحيث وضعها الله ؛ فيعطي ما عليه منها ولا يتكثر مما ليس له فيها ، فإن الدنيا بحيث وضعها الله ؛ فيعطي ما عليه منها ، ولا يتكثر مما ليس له فيها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله– عز وجل – ؛ فأحذركم الله الذي حذركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزة ، قبل أن تصيروا إلى الدار التي صاروا إليها ، فلا تقدروا فيها على توبة ، وليست لكم منها أوبة ، وأنا أستخلف الله عليكم ، وأستخلفه منكم " .

وإذا كانت وصيته الأولى قد ركزت على بعض الآداب السلطانية ؛ فقد ركزت وصيته الثانية على أهمية التدبر في نعم الله على الإنسان ، ومسئولية الإنسان تجاه تلك النعم ، والتذكير بأن " العاقل من اتعظ بغيره " و" أن الحياة الدنيا زائلة " و" أن الموت حقٌ " و" أن الحياة الدنيا عمل ولا حساب " "والآخرة حساب ولا عمل " ثم حذرهم الله الذي حذرهم نفسه وحثهم، على

---

[1] البيان والتبيين للجاحظ ١:٣٠٧ , جمرة خطب العرب ٢:٢٧٧ .

التوبة قبل فوات الأوان .

وأما عروة بن الزبير فقد كان يحث أبناءه على طلب العلم ، وكان يحثهم على أن يتخذوه قدوتهم ، إذ قال يوصيهم :[1]

" يا بني ، أنا أزهد الناس في عالم أهله ، فهلموا إليَّ فتعلموا مني ، فإنكم توشكون أن تكونوا كبار قوم ، إني كنت صغيراً لا ينظر إلي ، فلما أدركت من السن ما أدركت جعل الناس يسألونني ، وما من شيء أشد على امرئ من أن يسأل عن شيء من أمر دينه فيجهله ..."

فقد أغراهم بطلب العلم لأنهم يوشكون أن يكونوا كبار القوم وعليتهم ، ولا غنى لهم حينئذ عن العلم ، ثم ذكَّرهم بأنه ليس أشد على المرء الحر من أن يُسأل عن شيء من أمر دينه فيجهله ؛ ليدفعهم إلى الحماس في طلب العلم وإتقانه .

لذا فليس غريباً أن يدرك مصعب بن الزبير قيمة العلم وأهميته ، ويحث ابنه على طلبه كما فعل أخوه عروة ، إذ أوصى مصعب ابنه قائلاً :[2]

" يا بني ، تعلم العلم ، فإن يكن لك مال كان لك جمالا ، وإن لم يكن لك مال كان لك مالا ".

فها هو مصعب بن الزبير يبين لولده منزلة العلم في سلم متطلبات الحياة الإنسانية ؛ فهو الثروة الحقيقة التي قد تغني صاحبها عما سواها من الثروات ، فبالعلم يُجنى المال ، ويتحقق الفضل والرفعة ، وكم من عالم رفع منزلة قومه وأعلى مكانتهم !

ومن رجال العصر الأموي الذين حثوا أبناءهم على طلب العلم

---

[1] البيان والتبيين ٢:٥٥ .

[2] أدب الدنيا والدين ، للماوردي ، ص ٤١.

والاهتمام بتحصيله كما فعل أبناء الزبير الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - إذ وجه وصيته إلى أبنائه وأبناء أخيه قائلاً : [1]

" يا بَني ، وبَني أخي ، إنكم صغار قوم ، وتوشكوا أن تكونوا كبار قوم آخرين ، فتعلموا العلم ، فمن لم يستطع منكم أن يرويه أو يحفظه فليكتبه ويجعله في بيته ".

فقد أغرى الحسن - رضي الله عنه - أبناءه وأبناء أخيه بتعلم العلم لأهميته لهم في مستقبل حياتهم ، وحدد لهم المنهج الأمثل في طلب العلم ، والتدرج في كسبه بدءاً من كتابته وتسجيله ، وانتهاء إلى فقهه وروايته وتوظيفه في حياتهم .

وأما علي بن الحسين - رضي الله عنهما - فقد أوصى ولده وصية تنم عن بعد فلسفي يفسر خصوصية علاقة الأب بأبنائه التي رسمتها الشريعة الإسلامية في قوله تعالى :﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا** ﴾[2] وقوله - جل شأنه-: ﴿ **لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا** ﴾[3] .

إذ قال :[4]

" يا بني ، إن الله لم يرضك لي فأوصاك بي ، ورضيني لك فحذرني منك [5]، واعلم أن خير الآباء للأبناء من لم تَدعه المودة إلى التفريط فيه،

---

[1] تاريخ اليعقوبي ، لأبي يعقوب اليعقوبي ٢:٢٢٧ دار صادر -بيروت .
[2] سورة الإسراء ، آية رقم ٢٣ .
[3] سورة البقرة آية رقم ٨٣ .
[4] العقد الفريد ٣:٩٨ .
[5] إشارة إلى قوله تعالى :﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوًا لكم فاحذروهم ﴾ (سورة التغابن : آية ١٤) .

وخير الأبنـاء للآبـاء مـن لم يدعـه التقصـير إلى العقـوق لـه ".

إذ أشـار إلى أن عاطفـة البنـوة لا ترقـى في عمقهـا وصدقهـا وإخلاصهـا لعاطفـة الأبـوة ؛ إذ نجـد كثـيرا مـن الأبنـاء قـد يتهـاونون بحـق آبـائهم ، بـل قـد يسـيئون إليهـم ويؤذونهـم ، لـذا فقـد أشـارت الوصيـة إلى مغـزى التوجيـه القرآنـي في الحـث على الإحسـان بـالوالدين و لم يتطـرق إلى الحث على الإحسـان بالأبنـاء .

وأجْمِـل بهـذه الوصيـة إذ رسمـت المعادلـة البشـرية الـتي تدعـو إلى تهذيـب الفطـرة البشـرية وتوجيههـا بهـذه الموازنـة الدقيقـة بـين طـرفي المعادلـة إذ تقـول : واعلـم أن " **خـير الآبـاء للأبنـاء مـن لم تدعـه المـودة إلى التفريـط فيـه ، وخـير الأبنـاء للآبـاء مـن لم يدعـه التقصـير إلى العقـوق لـه** " .

وقـد ذكـر ابـن قتيبـة بعـض ألفـاظ هـذه الوصيـة وذكـر أنهـا لزيـد بـن علـي ابـن الحسـين يوصـي بهـا ابنـه يحيـى إذ قـال :[1] " **إن الله لم يرضـك لي فأوصـاك بـي ، ورضيني لـك فلـم يوصـني بـك** " .

وأمـا سـعد بـن أبـي وقـاص (أحـد المبشـرين بالجنـة ، وأصحـاب الشـورى ، وهـو آخـر العشـرة المبشـرين بالجنـة وفـاة ، إذا تـوفي سـنة ٥٥ هــ) فقـد نحـا منحـى متميزاً في وصيتـه لابنـه عمـر ؛ إذ رسـم ضابطاً حقيقيًّـا للرغبـات البشـرية حـين حثـه على الرضـا وأغـراه بالقناعـة في قولـه[2] :

" يـا بـني ، إذا طلبـت الغنـى فاطلبـه بالقناعـة ، فـإن لم تكـن لـك قناعة فليـس يغنيـك مـال " .

---

[1] عيون الأخبار ٢:٩٥ .وكذلك في محاضرات الأدباء ، للراغب الأصفهاني ١: ٣٢٢.

[2] عيون الأخبار ، لابن قتيبة ٢:١٨٧ .

وليس غريباً أن يركز ابن أبي وقاص – رضي الله عنه – على القناعة ؛ إذ قال أردشير في القناعة والتعلم :[1] " **خير الشيم القناعة ، وإنما العقل بالتَّعَلُّم**".

وقالت العرب : " **القناعة كنز لا يفنى** " .

وهذه الوصية رغم أنها موجزة العبارة وقليلة الألفاظ إلا أنها استطاعت أن تربط بين أطراف المعادلة ربطاً يوضح مدخلات الوصية ومخرجاتها وانعكاسها على الواقع البشري وعلاقة النفس الإنسانية بالمال حين قال :" **فإن لم يكن لك قناعة فليس يغنيك مال** " ، وصدق رسول الله الكريم إذ قال :" **لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى ثالثاً ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب**" إذ رسم، عليه الصلاة والسلام ، صورة جشع النفس البشرية وطمعها في ميلها إلى الكسب والاقتناء ؛ لذا فقد قصد سعد بن أبي وقاص إلى رسم السلوك الاقتصادي في إطار المنظور الإسلامي وتصويره للكون والحياة والإنسان ؛ انطلاقاً من نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة التي ذمت الجشع والطمع والمبالغة في حب التملك .

وفي مجال الاهتمام بالجوانب التربوية للأبناء فقد أوصى عمر بن هبيرة (رأس بني عدي في زمانه ، وكان والي العراق في زمن يزيد بن عبد الملك) بعض بنيه قائلاً :[2]

" **لا تكونن أول مشير ، وإياك والرأي الفطير** [3] **، وتجنب**

---

[1] نفسه ٢:١٨٨ .

[2] البيان والتبيين ، للجاحظ ٢:١٣٠-١٣١، العقد الفريد ١:٥٩ المنهج المسبوك ص ٢١٦ ، جمهرة خطب العرب ، لأحمد زكي صفوت ٢:٣٢٠

[3] الرأي الفطير : الرأي المتسرع ، غير الناضج .

ارتجـال الكـلام ، ولا تشـر علـى المسـتبد ، ولا علـى وغـد[1] ، ولا متلـون،[2] ولا علـى لجـوج [3] ، وخـف الله في موافقـة هـوى المستشـير ؛ فإن التمـاس موافقتـه لـؤم ، وسـوء الاسـتماع منـه خيانـة " وقـال لـه :" مـن كثر كلامه كـثر سـقطه ، ومـن سـاء خلقـه قـل صديقـه".

فلمـا كـان الموصـي أحـد رجـال السـلطان ومـن أهـل المشـورة المقربـين منـه, أراد أن يعـد ولـده لهـذه المهمـة ، إذ حـذره مـن التسـرع في إسـداء المشـورة قبـل أن تطلـب منـه ؛ لأن في ذلـك تقليـلاً مـن شـان المخـاطب وتحقـيراً لرأيـه ، ويحثـه علـى إعمال فكـره للتـأكد مـن نضـج رأيـه لما لـلرأي الفطـير مـن أثـر سـلبي علـى صاحبـه ، إذ قـالت العـرب :" شـر الـرأي الفطـير "[4] ممـا يدعـو المـرء إلى " تجنـب ارتجـال الكلام" قبل إعمـال فكـره فيـه ، وتحديـد مـدى قبولـه والرضـا عنـه ، وحـذر ابـن هـبيرة ولـده مـن أن يشـير علـى مـن لا يسـتحق مشـورته أو لا يقبلهـا كالمسـتبد برأيـه ، والأحمـق ، والـذي لا يثبـت علـى رأي ، والعنيـد ؛ لأنـه إن عمـل ذلـك فإنـه يضـع مشورته ويقـدم رأيـه في غـير موضعهـا ولغـير أهلهمـا .

وأجمِـل بـابن هبـيرة وهـو يختـم نصيحتـه بهـذه الحكمـة الـتي يعـزز فيهـا اهتمامـه ببنـاء شـخصية ولـده وإعـداده لمستقبل حياتـه إذ قـال :" مـن كـثر كلامـه كـثر سـقطه ، ومـن سـاء خلقـه قَـلَّ صديقــه " حـين دعـاه إلى حفـظ اللسـان مـن كـثرة الكـلام لئـلا يـؤدي كلامـه إلى سـقطه وهـذره وخطئـه ، ودعـاه إلى حسـن الخلـق ؛ لأن سـوء الخلـق يـؤدي إلى افتقـاد الأصدقـاء وقلتهـم .

---

[1] الوغد : الأحمق ، الدنيء .

[2] المتلون : الذي لا يثبت على رأي واحد ،ولا يثبت على خلق .

[3] اللجوج : كثير اللجاجة ، واللجاجة : العناد في الخصومة ، والتمادي فيها ، أو الإلحاح .

[4] لسان العرب ، لابن منظور ، مادة "فطر ".

ولعل أشهر وصايا الآباء إلى الأبناء في العصر الأموي هي وصية عبد الله بن شداد (كان فقيهاً محدثاً ، وهو ابن خالة عبد الله بن عباس ، وخالد بن الوليد ، وقد خرج على الحجاج بن يوسف الثقفي أيام عبد الرحمن بن الأشعث فقتل يوم دجيل ، وكان ثقة فقيهاً كثير الحديث متشيعاً) فقد حظيت هذه الوصية باهتمام الأدباء ؛ لعل ذلك لما عرضته من متغيرات العصر، وعكست الاتجاه الديني الذي نشط في العصر الأموي لمناهضة التيار المادي الجارف ، إذ حث ابنه على الابتعاد عن مغريات الحياة وأهوائها ، فأوصاه بهذه الوصية الجامعة حين حضرته الوفاة ، فقال :[1]

" يا بني ، إني أرى داعي الموت لا يقلع ، وأرى من مضى لا يرجع، ومن بقي فإليه ينزع ، وإني موصيك بوصية فاحفظها :

عليك بتقوى الله العظيم ، وليكن أولى الأمور بك شكر الله وحسن النية في السر والعلانية ؛ فإن الشكور يزداد [2] ، والقوى خير زاد [3] وكن كما قال الحطيئة : [4]

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد

ثم قال :

---

[1] الأمالي ، لأبي علي القالي ٢:٢٠٢ ، البيان والتبيين ٢:٧٨-١٨٠ جواهر الأدب ، للهاشمي ٦٩٢، جمهرة خطب العرب ٢:٥٠٣-٥٠٦ .

[2] إشارة إلى قوله تعالى :" وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم " (سورة إبراهيم آية ٧) .

[3] إشارة إلى قوله تعالى:"وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ". (سورة البقرة : آية ١٩٧).

[4] ديوان الحطيئة ، ٣٢١ .

أي بني ، لا تزهدن في معروف ؛ فإن الدهر ذو صروف ، والأيام ذات نوائب على الشاهد والغائب ، فكم مِن راغب قد كان مروغباً إليه وطالب أصبح مطلوباً ما لديه .

واعلم أن الزمان ذو ألوان ، ومن يصحب الزمان يَرَ الهوان ، وكن كما قال أبو الأسود الدؤلي:

وعد من الرحمن فضلاً ونعمة عليك إذا ما جاء للعُرف طالب
فلا تمنعن ذا حاجة طالباً فإنك لا تدري متى أنت راغب

ثم قال : أي بني ، كن جواداً بالمال في موضع الحق ؛ بخيلا بالأسرار عن جميع الخلق ، فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البِرِّ ، وإن أحمد بُخْلِ الحُرَّ الضَّنَّ بمكتوم السِّر ، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصاري :

أجود بمكنون التلاد وإنني بسرك عمن سالني لضنين
إذا جاوز الاثنين سِرٌّ فإنه بِنَثٌّ وتكثير الحديث قمين[1]

ثم قال أي بني ، وإن غُلبت يوماً على المال فلا تدع الحيلة على حال ، فإن الكريم يحتال والداني عيال [2] ، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً ، أقل ما تكون في الباطن مالاً ؛ فإن الكريم مَن كرمت طبيعته ، وظهرت عند الإنفاذ نعمته ، وكن كما قال ابن خدامة العبدي :

وجدت أبي أورثه أبوه خلالاً قد تُعَدُّ من المعالي
فأكرم ما تكون عليَّ نفسي إذا ما قل في الأزمان مالي

---

[1] النث : النشر ، والإذاعة ، والإعلان . قمين : جدير .

[2] والداني عيال : يقصد أنه عالة على غيره .

ثم قـال :

أي بُـني ، وإن سمعـت كلمـة مـن حاسـد فكـن كـأنك لسـت بالشـاهد ، فـإنك إن أمضيتهـا حيالهـا [1] رجـع العيـب علـى مـن قالهـا ، وكـان يقـال : "الأريـب العـاقل هـو الفطـن المتغـافل" ، وكـن كمـا قـال حـاتم الطـائي :

وما من شيمتي شتم ابن عمي وما أنا مخلف من يرتجيني
وكلمة حاسد في غير جُرمٍ سمعت فقلت: مُرِّي فانفذيني [2]
فعابوهـا عليَّ ولـم تسؤنـي ولم يعـرق لهـا يوماً جبيني
وذو اللونين يلقاني طليقـا وليس إذا تغيـب يأتليني
سمعت بعيبه فصفحت عنـه محافظة على حسبي وديـني

يـا بـني لا تـؤاخ أمـرءاً حتـى تعاشـره ، وتتفقـد مـوارده ومصـادره ، فـإذا اسـتطعت العشـرة ورضيـت الخـبرة ، فواجـه علـى إقالـة العـثرة ، والمواسـاة في العسـرة ،وكـن كمـا قـال المقنـع الكنـدي :

ابْلُ الرجـال إذا أردت إخاءهـم وتـوسَّـمنَّ فعـالـهم وتفقـدِ
فإذا ظفرت بذي اللبابة والتقى إذا فيه اليدين– قرير العين–فاشدد
وإذا رأيـت –ولا محـالـة –زلـة فعلى أخيك بفضل حلمك فاردد

ثـم قـال :

" أي بني ، إذا أحببـت فـلا تفـرط ، وإذا أبغضت فلا تشطط ، فإنـه

---

[1] أمضيتها حيالها : أي تركتها تجري في مجراها ، ولم تلق لها بالاً .

[2] مري فانفذيني : تجاوزيني وابتعدي عني .

كان يقال : أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وابغض بغيضك يوماً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما ، وكن كما قال هدبة بن الخشرم العذري :

وكن معقلاً للحلم واصفح عن الخنا　　فإنك راءٍ ما حييت وسامعُ
واحبب إذا احببت حبًّا مقارباً　　فإنك لا تدري متى أنت نازع
وابغض إذا أبغضت بغضاً مقارباً　　فإنك لا تدري متى أنت راجع

وعليك بصحبة الأخيار ، وصدق الحديث ، وإياك وصحبة الأشرار ؛ فإنه عار ، وكن كما قال الشاعر :

اصحب الأخيار وارغب فيهم　　رب من صاحبته مثل الجرب
ودع الناس فلا تشتمهم　　وإذا شاتمت فاشتم ذا حسب
إن من شاتم وغدا كالذي　　يشتري الصفر بأعيان الذهب
واصدق الناس إذا حدثتهم　　ودع الناس فمن شاء كذب

ويلاحظ أن عبد الله بن شداد قد افتتح وصيته بتأكيد حقيقة الموت وربطها بتقوى الله لأنها الحصن الحصين إزاء مغريات الحياة ومفاتنها ، ثم أكد على أهمية شكر الله على نعمه ؛ لأن ذلك مدعاة لدوام النعم وزيادتها ، كما هو في قوله تعالى :﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ، وأكد على أن "التقوى" زاد ، كما في قوله تعالى : ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ .

ثم وجه ابن شداد ابنه إلى قيمة " المعروف " وأهميته في حياة الإنسان؛ لأن المعروف لا يذهب بين الله والناس ، ليعوده عمل الخير وتقديم

المعروف في هذه الحياة الدنيا المتقلبة الأطوار ومتغيرة الأدوار .

ولما كان المال عصب الحياة ، وأن النفوس قد جبلت على حب المال وحب اقتنائه فقد حث ابن شداد ولده على الجود والكرم وإنفاق المال في مواضع الحق والبر ، وحذره من البخل وما يتركه من آثار في نفس الإنسان ، وما يتركه من آثار سلبية في نفوس من يتعاملون معه ، كما حدد له أساليب السعي في كسب المال مع الحفاظ على كرامته ومروءته .

وفي مجال التربية الاجتماعية حذر ابن شداد ولده من الانسياق مع الحساد أو الاتفاق معهم في آرائهم تجاه الآخرين وتقليلهم من شأنهم وذمهم ، ووجهه إلى ضرورة الإعراض عن الحساد وآرائهم والتغافل عن مرئياتهم تجاه الآخرين، مع أهمية التوازن والاعتدال في معاملة الحساد لئلا يثير ضغائنهم وحقدهم ضده .

وفي مجال التربية الاجتماعية أيضاً وجه ابن شداد ابنه إلى أن يكون اجتماعيًّا يألف الآخرين ويتألفهم ؛ لأن هذه طبيعة الإنسان الاجتماعي ، ولأن الإنسان اجتماعي بطبعه ، ولكنه يحثه على عدم الركون إلى " الأصدقاء " قبل معاشرتهم وتجربتهم ، فإذا ركن إليهم وثبت حسن معدنهم بعد الخبرة والتجربة فليحسن تعاملهم وليضن بهم وبأخوتهم .

وبهذا فقد وجهه إلى أن تكون صداقاته وفق أسس ومعايير دقيقة ، وأن تكون مبنية على اختيار دقيق ، وأن تكون بعد ذلك صداقات متينة وصادقة وألا تتأثر بأتفه دواعي الانفصام والانفصال ، بل تكون مبنية على التوازن والاعتدال .

ويختم ابن شداد وصيته لابنه الأكبر مركزاً على مقومات بناء شخصية الإنسان ومدى تأثره بأقرانه حاثًّا له على صحبة الأخيار وصدق الحديث ومحذراً

له من صحبة الأشرار مؤكداً أن صحبة الأشرار عار .

ومما يلاحظ أن هذه " الوصية " الجامعة قد ضمت عدداً من القيم والتوجهات والنصائح التي تركز على بناء شخصية الفرد وتحدد أصول علاقته بأبناء مجتمعه ، مما يؤكد حرص ابن شداد على إعداد ولده وتهيئته لحياته المستقبلية ، ويؤكد إدراكه الواعي لمسئوليته تجاه أبنائه ورعايتهم وتربيتهم .

وقد حرص ابن شداد على أن يدعم كل رأي من آرائه السابقة بالأدلة التي استقاها من خلفيته الثقافية والأدبية ، مما يجسد العاطفة الأبوية الصادقة الواعية ذات التجارب الثرة وذات الخبرة الواسعة والحنكة الواعية ، وحرصها على أن تعكس هذه العاطفة وظيفيًّا لبناء شخصية الأبناء وإعدادهم للمستقبل .

ولما كان للبنات مكانة خاصة في نفوس الآباء والأمهات نظراً لضعفهن وإمكاناتهن الخاصة ؛ فقد عبر الآباء عن مدى حبهم لبناتهم ، وترجموا مشاعرهم في عدد من الأقوال منذ أقدم عصورنا الأدبية، فقد أنشد ابن الأعرابي :[1]

أحب بنيتي وودت أني ... دفنت بنيتي في قعر لحد

وما بي أن تهون عليَّ لكن ... مخافة أن تذوق البؤس بعدي

وترجم شاعر آخر مشاعره تجاه ابنته أميمة فقال :[2]

لولا أميمة لم أجزع من العدم ... ولم أُجُب في الليالي جندس الظلم

وزادني رغبة في العيش معرفتي ... ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم

أُحاذر الفقر يوماً أن يُلم بها ... فيهتك السِّترَ من لحم على وضم

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً ... والموت أكرم نَزَّال على الحُرَم

وقال أعرابي في ابنته :[3]

---

(1) عيون الأخبار ٢:٩٧ .
(2) نفسه ٢: ٩٧.
(3) نفسه ٢:٩٧ .

يـا شِقّـةَ النفس إن النفس والهـة　　حَرَّى عليك ودمع العين منسجم
قد كنت أخشى عليها أن تُقَدِّمني　　إلى الحمام فيبدي وجهها العـدم
فـالآن نمـت فـلا هـم يؤرقنـي　　تهدا العيون إذا ما أودت الحُرَم

فهـذه الأقـوال - وغيرهـا كثـير - ممـا يـترجم عاطفـة الأبـوة تجـاه الأبنـاء بعامة وتجاه البنـات بخاصـة ، ويترجم مـدى حـرص الآبـاء علـى ألا يصيـب بنـاتهم ضيـم أو حيـف في حيـاتهم أو بعـد ممـاتهم لـذا فقـد توجهـوا لبنـاتهم بنصـائحهم ووصاياهم كمـا خصـوا أبنـاءهم الذكـور بهـا .

ولمـا كـانت مناسبة انتقـال البنـت من بيـت والدهـا إلى بيـت زوجهـا مـن أهـم مراحـل حياتهـا ومـن أشـدها علـى نفسيتها ونفسيات ذويهـا ؛ لـذا فقـد حفظـت لنـا كتـب الـتراث عـدداً مـن وصايـا الآبـاء إلى بنـاتهم بمناسـبة زواجهـن ، وأطلقـوا عليهـا " وصايـا الهـداء " [١]

ومـن وصايـا الآبـاء إلى بنـاتهم في العصـر الأمـوي وصيـة أسمـاء بـن خارجـة ابـن حصـن بـن حذيفـة الفـزاري (مـن أهـل الكوفـة بـالعراق ، كـان سـيد قومـه ، جـواداً مقدمـاً عنـد الخلفـاء ، وتـوفي سـنة ٦٦هـ)إذ أوصـى ابنتـه هنـداً عنـد هدائهـا قـائلاً :[٢]

" يـا بُنيـة ، إن الأمهـات يؤدبـن البنـات ، وإن أُمـك هلكـت وأنـت صغيرة ، فعليك بأطيب الطيـب المـاء ، وأحسـن الحسـن الكُحـل ، وإيـاك وكثرة المعاتبـة ؛ فإنها قطيعـة للـود ، وإيـاك والغـيرة ، فإنهـا مفتـاح الطلاق، وكونـي لزوجـك أمـة يكـن لـك عبـداً، واعلمـي أنـي القـائل لأمـك:

---

[١] الهداء : الزواج ، الزفاف . وقد خص ابن قتيبة هذا النوع من الوصايا بعنايته في كتابه عيون الأخبار (انظر المجلد الثاني ٣٦٣-٣٦٤).

[٢] البيان والتبيين ص٢:٤٥ ، الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني ١٨:١٢٨ .

خذي العفو مني تستديمي مودتي ... ولا تنطقي في سورتي حين أغضبُ
ولا تنقريني نقرة الدُّفِّ مرة ... فإنك لا تدرين كيف المُغَيَّب
فإني وجدت الحب في الصدر والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

وقد نسبت هذه " الوصية " لأبي الأسود الدؤلي في عيون الأخبار لابن قتيبة[1] ولكن أبا الفرج الأصفهاني قال : نسبت هذه العبارة مع الشعر لأسماء بن خارجة الفزاري ثم قال : وقد قيل إنه لأبي الأسود الدؤلي ، وليس بصحيح ، ونسبت في" المعمرون والوصايا " لأبي الأسود الدؤلي ، وروايتها فيه هكذا :[2]

" يا بنية ، كان النساء أحق بك مني ، ولكن لا بد لي منه ، يا بنية ، إن أطيب الطيب الماء ، وأحسن الحسن الدُّهن ، وأحلى الحلاوة الكحل ، يا بنية : لا تكثري مباشرة زوجك فيملك ، ولا تباعدي عنه فيجفوك ، ويعتل عليك ، وكوني كما قلت لأمك :

خذي العفو مني تستديمي مودتي ... ولا تنطقي في سورتي حين أغضب
فإني وجدت الحب في الصدر والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحُبُّ يذهب

وسواء أكانت " الوصية " لهذا أو ذاك فإنها تدور حول حياة الفتاة وعلاقتها بزوجها ، إذ رسمت " الوصية " الشعور الحقيقي للرجل في حال الرضا والغضب ، وحددت معالم الصفات والأخلاق التي يريدها الرجل في زوجته ، وجسدت - أيضاً - تجربة منشئ الوصية وخبرته في أخلاق المرأة وصفاتها وما يريده الرجل من زوجته في حال رضاه أو غضبه .

وقد جاءت هذه الوصية في مجال تربية البنت وإعدادها لاستقبال حياتها الزوجية ، وما يريده الأب لابنته من التوفيق والاستقرار في بيت الزوجية .

---

[1] عيون الأخبار ٢: ٣٦٤ .

[2] المعمرون والوصايا ، ص ١٤٧-١٤٨ وانظر جمهرة خطب العرب ٢: ٥٠٧ .

وقد أدرك منشئ الوصية أن الأصل أن تقوم النساء بإيصاء البنات ولكنه علل سبب إيصائه وبين علته لفقدها والدتها وهي صغيرة ، وجاءت ألفاظه سهلة مرتبة واتسمت بالتوازن الدقيق في قوله : "إياك وكثرة المعاتبة ؛ فإنها قطيعة للود ، وإياك والغيرة ؛ فإنها مفتاح الطلاق ، وكوني لزوجك أمة يكن لك عبداً" إذ قابل كل لفظ بما يناسبه ويوازيه في كل ركن من أركان الجملة .

ومن وصايا الهداء -أيضاً- وصية عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (الذي ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبواه إليها ، وهو أول من ولد بالحبشة من المسلمين ،وكان كريماً حتى سموه بحر الجود ، وللشعراء فيه مديح ، وكان أحد الأمراء في جيش علي - كرم الله وجهه - يوم صفين ، وتوفي سنة ٨٠هـ) إذ أوصى ابنته عند هدائها قائلاً : [١]

" يا بنية ، إياك والغيرة ؛ فإنها مفتاح الطلاق ، وإياك والمعاتبة؛ فإنها تورث البغضة ، وعليك بالزينة والطيب ، واعلمي أن أزين الزينة الكحل ، وأطيب الطيب الماء ".

ويلاحظ أن هذه " الوصية " قد اشتملت على كثير من ألفاظ الوصية السابقة ، وما ذلك إلى لأن هذه الوصايا إنما تعكس طابع البيئة الاجتماعية التي صدرت عنها ، وترسم عادات وتقاليد المجتمع التي كانت سائدة في المجتمع العربي في ذلك الوقت ، وتجسد الأزمات الأسرية المتمثلة في الغيرة وكثرة المعاتبة التي كثيراً ما تكون وراء الخلافات الزوجية.

ومن أظرف وصايا الهداء التي مالت إلى جانب الشر وما يعكس اختلاف الطبيعة البشرية باختلاف البيئات والمجتمعات وصية أبي النجم العجلي

---

[١] البيان والتبيين ، للجاحظ ٢:٦٢ .

(الراجز) التي روى أبن عبد ربه قصتها بقوله :[1]

" أنشد أبو النجم العجلي هشاماً [2] شعره الذي يقول فيه :

الحمد لله الوهوب المجزلِ ....

وهو من أجود شعره ، حتى انتهى إلى قوله :

.... والشمس في الجو كعين الأحول.

وكان هشام أحول ، فأغضبه ذلك ، فأمر به فَطُرد ، فأمَّل أبو النجم رجعته ، فكان يأوي إلى المسجد ، فأرق هشام ذات ليلة فقال لحاجبه : أبغي رجلاً عربيًّا فصيحاً يحدثني وينشدني ، فطلب له ما سأل فوجد أبا النجم ، فأتي به ، فلما دخل عليه قال: أين تكون منذ أقصيناك ؟ قال: حيث ألفاني رسولك . قال : فمن كان يا أبا نجم مثواك ؟ قال :رجلين أتغدى عند أحدهما وأتعشى عند الآخر .قال : فما لك من الولد ؟ قال: ابنتان ، قال : أزوجتهما؟ قال : زوجت إحداهما . قال فبم أوصيتها ليلة أهديتها ؟ قال : قلت لها :

سبي الحماة وابهتي عليها وإن أبت فازدلفي إليها[3]

ثم اقرعي بالعود مرفقيها وجدّدي الخلف به عليها[4]

لا تخبري الدهر بذاك ابنيها

فقال : فهل أوصيتها بعد هذا ؟قال : نعم :

أوصيت من بَرَّه قلباً بُرا [5] بالكلب خيراً والحماة شرا

---

(1) العقد الفريد ١: ٢٦٩-٢٧٠ .

(2) هو هشام بن عبد الملك .

(3) الحماة : أم الزوج ، ابهتي عليها : افتري عليها ، واكذبي .ازدلفي : تقربي .

(4) جددي الخلف عليها : أ يكرري قرعها بالعود.

(5) برة : اسم ابنته .

لا تسامي حنقا لها وجــرا　　　والحيَّ عُميهــم بشــرّ طـُـرا

وإن كسـوك ذهبــا ودرا　　　حتى يروا حلو الحياة مُــــرا

قـال هشـام : مـا هكـذا أوصـى يعقـوب ولـده .قـال أبـو النجـم : ولا أنـا كيعقــوب ، ولا ولـدي كولـده . قـال : فمـا حـال الأخـرى [1] ؟ قال : هي ظلامـة الـتي أقـول فيهـا :

كأنَّ ظلامة أخـت شيبـانْ　　　يتيمـة ووالـداهـا حيـَّانْ

الرأس قمل كلـه وصنبـان　　　وليس في الرجلين إلا خيطان

فهي التي يُذعر منهـا الشيطـان

قـال هشـام لحاجبـه: مـا فعلـت بالدنانـير الـتي أمرتـك بقبضهـا ؟ قـال : هـي عنـدي وهـي خمســمائة دينـار . قـال لـه: ادفعهـا لأبـي النجـم ليجعلهـا في رجلَـي ظلامـة مكـان الخيطـين " .

وهـذه " الوصيـة " وإن بـدت فيهـا رغبـة أبـي النجـم في التســرية عــن الخليفـة ليحظى بقربـه وعطائـه ؛ إلا أنهـا ترسـم صـورة " الشـر " الـذي يسـتمرئه بعـض النـاس في تعـاملهم مـع الآخريـن ، وهـي - إن كـانت صحيحـة - غريبـة في معانيهـا ، وغريبـة في حثهـا البنـت على سلوك الشر تجاه أسـرة الـزوج ، وهـي تخطـو خطواتهـا الأولى نحوهـم .

وتتميز وصيـة عـون بـن عبـد الله الهـذلي [2] لابنـه الـتي أنشـأها في محاسـبة النفـس تميزاً خاصًّا مـن حيـث مضمونهـا وأسـلوبها وطريقـة عرضهـا ، إذ خاطبـه

---

[1] الأخرى : يقصد البنت الأخرى .

[2] عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي ، خطيب ، رواية ، ناسب ، شاعر ،كان من أهل المدينة ، وسكن الكوفة فاشتهر بها بالعبادة والقراءة ، وصحب عمر بن عبد العزيز في خلافته ، توفي سنة ١١٥هـ ، وأخباره في البيان والتبيين ١:١٧٨ ، تهذيب التهذيب ٨:١٧١ ، حلية الأولياء ٤:٢٤٠ .(الأعلام ، للزركلي ٥:٢٨٠) .

قـائلاً :[1]

" يا بني ، كـن ممن نأيه عمـن نـأى عنـه يقين ونزاهـة ، ودنـوه ممن دنـا منـه لـين ورحمـة ، ليـس نأيـه بكـبر ولا بعظمـة ، ولا دنـوه خـداع ولا خلابـة[2] ، يقتـدي بمـن قبلـه ، فهـو إمـام لمـن بعـده ، ولا يَعْـزُب[3] علمـه ، ولا يحضـر جهلـه ، ولا يعجـل فيمـا رابـه ، ويعفـو فيمـا يتبـين لـه ، يغمـض في الـذي لـه ، ويزيـد في الحق الـذي عليـه ، والخير منـه مـأمول ، والشـر منـه مـأمون . إن كـان مـع الغـافلين ؛ كُتـب مـع الذاكريـن ، وإن كـان مـن الذاكريـن ، لم يكتـب مـع الغفـالين ، ولا يغـره ثنـاء مـن جَهلَـه ، ولا ينسـى إحصـاء مـا قـد علمـه ، إن زُكّـيَ خـاف مـا يقولـون ، واسـتغفر لمـا لا يعلمـون، يقـول : إنـا أعلـم بي مـن غيري ، وربي أعلـم بـي مـن نفسـي ، فهـو يستبطئ نفسـه في العمـل ، ويأتي مـن الأعمـال الصالحة علـى وجـل ، ويظـل يذكـر ، ويمسـي وهمـه أن يشـكر ، يبيـت حـذراً ، ويصبـح فرحـاً ؛ حـذراً لما حـذر مـن الغفلـة ، وفرحـاً لمـا أصـاب مـن الغنيمـة والرحمـة ، إن عصتـه نفسـه فيمـا يكـره ؛ لم يُطعهـا فيمـا أحبـت ، فرغبتـه فيمـا يَخلُـد ، وزهادتـه فيمـا يَنفَـد ، يمـزج العلـم بـالحلم ، ويصمـت ليسـلم ، وينطـق ليفهـم، ويخلـو ليغنـم ، ويُخـالق ليُعَلّـم[4] ،[لا ينصـت لخـير حـين ينصـت وهـو يسـهو ، ولا يستمع لـه وهـو يلغـو ، لا يُحَـدِّث أمانتـه الأصدقـاء ، ولا

---

[1] حلية الأولياء ، لأبي نعيم ٤:٢٦٠-٢٦٣ ، عيون الأخبار ١:٧٢١-٧٢٢ .، من وصايا السلف ، لسليم بن عيد الهلالي ٦٣-٧٦ دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ط ٢ الدمام ١٤١٢هـ/١٩٩١م .

[2] الخلابة : الخديعة باللسان .

[3] يعزب : يغيب ، وبينها وبين يحضر طباق .

[4] في عيون الأخبار : ويخالط ليعلم .

يكتم شهادتَهُ الأعداء ، ولا يعمل من الخير شيئاً رياء ، ولا يترك منه شيئاً حياء ، مجالس الذكر مع الفقراء أحب إليه من مجالس الله ومع الأغنياء].[1]

ولا تكن يا بني ممن يَعْجَبُ باليقين من نفسه فيما ذهب ، وينسى اليقين فيما رجا وطلب ، يقول فيما ذهب : لو قُدِّر شيء لكان، ويقول فيما بقي : ابتغ أيها الإنسان [2] ، شاخصاً غير مطمئن ، ولا يثق من الرزق بما قد ضُمن ، لا تغلبه نفسه على ما يظن ، ولا يغلبها على ما يستيقن ،فهو من نفسه في شك ، ومن ظنه إن لم يُرحم في هلك، إن سقم ندم ، وإن صح أمِن ، وإن افتقر حزن ، وإن استغنى افتتن ، وإن رغب كسل ، وإن نشط زهد ، يرغب قبل أن ينصب ، ولا ينصب فيما يرغب ، يقول : لم أعمل فأتعنى ؛ بل أجلس فأتمنى ، يتمنى المغفرة، ويعمل بالمعصية ، كان أول عمره غفلة وغرة ، ثم أُبقي وأُقيل العثرة ، فإذا في آخره كسل وفترة ، طال عليه الأمل فافتتن ، وطال عليه الأمد فاغتر ، وأُعذر إليه فيما عُمِّر، وليس فيما أعمر بِمُعْذَر ، عُمِّر ما يتذكر فيه من تذكر ، فهو من الذنب والنعمة موقَّر ، إن أعطى مَنَّ لِيُشكر ، أو إن منع قال لم يقدر ، أساء العبدُ واستأثر ، يرجو النجاة ولم يحذر ، ويبتغي الزيادة ولم يشكر ، حَقَّ أن يشكر ، وهوأحقُّ ألا يُعذَر ، يتكلف ما لم يؤمر ، ويُضيع ما هو أكثر ، إن يسأل أكْثَرَ ، وإن أنفقَ قَتَّرْ ، يسأل

---

[1] ما بين العضادتين ليس في عيون الأخبار .

[2] يقصد ابذل الجهد وخذ بالأسباب .

الكثير ، وينفق اليسير ، قدر له خير من قدره لنفسه ، فَوُسِّع له رزقه ، وخُفِّف حسابه ، فأُعطي ما يكفيه ، ومُنع ما يُلهيه ، فليس يرى شيئاً يُغنيه دون غنى يُطغيه ، يعجز عن شكر ما أوتي ، ويبتغي الزيادة فيما بقي ، يستبطئ نفسه في شكر ما أُوتي ، وينسى ما عليه من الشكر فيما وُفّيَ، يُنْهى فلا ينتهي ، ويأمر بما لا يأتي ، يهلك في بُغضه ، ويُقصِّرُ في حُبِّه، غَرَّه مِنْ نفسه حُبُّه ما ليس عنده، وبغضه ما عنده مثله، يحب الصالحين فلا يعمل أعمالهم ، ويُبغض المسيئين وهو أحدهم ، يرجو الآخرة في البغض على ظنه ، ولا يخشى المقت في اليقين من نفسه ، لا يقدر في الدنيا على ما يهوى ، ولا يقبل من الآخرة ما يبقى ، يبادر من الدنيا ما يفنى ، ويترك من الآخرة ما يبقى ،إن عوفي حسب أنه قد تاب وإن ابتُلي عاد يقول في الدنيا قول الزاهدين ، ويعمل فيها عمل الراغبين ، يكره الموت لإساءته ، ولا ينتهي عن الإساءة في حياته ، يكره الموت لما لا يدع ، ويحب الحياة لما لا يصنع ، إن مُنع من الدنيا لم يقنع ، وإن أُعطي منها لم يشبع ، وإن عَرَضت الشهوة قال : يكفيك العمل فواقع ، وإن عرض له العمل كسل، وقال : يكفيك الورع ، لا تُذهب مخافَتُه الكسل، ولا تبعثه رغبته على العمل ، يرجو الأجر بغير عمل، ويؤخر التوبة لطول الأمل ، ثم لا يسعى فيما له خُلق ، ورغبته فيما تُكُفّلَ له من الرزق ، وزهادته فيما أُمر به من العمل ، ويتفرغ لما فُرِّغ له من الرزق ، يخشى الخلق في ربه ، ولا يخشى الرَّبَّ في خَلْقِه ، يعوذ بالله ممن هو فوقه ، ولا يعيذ الله مَن هو تحته ، يخشى الموت ، ولا يرجو الفوت ، يأمن من يخشى وقد أيقن به ، ولا ييأس مما يرجو وقد تيقن

منه، يرجو نفع علم لا يعمل به ، ويأمن ضُرَّ جهل قد أيقن به ، يسخر بمن تحته من الخلق ، وينسى ما عليه من الحق ، ينظر إلى من هو فوقه في الرزق ، وينسى من تحته من الخلق ، يخاف على غيره بأدنى من ذنبه ، ويرجو لنفسه بأيسر من عمله ، يُبصر العورة من غيره ، ويُغفلها من نفسه ، إن ذَكَرَ اليقين قال : ما هكذا من كان قبلكم ، فإن قيل : أفلا تعمل أنت عملهم ؟ يقول : مَنْ يستطيع أن يكون مثلهم ؟ فهو للقول مدل ، ويتسصعب عليه العمل ، يرى الأمانة ما عوفي وأُرضي ، والخيانة إن أُسخط وابتُلي ، يلين ليحسب عنده أمانة ، فهو يرصدها للخيانة ، يتعلم للصداقة ما يُرصَدُ به للعداوة ، يستعجل بالسيئة وهو في الحسنة بطيء ، يخف عليه الشعر ، ويثقل عليه الذّكر ، اللغو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقراء ، يتعجل النوم ويؤخر الصوم ، فلا يبيت قائماً، ولا يصبح صائماً ويصبح وهمُّه التصبُّح من النوم ولم يسهر ، ويمشي وهمُّهُ العشاء وهو مفطر ، إن صلّى اعترض[1] ، وإن ركع ربض[2] ، وإن سجد نقر ، وإن سأل ألحف[3] وإن سُئل سَوَّف ، وإن حدَّث حلف ، وإن حلف حَنث ، وإن وعد أخلف ، وإن وُعظ كلح ، وإن مُدح فرح ، طلبُهُ شر ، وتركه وِزر ، ليس له في نفسه عن عيب الناس شُغل ، وليس له في الإحسان فضل ، يميل لها ويحب لها منهم العدل ،أهل الخيانة له بطانة ، وأهل الأمانة له عداوة، إن سَلَّمَ لم يُسمع،

---

[1] اعترض : تكلف .

[2] عجز عن النهوض ، أي ركع بتكاسل ، ومنه الرُّبضة : الرجل المقيم العاجز عن النهوض .

[3] ألحف : ألح في السؤال .

وإن سَمَّع لم يرجع ، ينظر نظر الحسود ، ويُعرض إعراض الحقود ، يسخر بالمُقتّر ، ويأكل بالمدبر ، ويرضي الشاهد بما ليس في نفسه [٤] ويُسخط الغائب بما لا يُعلم فيه ، جريء على الخيانة ، بريء من الأمانة، من أحب كذب ، ومن أبغض خلب [٥] ، يضحك من غير العجب ، ويمشي في غير الأدب ، لا ينجو منه من جانَبَ[٦] ، ولا يسلم منه من صاحَبَ، إن حدَّثته ملَّك ، وإن حدَّثك غمَّك ، وإن سؤته سرَّك؛ وإن وافقته حَسَدك ، وإن خالفته مقتك ، يَحْسُدُ إن يُفْضَل ، ويَزْهَدُ أن يفْضُل ، يَحْسُدُ مَنْ فَضَلَهُ ، ويَزْهَدُ أن يَعْمَلَ عمله ، يعجز عن مكافأة من أحسن إليه ، ويفرط فيمن بغى عليه [١] ، ولا يُنصت فيسلم، ويتكلم بما لا يعلم ، يَغْلبُ لسانُهُ قلبَه ، ولا يضبط قلبُه قوله ، يتعلمُ للمراء ، ويتفقه للرياء ، ويُظهر الكبرياء ، فيظهر منه ما أخفى ، ولا يخفى منه ما أبدى ، يُبادر ما يفنى ، ويواكل ما يبقى ، يبادر بالدنيا ، ويواكل [٢] بالتقوى ".

وأول ما يلفت النظر في هذه " الوصية " سهولة ألفاظها ، وبعدها عن كل تكلف وتعقيد ؛ لأنها صيغت بلغة العصر ، ويبدو منشئها أكثر استيعاباً لواقع العصر ، فالمسئولية الدينية والأخلاقية باعتقاده ثابتة في كل زمان ومكان ؛

---

[٤] أي يتكلف ويُري مُشاهده من نفسه ما ليس فيها .

[٥] خلب : خدع .

[٦] الجانبُ: الذي يسير بجانبه ، ويعني من اقترب منه لا يسلم من أذاه .

[١] أي يتجرأ في عداوة من بغى عليه .

[٢] يواكل : يتكل ، ويعني يؤخر ويسوف ويؤجل ، وبينهما وبين يبادر بالدنيا طباق .

إذ أبرز آداب النفس وأصول التعامل من خلال النماذج الإيجابية والسلبية التي استعرض سلوكها وأخلاقها وكيفية تعاملها .

وأما أفكار الوصية فقد رسمت صورة تقويمية للذات الإنسانية ، وعملت العناية بصياغتها على إيجاد متعة وجدانية خلال هذه الرحلة الشائقة داخل النفس البشرية ونماذجها .

وبدا حرص المبدع على تفسير معانيه بأسلوب رائع كما في قوله : "يحسد أن يُفضَل ، ويزهد أن يَفضل " ثم يفسر ذلك بقوله :" يحسد من فضَله، ويزهد أن يعمل عمله ". وقوله :" يبيت حذراً ويصبح فرحاً " ثم يفسر ذلك بقوله : " حذراً لما حذر من الغفلة " وفرحاً لما أصاب من الغنيمة والرحمة "..

وهذا ما جعل هذه " الوصية " رغم تطاول القرون عليها أن تتجاوز كل حواجز الزمان والمكان لتحيا بين ظهرانينا مشرقة نابضة بالحياة ، وكأنها تصف نماذج إنسانية تعيش بيننا في هذه الأيام ؛ لما فيها من استشراف لخفايا النفس البشرية وصفاتها ووصفها وصفاً حقيقيًا يدل على فطنة صاحبها ووعيه .

ومن وصايا العصر الأموي التي حملت سياسة معاوية بن أبي سفيان وفطنته في ترجمة علاقة الراعي بالرعية إلى جانب التأكيد على دور الجانب السلوكي في تحقيق المكانة الاجتماعية المرموقة وصية يزيد بن المهلب لابنه "مخلد" عندما ولي يزيد خراسان في عهد سليمان بن عبد الملك ففتح جرجان وطبرستان، واستخلف ابنه مخلداً على جرجان ، وأوصاه قائلاً : [1]

"يا بُني : إني قد استخلفتك على هذه البلاد ، فانظر هذا الحي من اليمن ، فكن لهم كما قال الشاعر:

---

[1] شرح ابن أبي حديد ٤: ١٥٥، وبلوغ الأرب ٣: ١٧٣، وجمهرة خطب العرب ٢: ٣١٨-٣١٩.

إذا كنت مرتاد الرجال لنفعهم   فَرِشْ واصطنع عند الذين بهم ترمي

وانظر هذا الحي من ربيعة ، فإنهم شيعتك وأنصارك ، فاقض حقوقهم ، وانظر هذا الحي من تميم ، فأمطرهم ولا تُـزْهَ لهم [٢] ، ولا تدنهم فيطمعوا، ولا تقصهم فيقطعوا ، وانظر هذا الحي من قيس ؛ فإنهم أكفاء قومك في الجاهلية ، ومناصفوهم المنابر في الإسلام ، ورضاهم منك البشر.

يا بني ، ،إن لأبيك صنائع ، فلا تفسدها ؛ فإنه كفى بالمرء نقصاً أن يهدم ما بنى أبوه ، وإياك والدماء فإنها لا بقية معها ، وإياك وشتم الأعراض ؛ فإن الحر لا يُرضيه عن عرضه عوض ، وإياك وضرب الأبشار ؛ فإنه عار باق ، ووتر مطلوب ، واستعمل على النجدة والفضل دون الهوى ، ولا تعزل إلا عن عجز أو خيانة ، ولا يمنعك من اصطناع الرجل أن يكون غيرك قد سبقك إليه ، فإنك إنما تصطنع الرجال لفضلها ، وليكن صنيعك عند مَنْ يكافئك عنه ، احمل الناس على أحسن أدبك يكفوك أنفسهم ، وإذا كتبت كتاباً فأكثر النظر فيه ، وليكن رسولك فيما بيني وبينك مَن يفقه عني وعنك ، فإنَّ كتاب الرجل موضع عقله ، ورسوله موضع سره ، وأستودعك الله ، فلا بد للمودِّع أن يسكت ، وللمشيِّع أن يرجع ، وما عَفَّ من المنطق ، وَقَلَّ من الخطيئة أحبُّ إلى أبيك ، وكذلك سلك هذا المسلك المحمود ".

---

[٢] امطرهم : أي زدهم بكل خير ، من قولنا : مطرتهم السماء : أصابتهم بالمطر . ولا تزه: أي لا تتكبر ولا تته .

ومما يلفت النظر في هذه الوصية حرص " الوالد " على أن يسلك ولده مسلكه وأن يتخذ من سلوكه قدوة يقتدى بها في حياته ، وضوءاً يستنير به في طريقه .

ومن الوصايا الاجتماعية التي حفظتها لنا كتب التراث من العصر الأموي وصية سعد القصير (أحد رواة الأخبار من موالي بني أمية ، قتله ابن الزبير بمكة)[1] إذ خاطب ابنه قائلاً : [2]

" يا بني ، أوصيك بوصية إن لم تحفظها مني كنت جديراً أن تحفظها من غيري .

يا بني ، أظهر البأس فإنه غنى ، وإياك وطلب الحاجات فإنه فقر حاضر ، وإذا صليت صلاة فصل صلاة مودع ، وأنت ترى ألا تصلي بعدها أبدا، وإن استطعت أن تكون غدا خيرا منك اليوم ، واليوم خيرامن أمس فافعل ، وإياك وكل شيء يُعتذر منه؛ فإنه لا يُعتذر إلا من شر ، وإياك أن تحزن على شيء آتاك الله خيرا منه " .

وهي وصية جامعة تحقق خيري الدنيا والآخرة ، وفيها من المواعظ الاجتماعية ما لايخفى .

وأما سعيد بن العاص (الصحابي الذي تربى في حجر عمر بن الخطاب، وولاه عثمان بن عفان الكوفة وهو شاب فشكاه أهلها فاستدعاه عثمان

---

(1) المعارف لابن قتيبة ، ص ٥٣٨.

(2) الفاضل في صفة الأدب الكامل ، للوشاء ، ص ١٥٤.

إلى المدينة ، ودافع عن عثمان وقاتل دونه إبان الثورة عليه ، وولي المدينة لمعاوية فتولاها إلى أن مات سنة ٥٩ هـ)[1] فقد جمع بنيه لما حضرته الوفاة وقال:

يابني ، قد حضر ما ترون من الموت ، وهو ما لا بد منه ، وحوضه مورود ، ولم يمكن أحدا السلامة منه ، وقد مات الأنبياء قبلنا ، ولسنا نقدر على دفعه بحيلة ولا عدة . ثم تمثل :

إن المنية للفتيان ذاهبة وإن لقوها بأسياف وأدراع [2]
بينا الفتى يبتغي من عيشة مددا إذ حان يوماً فنادى باسمه الناعي
لاتجعل الهم غلا لا انفراج له لاتُلفين كئيباً ضيق الباع

ثم قال : ليت شعري ! كيف أنتم بعدي فيمن أخلف من أقاربي وأسرتي ؟ فبكى بنوه ولم يرد أحد منهم جواب ، غير أن قالوا : أماتنا الله قبلك ، حتى انتهى القول إلى عنبسه بن سعيد فقال له: يا أبت، إن تهلك فإني أخلفك في ثلاث . فقال: وما هن يابني ؟ قال : أجعل صديقي دون صديقك ، وأقضي دينك قبل ديني ، وأزوج بناتك. فقال سعيد : لئن فعلت ما قلت لقد كنتُ خير أب وكنت لي خير ولد ، يابني، قد كنت لك في حياتي فكن لي بعد وفاتي ، ثم تمثل :

فلئن هلكت وكنت أنت دعامة بعدي لمثلك ما تركت كفاني

---

[1] أخباره في : في الإصابة لابن سعد ١٩:٥ ، وتهذيب ابن عساكر ١٣١:٦-١٤٥ ، وتاريخ الإسلام ٢٦٦:٢ ، وآثار المدينة المنوره ، للأنصاري ، ص٣٧ ، والأعلام ، للزركلي ١٤٩:٣ .

[2] الأدراع : جمع درع . ويروي البيت :

إن المنية بالفتيان ذاهبة ولم يدفعوها بأسياف وأدرع .

قد كنت أرمي من رماك حمية   وأذود عنك بسطوتي ولساني

وتكون دونك نخوتي وجوارحي   عند الكريهة كل يوم طعان

أُعنى بأمرك ولا يضرك حاسد   ينوي هلاكك في وغي الفرسان

أخشى عدوك عند ذلك سطوتي   ومقام لا وَكِلٍ ولا بجبان

ثم لبث ساعة وهلك)[1]

إذ أوضحت هذه "الوصية" حق الأبناء على الأباء في أثناء حياتهم وحق الآباء على الأبناء بعد وفاتهم بعد أن أكدت حقيقة "الموت" وأكدت حتمية الفراق ، وجسدت الراحة النفسية التي يشعر بها "الأب"عندما يطمئن إلى تحمل "أبنائه" للمسئولية كاملة من بعده .

وبعد هذه الوقفة المتأنية مع " **الوصايا في العصر الأموي**" نستطيع أن نشير إلى الخصائص الفنية التالية :

- سهولة الألفاظ ووضوح العبارات وقوة تأثيرها .
- وضوح التأثر بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تضميناً واقتباساً أو إشارة إلى مضامينها .
- الاستشهاد بالأشعار والحكم والأمثال دعماً لآرائهم وتجسيداً لثقافاتهم كما كان واضحاً لدى عبد الملك بن مروان وعبد الله بن شداد وغيرهما .
- تجاوز التجربة الذاتية والاعتماد على المؤثرات الدينية والتراثية بشكل واضح .

---

(1) الفاضل في صفة الأدب الكامل ، للوشاء ، ص ١٤٤-١٤٥ .

- ضعف النزعة القبلية وظهور النزعة الإنسانية العامة .

- ظهور موضوعات جديدة في الوصايا كالجهاد والإيثار والصداقة ، والاعتدال في الإنفاق ...

- ظهور ألوان جديدة من الوصايا السياسية والحربية إلى جانب الوصايا التربوية والاجتماعية .

- وضوح التناغم والتوازن بين الألفاظ والانسجام بين العبارات .

- ظهور الميل إلى تحقيق الوحدة الموضوعية في معظم الوصايا ، واختفاء حشد الحكم والأمثال فيها .

- قدرة الوصايا على رسم الصورة النفسية لمنشئها ، كما لاحظنا لدى كل من معاوية بن أبي سفيان ، وزياد ، وعبد الملك بن مروان وغيرهم في وصاياهم السياسية والحربية .

وصايا الآباء إلى الأبناء في العصر العباسي

لقد كان لانطلاق العرب خارج جزيرتهم منذ أن رفعوا راية الجهاد في عهد الرسول ﷺ ، واندفاعهم لنشر الإسلام في أرجاء المعمورة آثاره الاجتماعية والسياسية والفكرية والثقافية في المجتمعات العربية والإسلامية .

وقد كان من نتيجة التمازج السكاني الذي بدأ طفيفاً في عصر صدر الإسلام وشاع في العصر الأموي وفشا واستشرى في العصر العباسي كان من نتيجة ذلك التمازج السكاني أن تلاقت في العصر العباسي الثقافات التالية :

- الثقافة الإسلامية العربية .
- الثقافة الفارسية .
- الثقافة الهندية .
- الثقافة اليونانية .

وكان من الطبيعي أن يترك تلاقي هذه الثقافات تغيراً وتطوراً في أساليب المعيشة والحياة بعامة ، وتطوراً وتغيراً في النواحي الفكرية والأدبية والثقافية بخاصة ؛ إذ تُرجمت في هذا العصر كتب العلم والحكمة عن خمس لغات أعجمية وهي :

الفارسية أو البهلوية .

السنسكريتية .

السريانية .

العبرانية ، وسمي المترجَم عنها بالإسرائيليات .

الهندية .

وعكف أهل العلم والفضل على النظر في هذه الكتب ونقلوا للعربية

شيئاً قليلاً من أدب اللغات الأعجمية . [1]

ومن الكتب التي ترجمت في العصر العباسي من لغات الأعاجم : أمثال لقمان الحكيم، ولطائف الملوك ، وكثير من النصائح والمشورات السياسية ، وشيء من كتاب زرادشت ، وكتاب كليلة ودمنة ، وكتاب (خداي نامة) في سيرة ملوك العجم ، وكتاب (أيين نامة) في عادات الفرس وآدابهم ، وكتاب "التاج " في سيرة أنو شروان ، وكتاب وصايا أرسطو إلى الاسكندر ، وكتاب النصيحة أو قابوس نامة الذي وضعه كيكاوس بن إسكندر لابنه كيلانشاه .. وغيرها .

وما من شك في أن امتزاج الثقافات من ناحية وترجمة كتب الحكم والمواعظ والوصايا والآداب السلطانية من ناحية أخرى قد تركا آثاراً واضحة في الفنون الأدبية في العصر العباسي بعامة وفي فن الوصايا بخاصة كما سنرى.

ولعل أبرز وأشهر وصايا الآباء إلى أبنائهم في هذا العصر وصايا أبي جعفر المنصور (الخليفة الثاني من خلفاء بني العباس ، والمؤسس الحقيقي للدولة العباسية) التي وجهها لابنه وولي عهده المهدي (محمد بن عبد الله المنصور) ، وقد قال في إحدى هذه الوصايا:[2]

" بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهدَ عبد الله أمير المؤمنين إلى المهدي محمد بن أمير المؤمنين ولي عهد المسلمين حين أسند وصيته بعده ، واستخلفه على الرعية من المسلمين وأهل الذمة ، وحُرَمِ الله وخزائنه وأرضه التي يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمؤمنين.

---

[1] انظر: تاريخ علم الأدب ، لروحي الخطيب ، ص ٦٥، دار الهلال بمصر (د.ت).

[2] تاريخ اليعقوبي ، لليعقوبي ٢: ٣٣٤-٣٣٦ .

إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله في البلاد، والعمل بطاعته في العباد ، ويحذرك الحسرة والندامة، والفضيحة في القيامة ، قبل حلول الموت ، وعاقبة الفوت حين تقول:﴿ رب لولا أخرتني إلى أجل قريب﴾[١] هيهات ، أين منك المهل[٢] وقد انقضى عنك الأجل ، وتقول :﴿رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً ﴾[٣] ، فحينئذ ينقطع عنك أهلك ، ويَحُلُّ بك عملك ، فترى ما قدمته يداك ، وسعت فيه قدماك ، ونطق به لسانك ، واستركبتْ عليه جوارحك ، ولحظت له عينك ، وانطوى غيبك ، فتجزى عليه الجزاء الأوفى ،إن شرًّا فشرًّا، وإن خيرا فخيرا، فلتكن تقوى الله من شأنك ، وطاعته من بالك .

استعن بالله على دينك ، وتقرَّب به[٤] إلى ربك ونفسك ، فخذ منها ، ولا تجعلها للهوى ، ولن تعمل الشر قامعاً ، فليس أحد أكثر وزراً ، ولا أغزر إثماً ، ولا أعظم مصيبة ، ولا أجل رزيئة منك ، لتكاثف ذنوبك ، وتضاعف أعمالك ، إذ قلدك الله الرعية تحكم فيهم بمثل الذَّرَّة، [٥] فيقتضون منك أجمعون ، وتكافأ[٦] على أفعال ولاتك الظالمين ، فإن الله يقول :﴿إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ [٧] فكأني بك وقد أوقفتَ بين يدي الجبار ، وخذَلَكَ الأنصار ، وأسلمك الأعوان ، وطوفتَ الخطايا ، وقرفتْ بك الذنوب ،

---

[١] سورة المنافقون ، آية ١٠ .

[٢] أين منك المهل : أي لن تحظى بالإمهال والتأجيل لاستحالة ذلك .

[٣] سورة المؤمنون، الآيتان ٩٩-١٠٠ .

[٤] الضمير " به " يعود على الدين

[٥] الذرة أصغر جزء في العنصر البسيط ، وهي الهباءة .

[٦] تكافأ : (هنا) : تجازي وتحاسب .

[٧] سورة الزمر ، الآيتان ٣٠-٣١ .

وحلَّ بك الوجل ، وقعد بك الفشل ، وكلَّتْ حجتك ، وقلَّت حيلتك ، وأُخذت منك الحقوق ، واقتاد منك المخلوق[1] ، في يوم شديد هوله ، عظيم كربه ، تشخص فيه الأبصار لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ، ولا شفيع يطاع ، فما عسيت أن يكون حالك يومئذ إذا خاصمك الخلق ، واستقصى عليك الحق ، إذ لا خاصة تنجيك ، وقرابة تحميك ، تطلب فيه التباعة ، ولا تقبل فيه الشفاعة ، ويُعمل فيه بالعدل، ويقضى فيه بالفصل ، قال الله : ﴿لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ [2].

فعليك بالتشمير لدينك ، والاجتهاد لنفسك ، ففك عنقك ، وبادر يومك ، واحذر غدك ، واتق دنياك ؛ فإنها دنيا غادرة موبقة ، ولتصدق لله نيتك ، وتعظم إليه فاقتك ، وليتسع إنصافك ، وينبسط عدلك ، ويؤمَن ظلمك ، وواس بين الرعية في الاحتكام ، واطلب بجهدك رضى الرحمن .

وأهلُ الدين فليكونوا أعضادك ، وأعط حظ المسلمين من أموالهم ، ووفّر لهم فيأهم، وتابع أعطياتهم عليهم ، وعجل بنفقاتهم إليهم سنةً سنةً وشهراً شهراً ، وعليك بعمارة البلاد بتخفيف الخراج ، واستصلح الناس بالسيرة الحسنة والسياسة الجميلة ، وليكن أهم أمورك إليك تَحَفُّظَ أطرافك وسَدَّ ثغورك وأكماشَ بعوثك .[3]

وارغب إلى الله – عز وجل – في الجهاد والمحاماة عن دينه ، وإهلاك عدوه بما يفتح الله على المسلمين ، يمكّن لهم في الدين ، وابذل

---

[1] اقتاد منك المخلوق : أخذ القود ، وهو الدية .

[2] سورة غافر ، الآية ١٧.

[3] أكماش بعوثك : إمضاؤها والإسراع في إرسالها .

في ذلك مهجتك ونجدتك ومالك، وتفقد جيوشك ليلك ونهارك ، واصرف مراكز خيلك ومواطن رحلك ، وبالله فليكن عصمتك وحولك وقوتك ، وعليه فليكن ثقتك واقتدارك وتوكلك ؛ فإنه يكفيك ويُغنيك وينصرك ، وكفى به مؤيداً ونصيراً".

ولما كان أبو جعفر المنصور عارفاً بالفقه والأدب ، محبًّا للعلم والعلماء[1] ؛ فليس غريباً أن يركز في الجانب الأول من وصيته على تقوى الله وطاعته ، إذ استهلها بقوله :" إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله في البلاد ، والعمل بطاعته في العباد ..." وختم عبارتها الأولى بقوله :" فلتكن تقوى الله من شأنك ؛ وطاعته من بالك " وليس غريباً أن يعزز أحكامه وآراءه بآيات من القرآن الكريم ليؤكد مضمونها ويقرر أهميتها .

ولما كانت " الوصايا " كثيراً ما تترجم الصورة النفسية لكاتبها ؛ فقد رسمت هذه الوصية صورة أبي جعفر المنصور من جانبين :

الجانب الأول : أن هذه الوصية عندما جاءت بعد الشعور بقرب الفراق والإيمان بهشاشة الحياة وتفاهتها ، والتأكد بأن " الفراق لا بد منه " وأن الموت حق ؛ فقد عكست سر هذه النظرة الإيمانية والدعوة إلى مراقبة الله في كل حال ومحاسبة النفس قبل أن تحاسب ، وعكست هذا الضعف البشري عند استقبال الموت وانتظار الحساب .

الجانب الآخر : أن شخصية أبي جعفر قد تميزت بالحكمة والحزم والشدة في حياته ؛ لذا فقد حث ابنه على أن يحرص على هذه الصفات حين أمره

---

[1] انظر الأعلام ، للزركلي ٩١:٧ طبعة ٣ وزارة المعارف السعودية .

بالتشمير لدينه ، وأن يرغب إلى الله - عز وجل - في الجهاد والمحاماة عن دينه وإهلاك عدوه ...

وقد حرص أبو جعفر في هذه الوصية على بناء شخصية ولده من جانبين :

الأول : الجانب التربوي القائم على الجانب الديني كتقوى الله ، وطاعته ، والاستعانة به ، والتقرب إليه ...

الآخر : الجانب الرسمي بصفته ولي عهده وخليفة المسلمين فيما بعد ؛ حيث وجهه إلى الاعتماد على أهل الدين في كل أموره ، وإعطاء الناس حقوقهم، والاهتمام بعمارة البلاد ، والدفاع عن حوزة الدين بالجهاد ...

وفي وصية أخرى يخاطب أبو جعفر ابنه المهدي قائلاً:[1]

"أوصيك بتقوى الله ومراقبته ، وعليك بإكرام أهل بيتك وإعظامهم ؛ ولا سيما من استقامت طريقته ، وطهرت سيرته ، وحسنت مودته منهم ، فإن أقرب الوسائل المودة ، وأبعد الطيب البغضة، واذكر أهل الجزالة والفضل منهم فشرفهم وأوطئ الرجال أعقابهم [2] ، فإنه لا يزال لأمر القوم فطام ما كانت له أعلام ، وأجزل لهم الإعطاء ،ووسّع عليهم في الأرزاق ؛ فإن أكثر الناس مؤونة أعظمهم مروءة ، ثم ليكن معروفك لغيرهم بَعْدَهم ؛ فإن الصلة تزيد الألفة ، وصفهم [3] ينبلوا ، ولا تبذهم فيخلعوا.

---

[1] جمهرة وصايا العرب ص١٠٨-١٠٩ ، ويبدو أن هذا الجزء متمم للوصية السابقة .

[2] أوطئ الرجال أعقابهم: أي قدمهم على غيرهم ، واجعل غيرهم في أعقابهم (وراءهم).

[3] صفهم : انعتهم بما فيهم من الفضل .

واعلم أن رضا الناس غاية لا تدرك ، فتحبب إليهم بالإحسان جهدك، وتثبت فيما يرد من أمورهم عليك ، ووكل همومك بأمورك ، وتفقَّدِ الصغير تَفَقُّدَكَ الكبير ، وخُذ أُهبه الأمر قبل حلوله ؛ فإن ثمرة التواني الإضاعة ، وكن عند رأس كل أمر لا عند ذَنَبه ؛ فإن المُستَقْبِلَ لأمره سابق ، والمستدبر له مسبوق ، وَوَلِّ أمورك الفاضل يكن مستعليا، ولا تُولِّ المفضول فإنه مُزْرٍ باختيارك ، وانظر الأموال ؛ فإنها عدة الملوك ، وبها السلطان ونظام التدبير ، فوفرها بولاية أهل العفاف عنها، والحِيطة عليها ، ولا تبذلها إلا في إصلاح أمور السلطان والرعية، وثواب أهل الطاعة والنصيحة .

وأحسن إلى نصائحك ،واستدم مودتهم ومحبتهم بجميل التعهد لهم ، والتفقد لأمورهم ، ولا تعط عطية تُبطر الخاص ، وتؤسف العام ، واجعل لكلّ إليك حاجة ، واجعل لهم من فضلك مادة ، واسمع من أهل التجارب ، ولا تَرُدَّنَّ ذوي الرأي ، وعَوِّد نفسك الصبر على التعب في إصلاح الرعية ، واترك الهوينى والدعة ، واعلم أن ذهاب السلطان يؤتى من ثلاثة أمور : قلة الحزم ، وضعف العزم ، وفقد صالح الأعوان ، وإن ثباته بأربع خلال : المعرفة ، وحُسْنِ التَّخَيُّرِ، وإمضاء الاختيار ، وتنكب أهل الحرص ، فإن الرخيص لا يبيعك باليسير من حظه وشره ، والوزراء أَضَرُّ الأعداء ، ومن خانك كذبك ، ومن كذبك غَشَّك.

واعلم أن مادة الرأي المشاورة ، فاختر لمشاورتك أهل اللُّبِّ والرأي والصدق وكتمان السر ، وكافئ بالحسنة ، وتجاوز عن السيئة ، ما لم يكن في ذلك ثلم دين ، ولا وهن سلطان ، ودع الانتقام فإنه أسوأ أفعال القادر ، وقد استغنى عن الحقد من عصتهم عن المجازاة ، وعاقب بقدر الذنب ، واعفُ عن الخطأ، وأقل العثرات من أهل الرحمة والبلاء ،

وعليك ببلاد نعمتك ومواليك من أهل خراسان وغيرها من الآفاق ؛ فإنهم أنصح الناس ، وأشدهم سعياً في بقاء دولتك ، فإنما عزهم بعزك ، وتجنب دقيق أخلاق العراق ؛ فإنهم نشأوا على الخبث ومذموم الخَلاق، وإذا اطلعت من خاصيتك وأهل نعمتك على مفسد لنصيحتك فلا تُقِلْه عُثرة ، ولا تسرع له حُرقة ، ودع الاعتزاز به ؛ فإنك إن اعتززت به كنت كمُدخل الحية دون شِعاره إن شاء الله ".

وهذه الوصية لم تبعد كثيراً عن مضامين الوصية السابقة إلا إنها ركزت على الآداب السلطانية وإعداد الموصى للخلافة والحكم أكثر مما التفتت إلى الاهتمام بجانب التربية الأبوية العامة التي كان الاهتمام بها أكثر لدى عامة الآباء من غير ذوي السلطان وولاية الأمر .

وهذه الوصية تعكس جانباً من جوانب ثقافة المنصور وسعة علمه إلى جانب حنكته وخبرته في أحوال الأمم والشعوب في عصره من خلال علاقاتهم بنظام الحكم العباسي إذ قال :" وعليك ببلاد نعمتك ومواليك من أهل خراسان وغيرها من الآفاق ، فإنهم أنصح الناس وأشدهم سعياً في بقاء دولتك فإنما عزهم بعزك ، وتجنب دقيق أخلاق العراق ؛ فإنهم نشأوا على الخبث ومذموم الخَلاق ".

وتجسد الوصية مدى معرفة المنصور بأحوال الأقارب والأعوان والوزراء والمستشارين ما وصف به كل فئة من هذه الفئات وما وجه به ولي عهده إلى أنسب السبل في التعامل مع كل فئة منهم بناء على مدى صدقهم وإخلاصهم .

وبوصية أخرى يتوجه أبو جعفر المنصور إلى ولده المهدي مجسداً شعوره بهاجس الموت وإحساسه بقرب أجله ، ولكنه رغم " الخلل الفسيولوجي" الذي يصيب الإنسان عند دنو أجله إلا أنه لم يتوقف كثيراً عند حادثة وفاته

وفراقه ؛ بل تجاوز ذلك إلى التركيز على أسس استتباب الأمن وركائز استقرار نظام الحكم مستفيداً من تجربته القاسية في مواجهة الفتن والقلاقل في بداية عهده؛ فأراد أن يشد من عضد ولي عهده ويعده الإعداد الأمثل لتحمل المسئولية بكل اقتدار فقال :[1]

" يا أبا عبد الله [2] ، إني ولدت في ذي الحجة ، ووليت في ذي الحجة ، وهجس في نفسي أني أموت في ذي الحجة من هذه السنة ، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدي يجعل لك فيما كربك وحزنك مخرجاً ؛ ويرزقكم السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب[3] .

احفظ يا بني محمداًﷺ ، في أمته يحفظ الله عليك أمورك ، وإياك والدم الحرام فإنه حوب[4] عند الله عظيم ، وعار في الدنيا لازم مقيم .

الزم الحلال فإن فيه ثوابك في الآجل ، وصلاحك في العاجل ، وأقم الحدود، ولا تعتد فيها فتبور[5] ؛ فإن الله لو علم أن شيئاً أصلح لدينه وأزجر عن معاصيه من الحدود لأمر به في كتابه .

واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب[6] والعقاب على من سعى في الأرض فساداً مع ما ادخر له عنده

---

[1] تاريخ الطبري ج٦:٢٤٤-٢٤٥ تحقيق (محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، جمهرة خطب العرب ٣:٣٦-٣٧ .

[2] أبو عبد الله : هو المهدي واسمه محمد بن عبد الله بن المنصور بن محمد .

[3] إشارة إلى قوله تعالى :" ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب "(الطلاق،آية ٢).

[4] حوب : إثم ، وذنب عظيم .

[5] تبور : تهلك .

[6] تضعيف العذاب : مضاعفته وزيادته .

من العذاب العظيم فقال: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾[1].

فالسلطان يا بني حبل الله المتين ، وعروته الوثقى ، ودين الله القيم ، فاحفظه وحطه ، وحصنه وذبَّ عنه[2] ، وأوقع بالملحدين فيه ، واقمع المارقين منه ، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم والمثلات بهم[3] ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن ، واحكم بالعدل ولا تشطط ؛ فإن ذلك أقطع للشغب ، وأحسم للعدو، وأنجع في الدواء ، وعُفَّ في الفيء ، فليس بك حاجة مع ما أخلفه لك ، وافتتح عملك بصلة الرحم، بِرَّ القرابة ،وإياك والأثرة والتبذير لأموال الرعية ، واشحن الثغور[4] ، واضبط الأطراف وأَمِّن السُّبُل ،وخص الواسطة[5] ووسع المعاش ، وسكّن العامة ، وأدخل المرافق عليهم ، واصرف المكاره عنهم، وأعِدَّ الأموال واخزنها ، وإياك والتبذير ؛ فإن النوائب غير مأمونة ، والحوادث غير مضمونة ، وهي[6] من شيم الزمان، وأعد الرجال والكراع[7] والجند ما استطعت ، وإياك وتأخير عمل اليوم إلى غد ، فتتدارك عليك الأمور[8] وتضيع، جِدَّ في إحكام الأمور النازلات

---

[1] سورة المائدة ، الآية رقم ٣٣ .

[2] ذب عنه : دافع عنه .

[3] المثلات بهم : التنكيل بهم ، وإنزال العقوبة وبهم .

[4] اشحن الثغور : املأها بالجند والأسلحة والمؤن . والثغور : هي مدن الحدود .

[5] خص الواسطة : اعطها عناية خاصة ، والواسطة : المتوسطة .

[6] الضمير يعود على النوائب .

[7] الكراع : الخيل والبغال والحمير .

[8] تتدارك الأمور : تتوالى وتتراكم .

لأوقاتها أولا فأولا ، واجتهد وشمر فيها وأعدد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، باشر الأمور بنفسك ، ولا تضجر ، ولا تكسل ، ولا تفشل ، واستعمل حسن الظن بربك ، وأسئ الظن بعمالك وكُتّابك ، وخذ نفسك بالتيقظ ، وتفقد من يبيت على بابك ، وسَهِّل إذنك للناس ، وانظر في أمر النزاع إليك ، ووكل بهم عيناً غير نائمة ، ونفساً غير لاهية ، ولا تنم فإن أباك لم ينم منذ ولي الخلافة ، ولا دخل عينه غمض إلا قلبه مستيقظ .

هذه وصيتي إليك ، والله خليفتي عليك ".

وإن هذه الوصية تنسج مع سابقتيها صورة واضحة لما اتصف به أبو جعفر المنصور من اليقظة والحرص والحزم وحسن تدبير الأمور ؛ بل وشدة حرصه على المال وعدم ثقته بعماله وأعوانه ؛ وترسم شدة حرصه على إعداد ولي عهده الإعداد الأمثل لتحمل المسئولية بدءاً من تقوى الله ، إذ افتتح هذه الوصية بقوله :" فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدي ، يجعل لك فيما كربك وحزنك مخرجاً ، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب "، مع التركيز على التذكير بالعواقب الوخيمة للظلم مستشهدا بقوله تعالى ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيأيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ لينفر من الظلم والإيذاء ، وذلك إلى جانب الحث على العدل؛ لأنه أساس الملك ؛ فقد قال :" واحكم بالعدل ولا تشطط ".

ونظراً لأهمية " المال " وضرورته للسلطان فقد تكرر حث المنصور لولده على جمع المال وعدم إنفاقه إلا في محله ، وتحذيره من التبذير ، حتى أن المؤرخين قد وصفوا المنصور بالبخل لشدة حثه على حفظ المال والاقتصاد في إنفاقه ، كما في قوله في هذه الوصية :" وأعد الأموال واخزنها ، وإياك والتبذير، فإن النوائب غير مأمونة ، والحوادث غير مضمونة ،و هي من شيم الزمان ...".

وقد أكد في هذه الوصية على أهمية اليقظة والفطنة للسلطان لذا فقد خاطب ولده قائلاً :" وأعدد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون في النهار ، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، باشر الأمور بنفسك ، ولا تضجر ، ولا تكسل، ولا تفشل ". ثم يؤكد أهمية إبقاء أموره تحت السيطرة الكاملة ، وعدم اتكاله على الآخرين ، قائلاً :" وأسئ الظن بعمالك وكتابك ، وخذ نفسك بالتيقظ ، وتفقد من يبيت على بابك ..." ويرسم له أسلوب اليقظة المناسب بقوله :" ولا تنم فإن أباك لم ينم منذ ولي الخلافة ، ولا دخل عينيه غمض إلا قلبه مستيقظ ".

وإلى جانب هذه الوصايا فقد أوصى المنصور ولي عهده وصية عملية تدل على تقوى المنصور ومخافة ربه ، إذ تمثل ذلك في أن الأموال التي أخذها من الناس في حياته كان قد كتب عليها أسماء أصحابها ، وأودعها بيت المال ، وأوصى ولي عهده قائلاً :(1)

" يا بني ، إني أفردت كل شيء أخذته من الناس على وجه الجناية والمصادرة وكتبت عليها أسماء أصحابه ، فإذا وليت أنت فأعده على أربابه يدعو لك الناس ويحبوك " .

فهو في هذه الوصية يرغب في أن يستهل ولي عهده ولايته بهذا العمل

---

(1) الفخري في الآداب السلطانية ، لابن طباطبا ، ص159-160 .

الجليل الـذي يكسبه محبـة النـاس وكسـب رضـاهم .

وفي وصيـة موجـزة يكـرر لـولي عهـده أهميـة التقـوى والفطنـة والعـدل والإحسـان في الآداب السـلطانية اللازمـة للخليفـة إذ يخاطبـه قـائلاً :[1]

" يا بني ، لا تبرم أمراً حتى تفكر فيه فإن فكـرة العقـل مرآتـه تريـه حسـناته وسـيئاته ، واعلـم أن الخليفـة لا يصلحـه إلا التقـوى ، والسـلطان لا يصلحه ألا الطاعـة ، والرعيـة لا يصلحهـا إلا العـدل ، وأولى الناس بـالعفو أقدرهـم على العقوبـة ، وأنقـص النـاس عقـلاً مـن ظلـم مـن هـو دونـه ".

ومـن الملاحـظ أن أبـا جعفـر المنصـور قـد ركـز في وصايـاه لابنـه علـى الآداب السـلطانية لتكـون تلـك الوصايـا دسـتوراً يسـير عليـه ولي عهـده وينهـج طريقته ليتحقـق لـه النجـاح والفـلاح في خلافتـه .

ولكـن علـى الرغـم مـن أن " عهـد أردشـير " وهـو وصيـة جامعـة لمؤسـس دولـة جمـع تجاربـه الـتي عـانى كثيراً في اكتسـابها ، وقـد عدهـا الفـرس دسـتورهم في ذلـك العهـد وظلـوا يحتفظـون بـه ويعتمـدون عليـه لفـترة طويلـة ؛ علـى الرغـم مـن أن هـذا العهـد أو هـذه الوصيـة الفارسـة قـد ترجـت إلى العربيـة في عهـد هشـام بـن عبـد الملـك (الخليفـة الأمـوي) ، وعلـى الرغـم مـن أن وصايـا أرسـطو إلى الإسـكندر وتوجيهاتـه لـه نقلـت إلى العربيـة في هـذا العصـر ؛ إلا أن مضـامين وصايـا المنصـور لولي عهـده ، قـد بقيـت مضـامين عربيـة/ إسـلامية ترجمـت ثقافتـه وأدبـه وسـعة علمـه ، وأبـرزت إتقانـه اللغـوي ، وسـلامة عباراتـه ، وقدرتـه علـى صياغـة عباراتـه وأفكـاره

---

[1] نهاية الأرب ، للنويري ٦:٤١ ، دار الكتب المصرية ، القـاهرة ١٩٣٦م ، الـوزراء والكتـاب ، للجهشـياري ص١٢٦،تحقيق مصطفى السقا ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ١٩٣٨م . العقد الفريد ٢:٣٩ .

بلغة جزلة متينة ، ولم تشِ بأي تأثر بالآداب السلطانية الأجنبية التي نُقلت إلى العربية في هذا العصر أو العصر الذي سبقه .

وعندما نكث أهل خراسان بيعتهم ، ونقضوا موثقهم ، وطردوا العمال والتووا بما عليهم من الخراج في عهد الخليفة المهدي ؛ شاور المهدي أهل بيته في أمرهم ، وطال الحوار وتباينت الآراء ، وقرر المهدي أن يُسَيِّر لهم جيشاً بقيادة ولي عهده موسى وأوصاه بوصية جامعة جسدت رفقه بمدار سلطانه ، وبصره بأهل زمانه ، وإيثاره للحق ، وقيامه بالعدل ، وأخذه بالحزم :

إذ استهل وصيته بإيضاح دقة موقف " ولي العهد " من الرعية ، وأهمية مراعاة الدقة والاحتياط في تصرفاته ، وحثه على تقوى الله وطاعته فقال:[1]

أي بني ، إنك قد أصبحت لسمت عيون العامة نُصْباً[2] ، ولمثنى أعطاف الرعية غاية ، فحسنتك شاملة ، وإساءتك نامية ، وأمرك ظاهر .

فعليك بتقوى الله وطاعته ، فاحتمل سخط الناس فيهما ، ولا تطلب رضاهم بخلافهما ؛ فإن الله – عز وجل – كافيك من أسخطه عليك إيثارك رضاه ، وليس بكافيك من يسخطه عليك إيثارك رضا من سواه ".

ثم اعترف لأهل خراسان بفضلهم على بني العباس ودورهم في تأسيس الدولة وإرساء أركانها ، مما دعاه إلى التجاوز عن هفواتهم ، والرغبة في إقالة مسيئهم ،

---

[1] العقد الفريد ١:١٧٦-١٧٨ .

[2] السمت: الطريق . والنصب : الإمام والقدوة . وجعله نصب عينيه : أي أمام عينيه مقتدياً به .

وأهمية الإحسان إليهم استمالة لقلوبهم وتهدئة لنفوسهم فقال :

" واعلم أن الله – تعالى – في كل زمان عترة من رسله ، وبقايا من صفوة خلقه ، وخبايا لنصرة حقه ، يجدد حبل الاسلام بدعواهم ويشيد أركان الدين بنصرتهم، ويتخذهم لأولياء دينه أنصاراً ، وعلى إقامة عدله أعواناً ، ويسدون الخلل ، ويقيمون الميل ،ويدفعون عن الأرض الفساد؛ وإن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا ، وسيوف دعوتنا الذين نستدفع المكاره بطاعتهم ، ونصرف نزول العظائم بمناصحتهم ،ونداقع ريب الزمان بعزائمهم ، ونزاحم ركن الدهر ببصائرهم ؛ فهم عماد الأرض إذا أرجفت كنفها [1] ، وحتوف الأعداء إذا برزت صفحتها ، وحصون الرعية إذا تضايقت الحال بها ، قد مضت لهم وقائع صادقات ، ومواطن صالحات، أخمدت نيران الفتن ، وقصمت دواعي البدع ، وأذلت رقاب الجبارين ، ولم ينكفوا كذلك ما جروا مع ريح دولتنا ، وأقاموا في ظل دعوتنا ، واعتصموا بحبل طاعتنا التي أعز الله بها ذلتهم ، ورفع بها ضعتهم ، وجعلهم بها أرباباً في أقطار الأرضين ، وملوكاً على رقاب العالمين ، بعد لباس الذل ، وقناع الخوف وإطباق البلاء ، ومحالفة الأسى ، وجهد البأس والضر ".

وبعد أن أوضح الخليفة المهدي ما كان من حال أهل خراسان ، ووازن بين فضائلهم ومثالبهم ، وأهدأ النفوس تجاههم بحكمة ؛ وجه ولي عهده إلى كيفية معاملتهم ، ورسم له الأسلوب الأمثل في كسب مودتهم ، وإثابة محسنهم وإقالة مسيئهم فقال :

" فظاهر عليهم لباس كرامتك ، وأنزلهم في حدائق نعمتك ،

---

[1] الكنف : الجنبات .

ثم اعرف لهم حق طاعتهم ، ووسيلة دالتهم ، وماتة سابقتهم[1] ، وحرمة مناصحتهم ، بالإحسان إليهم، والتوسعة عليهم ، والإثابة لمحسنهم ، والإقالة لمسيئهم ".

ويتابع الخليفة الفطن رسم السياسة المثلى لولي عهده في كيفية معاملته لرعيته وسياسته لكل فئاتها فيقول :

" أي بني ، ثم عليك العامة ، فاستدع رضاها بالعدل عليها ، واستجلب مودتها بالإنصاف لها ، وتحسن بذلك لربك ، وتزين به في عين رعيتك ، وذلك أن تأمر قاضي كل بلد ، وخيار كل مصر ؛ أن يختاروا لأنفسهم رجلاً توليه أمرهم ، وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم ، فإن أحسن حُمدت ، وإن أساء عُذرت ، هؤلاء عمال القدر ، وولاة الحجج ، فلا يضيعن عليك ما في ذلك - إذا انتشر في الآفاق وسبق إلى الأسماع - من انعقاد ألسنة المرجفين ، وكبت قلوب الحاسدين ، إطفاء نيران الحروب ،وسلامة عواقب الأمور ، ولا ينفكن في ظل كرامتك نازلاً ، وبعرا حبلك متعلقاً رجلان : أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب ، وأعلام بيوتات الشرف ، له أدب فاضل ، وحلم راجح ، ودين صحيح ، والآخر له دين غير مغموز، وموضع غير مدخول ، بصير بتقليب الكلام ، وتصريف الرأي ،وأنحاء الأدب ، ووضع الكتب، عالم بحالات الحروب ، وتصاريف الخطوب ، يضع آدابا نافعة ،وآثاراً باقية ، من تجميل محاسنك ، وتحسين أمرك ، وتحلية ذكرك ، فتستشيره في حربك ، وتدخله في أمرك ، فرجل أصبته كذلك فهو يأوي إلى محلتي، ويرعى في خضرة جناني ، ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان ،

---

[1] الماتة : الصلة والسبب .

وخيار الأمصار أقواماً يكونون جيرانك وسُمارك ، وأهل مشاورتك فيما تورد ، وأصحاب مناظرتك فيما تصدر ".

واختتم الوالد الشفيق وصيته لولده بما ترجم عاطفة الأبوة وحنان المودة وأسلمه لحكم الله وتمنى له التوفيق والسداد فقال :

" فسر على بركة الله ، أصلحك الله من عونه وتوفيقه دليلاً يهدي إلى الصواب قلبك ، وهادياً يُنطق بالخير لسانك ".

ومن الوصايا الاجتماعية التي وجهها الآباء إلى أبنائهم في هذا العصر وصية عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - التي وجهها إلى ابنه محمد النفس الزكية أو ابنه إبراهيم (وكان محمد قد ثار على المنصور فقام المنصور بحبس عبد الله لأجل ابنيه محمد وإبراهيم عدة سنوات ، واحتدم الصراع بين المنصور وولدي عبد الله حتى قتلا في سنة ١٤٥هـ) [١] إذ قال في وصيته التي تبرز ما للابن من الحقوق : [٢]

" أي بني ، إني مؤد حق الله في تأديبك ، فأد إليَّ حق الله في الاستماع مني ، أي بني ، كف الأذى وارفض البذا [٣] واستعن على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك نفسك إلى الكلام ؛ فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب ، واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشًّا ؛ لأنه يرديك بمشورته ، واعلم أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائماً ،

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ١٦٣، ١٦٥.

(٢) زهر الآداب ، للحصري ١: ١٢٠، البيان والتبيين ، للجاحظ ١: ٢٧٠، ٢: ١١٨، جمهرة الخطب ٣: ٣٩.

(٣) البذا: البذاء ، وهو فحش الكلام وقبيحه.

وجدت هواك يقظان ؛ فإياك أن تستبد برأيك ؛ فإنه حينئذ هواك ، ولا تفعل فعلاً إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا ترديك ،وأن نتيجته لا تجني عليك ".

إذ ربطت هذه الوصية حق الولد في التأديب بحق الوالد في الإصغاء والاستماع في مفتحها ، ثم راح منشئها يوصي ولده بعدد من الوصايا التي تنفعه في تربيته ، وتكون أساساً في تهيئته وإعداده لتحمل المسئولية في هذه الحياة :

فقد أوصاه بكف الأذى ، وعدم قبوله فاحش الكلام وقبيحه ؛ لأن ذلك يزري بالمروءة ، وحثه على طول الفكر والتأمل ، وعدم التسرع حتى لا يكون رأيه فجًّا ولا متسرعاً ، وأكد على التزام الصمت في كثير من الحالات التي لا يكون للكلام فيها مدعاة ، وحذره من مشورة الجاهل الذي لا يفيد رأيه ، ومن مشورة العاقل الذي لا ينصح في رأيه لتحقيق حاجة في نفسه ، وما ذلك إلا رغبة في تنمية الوعي الفكري للموصَى وتدريبه على التفكير المنطقي وعدم التسرع أو الاحتكام إلى الآراء غير الناضجة سواء أكانت تلك الأحكام صادرة عن صاحبها أم عمن يسترشد بآرائهم من الأعوان والمقربين والمستشارين .

ولما كان عبد الله بن الحسن أحد خطباء بني هاشم في عصره ، وكانت له رواية عن أبيه وعن أمه فاطمة بنت الحسين [1] ، فقد ركز في هذه الوصية على الجوانب الاجتماعية التي حث ديننا الإسلامي الحنيف على الالتزام بها في تربية الأبناء ، وركز على القيم الاجتماعية التي حافظت عليها المجتمعات العربية منذ عصرها الجاهلي ، ولكنه أولى إعمال العقل أهمية كبرى لما في ذلك من أثر في الحماية من الوقوع في مزالق الخطر التي يؤدي إليها التسرع والعجلة .

---

[1] تاريخ بغداد ٩: ٤٣٢.

وقد فلسفت هذه الوصية العلاقة بين العقل وحسن الصياغة في التعبير وربطت بين العجلة في إبداء الرأي والوقوع في المزالق والمخاطر بما لا يدع مجالاً للشك في أهمية التأني وإعمال الفكر جاعلة من ذلك الحد الفاصل لإدراك المنى وتحقيق الرغبات .

وتضيف هذه الوصية بعداً فلسفياً من خلال تحديد العلاقة بين الهوى والرأي ؛ فالهوى لهشاشته الفكرية سرعان ما يطفو على السطح لأنه صدى لأهواء النفس ، والرأي لرسوخه الفكري يرسو في الأعماق [1] ، مما يؤكد أن الحياة الثقافية في هذا العصر قد خطت خطوات واسعة في إدارك حقائق الحياة وخفاياها نتيجة تمازج الثقافات المتعددة .

ومن المؤكد أن هذه الوصية قد جاءت في وقت مبكر من حياة منشئها وفي مرحلة سابقة لمرحلة الصراع والمعاناة التي قاسى منها عبد الله بن الحسن وابناه في صراعهم ضد العباسيين ، لعدم ظهور أي أثر لذلك الصراع في وصيته .

ومن الوصايا التي فلسفت الرؤية القيادية مما يجسد نضج الفكر العربي ونزوعه نحو المنطق والاحتجاج في العصر العباسي الذي تمازجت فيه الثقافات وتلاقحت فيه الأفكار في ظل الدولة الإسلامية ، وصية عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس (وكان أفصح بني العباس في عصره ، وقد تعرض للسجن في عصر الرشيد، وأخرجه الأمين من سجنه ، وتوفي سنة ١٩٧هـ في أيام الأمين)[2]

---

(١) أدب البنوة ، ص ١٥٦.

(٢) مروج الذهب ، للمسعودي ٣: ٤٠٢، زهر الآداب ، للحصري ص ٧١٤.

إذ أوصى ولده حينما كان أمير سرية في بلاد الروم قائلاً :[1]

" أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيِّس الذي إن وجد ربحاً تجر وإلا احتفظ برأس المال . ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة ، وكن من احتيالك على عدوك أشد خوفاً من احتيال عدوك عليك " .

إذ يوضح عبد الملك بن صاح لولده أن القيادة العسكرية مسئولية عظيمة ، ينبغي على القائد فيها أن يوازن بين الربح والخسارة ، مثله في ذلك مثل التاجر الذي إن تأكد من ربحه غامر وتاجر ، وإلا فإن الحفاظ على رأس المال أولى واغنى.

وهو بذلك يخضع عمليتا النجاح والفشل أو الربح والخسارة أو النصر والخذلان والهزيمة لمقايسة عقلية تستدعي من " القائد " التحلي بالفطنة والكياسة ليتحقق له ما يريد أو يتمنى لنفسه ومن معه من الجنود والأعوان ، ومثله في ذلك مثل التاجر الذي يسعى للربح من خلال إحسان التدبير والتفكير وإحكام كل التدابير اللازمة للربح أو الفوز والنجاح .

وهو بذلك - أيضاً- يخضع حسن القيادة لمقايسة عقلية وموازنة معنوية تجسد ما صادفناه في الوصية السابقة من نضج العقل العربي ورقي الفكر العربي في هذا العصر ونزعه نحو المنطق والاحتجاج .

ومن أبرز وصايا بني العباس في هذا العصر -أيضاً - تطالعنا وصية أخرى لعبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس التي شملت كثيراً من النصائح

---

[1] البيان والتبيين ، للجاحظ ٢: ٧٤-٧٥، عيون الأخبار ، لابن قتيبة ١: ١٧٤، آداب الملوك ، للثعالبي ١٨٠، ونسبت الوصية في العقد الفريد لعبد الملك بن مروان ١: ١١٨-١١٩.

الأبوية الجليلة ؛ إذ خاطب ولده قائلاً :[1]

" يا بني ، احلم ؛ فإن من حلم ساد ، ومن تفهم ازداد ، والق أهل الخير فإن لقاءهم عمارة للقلوب ، ولا تجمح بك مطية اللجاج ، ومنك من أعتبك [2] . والصاحب مناسب، والصبر على المكروه يعصم القلب ، المزاح يورث الضغائن ، وحسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الإسراف ، والاقتصاد يثمر القليل، والإسراف يتبر[3]الكثير، ونعم الحظ القناعة ، وشر ما صحب المرء الحسد ، وما كل عورة تصاب ، وربما أبصر العمى (الأعمى) رشده ، وأخطأ البصير قصده ، واليأس خير من الطلب إلى الناس ، والعفة مع الحرمة خير من الغنى مع الفجور ، ارفق في الطلب ، وأجمل في المكسب ، فإنه رب طلب قد جَرَّ إلى حرب [4] ، ليس كل طالب بمنجح ، ولا كل مُلِحّ بمحتاج ، والمغبون من غبن نصيبه من الله ، عاتب من رجوت عتباه ، وفاكه[5] من أمنت بلواه ، ولا تكن مضاحكاً من غير عجب ، ولا مَشّاء إلى غير أرب ، من نأى عن الحق أضاق مذهبه ، ومن اقتصر على حاله كان أنعم لباله ، لا يكبرن عليك ظلم من ظلمك ؛ فإنه إنما سعى في مضرته ونفعك ، وعَوِّد نفسك السماح ، وَتَخَيّر لها من كل خلق أحسنه، فإن الخير عادة ، والشر لجاجة ، والصدود آية المقت ، والتعلل آية البخل ، ومن الفقه كتمان السر ، ولقاح المعرفة دراسة العلم ، وطول التجارب زيادة في

---

[1] البيان والتبيين ، للجاحظ ٣:٣٠٦-٣٠٧ ، جمهرة خطب العرب ، لأحمد زكي صفوت ٣:٩٧-٩٨ ، رسائل الآباء إلى الأولاد ، ترجمة لطفي الخوري وزميله ص٢٩-٣١ مكتبة النهضة ، بغداد ١٩٦٢.

[2] اعتبك : ترك ما كان يجد عليك من أجله ورجع إلى ما يرضيك بعد إسخاطه لك .

[3] يتبر : يهلك .

[4] الحرب : الهلاك . والحرب(بالتحريك):أن يسلب الرجل ماله .

[5] فاكه :داعب و مازح .

العقـل ، والقناعـة راحـة الأبـدان ، والشـرف التقـوى ، والبلاغـة المعرفـة رتـق الكـلام وفتقـه ، بـالعقل تسـتخرج الحكمـة ، وبـالحلم يسـتخرج غـور العقـل، ومـن شمـر في الأمـور ركـب البحـور ، شـر القـول مـا نقـص بعضـه بعضـاً ، ومـن سـعى بالنميمـة حقـره البعيـد ومقتـه القريـب ، ومـن أطـال النظـر بـإرادة تامـة أدرك الغايـة ، ومـن توانـى في نفسـه ضـاع ، مـن أسـرف في الأمـور انتشـرت عليـه ، ومـن اقتصـد اجتمعـت لـه ، واللجاجـة تـورث الضيـاع للأمـور ، غـب الأدب خـير مـن ابتدائـه ، مبـادرة الفهـم تـورث النسـيان ، سـوء الاسـتماع يعقـب العمـى ، لا تُحَـدِّث مَـنْ لا يُقبـل بوجهـه عليـك ، ولا تُنصـت لمـن ينمـي بحديثـه إليـك ، البَـلادة لـلرجل هُجنـة[1]، مـا قـل مـالك إلا اسـتأثر، ومـا قـل عـاجز إلا تـأخر ، الإحجـام عـن الأمـور يـورث العجـز ، والإقـدام عليهـا يـورث اجتـلاب الحـظ ، سـوء الطعمـة[2] يفسـد العـرض ويخلـق الوجـه، ويمحـق الدِّيـن ، الهيبـة قريـن الحرمـان ، والجسـارة قريـن الظفـر، ومنـك مـن أنصفـك[3] ، وأخـوك مـن عـاتبك ، وشـريكك مـن أوفـى لـك[4] ، وصفيـك مـن آثـرك، أعـدى الاعتـداء العقـوق ، اتبـاع الشـهوة يـورث الندامـة ، وفـوت الفرصـة يـورث الحسـرة ، جميـع أركـان الأدب التـأني لـلرفق ، أكـرم نفسـك مـن كـل دنيـه وإن سـاقتك إلى الرغـائب[5] فإنك لـن تجـد بمـا تبـذل مـن دينـك ونفسـك عوضـا، لا تسـاعد النسـاء فيمللنـك ، واسـتبقِ مـن نفسـك بقيـة ، فـإنهن أن يرينـك ذا اقتـدار خـير

---

[1] الهجنة : العيب.

[2] الطعمة (بالضم):وجه الكسب.

[3] مثل وسبق نظيره في أول الوصية في قوله :" ومنك من أعتبك ".

[4] أوفى لك : أعطاك حقك كاملاً ، أو عدل لك .

[5] الرغائب : جمع رغيبة ، أي الرغبات .

من أن يطلعن منك على انكسار ، لا تُمَلِّك المرآة الشفاعة لغيرها فيميل من شفعت له عليك معها .

أي بني ، إني قد اخترت لك الوصية ، ومحضتك النصيحة ، وأديت الحق إلى الله في تأديبك ؛ فلا تُغْفِلَنَّ الأخذ بأحسنها ، والعمل بها، والله موفقك".

ومن الملاحظ أنه في هذه الوصية يعيدنا إلى العصر الجاهلي من حيث جزالة الألفاظ، وقصر الجمل ، وتوالي المعاني ، واشتمالها على عدد من الحكم والأمثال ، والانتقال من معنى إلى معنى آخر دون تمهيد ، ولا يميز هذه الوصية عن وصايا العصر الجاهلي سوى سهولة الألفاظ ووضوح العبارة وسلاسة الأسلوب .

والفرق واضح في أسلوب هذه الوصية والوصية السابقة التي وجهها لابنه عندما كان أميراً على سرية في بلاد الروم مما يؤكد اختلاف الدوافع واختلاف الظروف بين الوصيتين:

ففي الوصية الأولى :

خاطب ابنه " القائد " فأكد له أن القيادة مسئولية جسيمة يتحمل فيها المرء مسئولية نفسه ومسئولية من يقودهم ؛ لذا فقد تمركزت وصية على هذا الجانب :

أما في الوصية الثانية :

فقد ركز على بناء شخصية " الابن " اجتماعياً من خلال شعوره بالمسئولية تجاه ولده ؛ حيث رأيناه ينثر عصارة فكره ، وخلاصة تجربته ، وحصيلة ثقافته الاجتماعية بين يدي ولده لتكون دستوراً يسير عليه ، ومنهجاً ينتهجه في حياته وفي أثناء تعامله مع الآخرين .

وهـذا مما يؤكـد الصـورة الـتي رسمهـا الخليفـة المـأمون لشـخصية عبـد الملـك ابن صالح إذ وجه إليـه رجـلاً مـن دعاتـه وأمره بلقائـه وقـال لـه :[1]

" إنــك ستلقى مــن عبــد الملــك رجــلاً بعيــد الغــور ، ودقيــق الفطنـة ، وسـديد الحكـم، رقيـق اللسـان ، حسـن التـأني ، فـاحذره ؛فإنـه يكـثر المباحثـة ويحسـن المسـاءلة ، ويحتـال لاسـتخراج مـا في ضمـيرك ، ويعتـبر عليـك بـاختلاف ألفـاظك ، فـلا تُـرِهِ الاسترسـال فيتهمـك ، ولا الاحـتراس منه فيحـذرك ، وعليـك باسـتعمال الغفلـة إلى انتهـاز الفرصـة ؛ فباحثـه مباحثـة الآمـن ، واحـترس منـه احـتراس الخـائف ، واعلـم أن البحـث الخفـي يجلـو الأمـر ، والتعبير يكشـف ما في الضمـير ، واحـذر مَـنْ تعـرف ، ولا تصحـب مَنْ لا تعـرف".

ومـن وصايـا عليـة القـوم في العصـر العباسـي تطالعنـا وصايـا يحيـى بـن خـالد الـبرمكي الـذي كـان مـن أبـرز رجـال الدولـة وأكـثرهم قربـاً لخلفـائهم في بعـض مراحـل الدولـة واسـتقرارها، وقـد اسـتطاع هـو وأبنـاؤه أن يصلـوا إلى أعلـى المراتـب وأن تكـون لهـم اليـد الطـولى في تدبـير أمـور الدولـة وتسـيير شـئونها ؛ حتـى كـانت نكبتهـم علـى يـد هـارون الرشـيد ، فقـد تنـاقلت كتـب الـتراث عـددا مـن وصايـاه لأبنائـه :

ومـن ذلـك وصيتـه لابنـه الفضـل الـتي أراد فيهـا أن يعـده إعـداد مناسـباً لنيـل ثقـة الخليفـة ، وبنـاء شـخصيته بنـاء اجتماعيـاً ووظيفيـاً ليثبـت فضلـه ويستمـر نفـوذه وسـلطانه إذ انشـغل الفضـل بـالصيد بعـد أن ولاه الرشـيد خراسـان ؛ فأوصـاه والـده بأن يغير مـن سـلوكه لتبقـى صورتـه مشـرقة في نظـر الرشـيد ؛إذ قـال :[2]

---

[1] تهذيب كتاب لطف التدبير في سياسات الملوك ، للخطيب الإسكافي ، ص٢٥٢ .

[2] وفيات الإعيان،لابن خلكان ٢٨:٤،مروج الذهب ، للمسعودي ٤٥١:٣ معجم الأدباء لياقوت الحموي ٨:٢٠.

" حفظك الله يا بني وأمتع بك ، فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر في أمور الرعية ما أنكره ، فعاود ما هو أزين بك ؛ فإنه من عاد إلى ما يزينه أو يشينه لم يعرفه أهل دهره إلا به ، والسلام .

وكتب في أسفل هذه وصية هذه الأبيات :

انصب نهاراً في طلاب العلا ... واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى إذا أتى الليل مقبلاً ... واستترت فيه وجوه العيوب
فكابد الليل بما تشتهي ... فإنما الليل نهار الأريب
كم من فتى تحسبه ناسكاً ... يستقبل الليل بأمر عجيب
أرخى عليه الليل أستاره ... فبات في لهو وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة ... يسعى بها كل عدو رقيب

وقد حملت الأبيات الشعرية مقصود يحيى البرمكي الذي أوضحه في "وصيته " من حيث حثه على ستر عيوبه عن أعين الرقباء ،وكأنه يريد أن يقول له:" إذا بليتم فاستتروا " ولكن الأبيات الشعرية جاءت أكثر وضوحاً وأكثر دقة وأجمل أسلوبا وأبلغ في تأثيرها من كلام يحيى .

وما ذلك التوجيه إلا لأن الحكماء يرون أن " الصيد للملوك كالخمر التي فيها إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمها أكبر من نفعها ، كذلك الصيد فيه خطر عظيم ومرافق للملوك وخطره أعظم من الاستمتاع به ؛ فمن أحسن ما فيه أن تحته طلاب لذة ووطر وخاتمته حصول مغنم وظفر وهو من عادات الملوك وآدابهم إذا وجدوا في زمانهم فضلاً عن مهماتهم ، وفيه رياضة لأبدانهم وغلمانهم ودوابهم وتدرج إلى مباشرة الحروب وأعمال السيوف إذ هو مثال يحتدى في مطاعنة الفرسان ، ومنهج يقتفى في مطاردة الأقران ، ولكن لا ينبغي

للملك أن يدمنه ويولع به ؛ فإن نفس الملك أعز الأنفس وأكرمها وأولاها بالصيانة والحياطة، وليس الخطار (المخاطرة) بها من عزمات الأمور وصوب الآراء "[1] وكان يقال: أربع إذا غلبن على الملك أهلكنه : حب النساء والصيد والخمر وإراقة الدماء .[2]

وقد قال الأصمعي إذ سمع يحيى البرمكي يقول :

" الشريف إذا نُقِّرَ [3] تواضع ، والوضيع إذا نُقِّر تكبر " فقال الأصمعي :" لا أراه آخذاً إلا من كيس غيره ".

وكأنه يشك في قدراته على الإبداع أو التعبير عما تكنه نفسه ، و لكن هذه العبارات التي بين أيدينا وغيرها مما يدل على حنكته وقدرته على الإفصاح عما في نفسه بعبارة ناصعة ولفظ رائق .

ولما كان العلم السلاح الأقوى والوسيلة العظمى التي تكتمل بها الشخصية وتتأهل لأرفع المناصب وأعلى المراتب ؛ فقد أوصى يحيى بن خالد أحد أبنائه قائلاً :[4]

" عليك بكل نوع من أنواع العلم ، فخذ منه ؛ فإن المرء عدو ما جهل ، وأنا أكره أن تكون عدو شيء من العلم ، ثم أنشد :

تفنن وخذ من كل علم فإنما يفوق امرؤ في كل فن له علم

فأنت عدو للذي أنت جاهل به ولعلم أنت تتقنه سلم

وقد عبر بهذه الأبيات عن مكنون نفسه أبلغ تعبير ؛ حرصاً منه على

---

(1) آداب الملوك ، للثعالبي ص١٠٩ .

(2) محاضرات الأدباء ،للراغب الأصفهاني ص٢٢ .

(3) نقر : نودي باسمه من بين الأسماء .

(4) أدب الدنيا والدين ، للماوردي ٤:٣١ .

تحقيق تأثيرها في بنيه بشكل أوضح .وقد أوصى ابنه بالحرص على العلوم والآداب قائلاً :[1]

" انتق من كل علم طرفاً ، فمن جهل شيئاً عاداه ، وأكره أن تكون عدوا لكل شيء من الآداب "

وأوصى أبناءه بأهمية الاختيار في الأدب والتفريق بين الغث والسمين عند السماع والكتابة والحديث بقوله:[2]

" اكتبوا أحسن ما تسمعون ، واحفظوا ما تكتبون ، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون "

ورغبة في تحقيق المكانة المرموقة واستمرارها في أبنائه لدى السلطة القائمة فقد رسم يحيى بن خالد البرمكي لأبنائه سياسة عملية ، مترجماً خبرته وحنكته فيما تتطلبه إدارة السلطة من مصادر بشرية مؤهلة ؛إذ خاطب أبناءه قائلاً :[3]

" لا بد لكم من كتاب وعمال وأعوان ؛ فاستعينوا بالأشراف ، وإياكم وسفلة الناس ؛ فإن النعمة على الأشراف أبقى ، وهي بهم أحسن ، والمعروف عندهم أشهر والشكر منهم أكثر " .

وفي وصية مشابهة خاطب أبناءه قائلاً :[4]

" إنه لا بد من ولاة وأعوان فاستعملوا أهل الشرف وذوي البيوتات، فإن النعمة بهم أليق ، وهم بالجميل أعرف ، والناس إليهم أميل ".

---

(1) محاضرات الأدباء، للراغب الأصفهاني ، ص ٢٢ .

(2) شذرات الذهب ، لابن العماد الحنبلي ٣٢٧: معجم الأدباء ، لياقوت الحموي ٢٠:٩.

(3) الوزراء والكتاب ، للجهشياري ،ص١٧٩ .

(4) آداب الملوك ، للثعالبي ، ص١٣٥ .

إذ أكد في وصيته على أن يكون اختيار العناصر البشرية المساعدة قائماً على الأصل العريق ؛ لأن شرف الأصل ، وعراقة المحتد أدعى للإخلاص والاستقامة . ومما يؤكد ذلك ما حكي عن المعتصم أنه قال يوماً لإسحاق المصعبي: [1]

" إن أخي المأمون اصطنع نفراً فأنجبوا ، واصطنعت أنا أمثالهم فلم ينجبوا ؛ اصطنع (أي المأمون) طاهر بن الحسين وابنه عبد الله وإسحق بن إبراهيم وآل سهل وقد رأيت كيف هم . واصطنعت أنا الأفشين وأشناس وإيتاخ ووصيفا فلم يكونوا شيئاً . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه نظر إلى الأصول ؛ فاستعمل فروعها فأنجبت ، واستعملت أنت فروعاً لا أصول لها فلم تنجب . فقال : صدقت ، ولمقاساة ما مر بي طول هذه المدة أهون عليَّ من هذا الجواب . "

ومن وصايا يحيى بن خالد الاجتماعية لأبنائه التي جسدت حرصه على تربيتهم التربية الاجتماعية المناسبة لمكانتهم ومنزلة أسرتهم ، أنه قال لابنه جعفر حين اختط داره ليبنيها : [2]

" هي قميصك فإن شئت فوسعه ، وإن شئت فضيقه ".

وما ذلك إلا ليحثه على توسيع داره لأن سعة الدار من دلائل الجاه والغنى . وهي من المؤهلات الاجتماعية الهامة لذوي الجاه والسلطان . إذ عد المؤرخون من رسوم الملوك على وجه الزمان بناء البلدان ، وتفخيم البنيان ،

---

[1] آداب الملوك ، لأبي منصور الثعالبي ،ص١٣٥ .

[2] عيون الأخبار ، لابن قتيبة ١: ٣٦٠ .

وتشييد الحصون المنيعة ، والقصور الرفيعة وإيثار حسن الآثار .[1]

ومن وصاياه التي نقل فيها من وصايا الفرس إلى المجتمع العربي في العصر العباسي ما ذكره الجهشياري رواية عن الواقدي إذ قال :[2]

" دخل الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي على أبيه يتبختر في مشيته، وأنا عنده ، فكره ذلك منه .

فقال لي يحيى : يا أبا عبد الله ، أتدري ما بقى الحكيم في طرسه ؟[3]

قلت : لا ، قال بقى الحكيم في طرسه : أن البخل والجهل مع التواضع أزين بالرجل من الكبر مع العلم والسخاء ؛ فيا لها حسنة غطت على عيبين عظيمين . ويا لها سيئة غطت على حسنتين عظيمتين ، ثم أومأ إليه بالجلوس " .

فقد ترجمت هذه " الوصية " التي حرصت على التلميح دون التصريح حكمة الفرس وحرص يحيى على توجيه أبنائه بأساليب مختلفة حسب ما يقتضيه المقام – كما قد رأينا في وصاياه المختلفة .

وكما في وصيته التالية التي اعتمدت على الأسلوب التقريري المباشر ؛ إذ أوصى ابنه جعفراً قائلاً :[4]

" لا ترد على أحد جواباً حتى تفهم سؤاله ، فإن ذلك يصرفك إلى غيره ، ويؤكد الجهل عليك ، ولكن أفهم عنه ، فإذا فهمته فأجبه ، ولا تعجل بالجواب قبل الاستفهام ، ولا تستح إذا لم تفهم، فإن الجواب قبل الفهم حمق ،

---

[1] نفسه ص١١٣، اللطائف والظرائف ، للمقدسي ص٥٦، بغداد ، طبعة حجرية ١٩٨٤م .

[2] الوزراء والكتاب ، للجهشياري ص١٨٩ .

[3] الطرس : الصحيفة أو الكتاب الذي محي ثم كتب .

[4] البيان والتبيين ، للجاحظ ٣:٢٣٢ .

وإذا جهلت فاسأل فيبدو لك ، واستفهامك أجمل بك ، وخير من السكوت على العي " .

وأجْمِل بهذا الأسلوب السهل ، الواضح العبارة ، الجزل الألفاظ ، الذي يذكر المعنى ويؤكده بالدليل الواضح ، كما في قوله :" لا ترد على أحد جواباً حتى تفهم سؤاله ، فإن ذلك يصرفك عن جواب كلامه إلى غيره " وقوله: " ولا تستح أن تفهم إذا لم تفهم ؛ فإن الجواب قبل الفهم حمق " ، مما يؤكد قدرة المبدع على توضيح الفكرة ورغبته في إيصالها واضحة جلية مؤكدة بالدليل القاطع.

ومن وصايا الخلفاء التي حفظها المؤرخون في العصر العباسي وصايا الخليفة المأمون لأبنائه ؛ إذ جمعهم وأوصاهم بهذه الوصية الاجتماعية الجامعة فقال :[1]

" يا بني ، ليعلم الكبير منكم أنه إنما عظم قدره بصغار عظموه ، وقويت قوته بضعاف أطاعوه ، وشرفت همته بعوام اتضعوا له ، فلا يَدْعُوَنَّهُ تفخيم المفخم منهم إياه إلى تصغيره ، وتعزيزه أمره إلى تذليله ، ولا يستأثرون بفائدة ورفق [2] دونه ، ولا يولعنَّ بتسميته عبداً كما سَّمت الأعاجم ، بل وليًّا وأخا ؛ فإن الشيء الذي قوامه من أجزاء خسيسة ومعان مذمومة فهو أيضاً خسيس مذموم ، وكل امرئ من أولئك جزء من عدة أجزائه ، وعماد

---

[1] تهذيب كتاب لطف التدبير في سياسات الملوك ، لمحمد بن عبد الله الإسكافي ، ص٢٧-٢٨ ، المكتبة المكية ط٣مكة المكرمة ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، وخلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك ، لعبد الرحمن الإربلي ص١٣٩-١٤٠ مطبعة القديس جاورجيوس للروم لأرثوذوكس ١٨٨٥م ، والنهج المسلوك في سياسة الملوك ، للشيزري ، ص٧٢، مؤسسة بحسون ، بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

[2] الرفق : ما يستعان به من مال أو متاع ، و جمعهما مرافق .

من أعمدة أمره ، فإذا انحلت أجزاؤه وزالت دعائمه مال العماد وتهدم الكل، وقد قيل إن من ملك أحراراً طائعين كان أشرف ممن ملك عبيداً مستكرهين .

واعلموا أن قلوب الرعية خزائن ملكها ، فما أودعها فليعلم أنه فيها .

يا بني ، ارجعوا فيما اشتبه عليكم من التدبير إلى رأي الحَزَمَةِ المجربين والبررة المشفقين ؛ فإنهم مرائيكم [1] يُرونكم ما لا ترون ، ويكشفون لكم أغطية ما لا تعلمون؛ فقد صحبوا لكم الدهور ، ومارسوا الدول [2] وكفوكم التجارب والعبر ، وعرفوا حوادث الأزمنة وأعراضها [3] ، وإقبالها وإدبارها ، والعلل التي يسكن بها الهائج المضطرب ، ويهتاج لها الساكن المطمئن ، فرَوِّضوا أنفسكم لهم ، وتجرَّعوا مرارتهم ، فقد قيل :إن من جرَّعك مُرًّا أشفق عليك ممن أوجرك[4] حلواً لتسقم ، ومن خوَّفك لتأمن أبرُّ ممن أمنّك حتى تخاف .

وقد قيل : إن نصف عقلك مع المستشار ، واعتبروا في علو الهمة بمن ترون من وزرائي وخاصتي ؛ إنهم – والله – ما بلغوا مراتبهم عندي إلا بأنفسهم ، إنه من تبع منكم صغار الأمور تبعه التصغير والتحقير ، وكان قليل ما يفعل [5] في كبارها أكثر من كثير[6] ما يستدرك من الصغار؛ فترفعوا عن

---

[1] مرائي : جمع مرآة ، وتجمع على مرايا كذلك .
[2] مارس الأمر : عالجه ، ومارسوا الدول : تقلبوا في عدد منها وخبروها .
[3] الأعراض : جمع عرض : وهو الآفة التي تعرض في الشيء.
[4] أوجرك : جعله في فمك ، أي أطعمك . وقد وردت في بعض النسخ " أطعمك " وفي بعضها " سقاك " .
[5] في بعض النسخ " ما يعقل " .
[6] في بعض النسخ " أكثر من كبير " .

دناءة الهمة ، ، وتفرغوا لجلائل التدبير ، واستكفوا [1] الثقات فادنوها ، وكونوا مثل كرام السباع ، لا تشتغل بغوامض الوحش [2] والطير وحواشيها بل بجليلها وكبارها ، واعلموا أن أقدامكم إن لم تتقدم بكم فأيديكم لا تمدُّ بكم ، ولا يغني الولي [3] عنكم شيئاً ما لم تعطوه حقه من الصيانة والمادة " .

وأضافت بعض المراجع على هذه الوصية قوله:[4]

" الإخوان ثلاث طبقات : أخ كالغذاء الذي يُحتاج إليه في كل يوم وفي كل وقت ، وهو الأخ العاقل الأديب ، وأخ كالدواء وتحتاج إليه عند الداء وهو الأخ الأريب ، وأخ كالداء الذي لا تحتاج إليه وهو الأحمق "

وكان يقول لأبنائه :[5]

" أعظم الناس سلطاناً من تسلط على نفسه فوليها بحكم التدبير ، وملك هواه فحمله على محاسن الأمور ، وأُشرب معرفة الحق فانقاد للواجب فوقف عند الشبهة حتى استوضح مقر الصواب فتوخاه ، ورُزق عظيم الصبر فهان عليه هجوم النوائب تأميلاً لما بعدها من عواقب الرغائب ، وأُعطي فضيلة الصمت فحبس غريب لسانه ، وما ينبغي للملوك الاحتياط في اختيار الكفاة من الأعوان ، وإنزالهم منازلهم والانتصار بهم على ما يطيقونه ، ثم أنشد :

---

[1] استكفوا :طلبوا إليهم أن يكفوهم أمورهم .

[2] غوامض الوحش : مفردها غامض ، وهو الخامل والذليل منها .

[3] الولي : مالك الأمر والقائم به .

[4] خلاصة الذهب المسبوك ، ص١٤٠ .

[5] نفسه .

من كان راعيه ذئباً في حديقته فهو الذي نفسه في أمره ظلما

يرجو كفايته والغدر عادته ومن ولايته يستشعر الندما

ففي هذه الوصية أو الوصايا التي خاطب بها المأمون أبناءه حرص على بناء شخصياتهم ، وتربيتهم تربية اجتماعية أساسها العطف والمحبة والإخاء فيما بينهم وكأنه لا يريد أن يتكرر فيما بينهم ما كان بينه وبين أخيه الأمين .

وفي مجال إعدادهم لتحمل مسئولية الحكم والسياسة حثهم على الاستعانة بأهل الرأي والخبرة والمشورة ليفيدوا من خبرتهم وتجربتهم التي اكتسبوها على مر الأيام والسنين .

وقد اتخذ من الحكم والقصص وضرب الأمثال متكأ واتخذها قاعدة الانطلاق للتأثير في أفئدة المتلقين ، وحافزاً للاتعاظ بمن سبق من الأجيال ، وذلك ما كان سائداً في هذا العصر من التركيز على الأدلة المنطقية وفلسفة الأمور وعدم عرضها بشكل مباشر كما كان العرب في سابق عصورهم .

ومن المشهور عن المأمون أنه كان محباً للعلم والعلماء ، وأنه من أشهر خلفاء بني العباس علماً وأدباً ؛ لذا فقد أسدى نصيحة لأبنائه عندما سمع أحدهم يلحن في قوله ، فخاطبهم قائلاً :[1]

" ما على أحدكم أن يتعلم العربية ، يصلح بها لسانه ، ويفوق أقرانه، ويقيم أوده، ويزين مشهده ، ويفلل حجج خصمه بمسكتات حكمه ؟ أيود أحدكم أن يكون كعبده أو أمته ، فلا يزال الدهر أسير كلمته؟؟.

فقد أبرزت هذه الوصية أهمية إقامة اللسان في الإفصاح والبيان، لما في إقامة اللسان من مصالح ذاتية تتحقق للناس بعامة وللسلطان أو الوالي بخاصة ؛

---

[1] غرر الخصائص الواضحة ، للوطواط ، ص ١٧٢، دار صعب ، بيروت (د.ت).

لأن في ذلك تميزه على أقرانه وأتباعه وأعوانه.

ومن أبرز الوصايا الأبوية التي تطالعنا في هذا العصر وصية طاهر بن الحسين (أحد قادة المأمون ، وكان نائب العراق وخراسان بكاملها وهو الذي انتزع بغداد والعراق من يد الأمين وقتله وأتى برأسه إلى أخيه سنة ١٩٨هـ، وكان يقال له " ذو اليمينين "، واختلف في معنى هذا اللقب ؛ فقيل لأنه كان يحسن استعمال يديه ، وقيل لأنه ضرب رجلاً بشماله فقده نصفين ، وقيل لأنه ولي العراق وخراسان ، وقد كان كريماً وبليغاً ، ومات سنة ٢٠٧هـ فولّى المأمون ابنه عبد الله مكانه وأضاف إليه ولاية الجزيرة والشام)[١].

ولما ولّى المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين ديار ربيعة أرسل طاهر له وصية لم يهمل فيها أية جزئية من أمور السياسة والحكم ، وقد شاعت بين الناس فكتبوها وتدارسوها، ولما سمع بها المأمون وقرأها قال : ما أبقى طاهر شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأي والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيعة وطاعة الخلفاء ، وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به . وأمر المأمون أن تكتب منها نسخ وترسل إلى جميع العمال في نواحي الأعمال . [٢]

وقد قال ابن خلدون عن هذه الوصية التي تناولت السياسة وأركان الحكم إنها " **من أحسن ما كتب في ذلك وأوعبه ، وأنه عهد إليه فيه (في الكتاب) ووصاه فيه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية**

---

[١] البداية والنهاية ، لابن كثير ، ١٠:٢٦٠، تاريخ الطبري ٥: ١٥٦-١٦١ دار الكتب العلمية ، بيروت . جمهرة خطب العرب ٣: ١٣٤-١٤٤.

[٢] العصر العباسي الأول ، لشوقي ضيف ، ص ٤٨٧.

والخلقية ، والسياسات الشرعية والملوكية ، وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ؛ بما لا يستغني عنه ملك ، ولا سوقة "[1]

ولم يقتصر الاهتمام بوصية طاهر بن الحسين لولده على عصرها فقط بل امتد حتى عصرنا الحاضر ؛ إذ عدها خير الدين الزركلي حصيلة من حصائل الفكر الإنساني لصدورها عن (أحد) كبار قواد ووزراء العصر العباسي أدباً وحكمة وشجاعة[2] ، واعتنت بها مجلة السنة التي يصدرها مركز الدراسات الإسلامية ببريطانيا في عددها التاسع والعشرين سنة ١٤١٣هـ ، إذ نشرتها تحت عنوان :" وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله في أخلاق الملوك وسياسة الدول، وحقوق الرعية ".[3]

وقد ركزت هذه الوصية على تربية " الابن الحاكم " من جانبيه : الجانب الذاتي وعلاقته مع رعيته ، والجانب العام ، من حيث رسم سياسة الحكم ونظام الولاية من النواحي الإدارية والأمنية والاقتصادية والقضائية ؛ إذ جاء فيها:[4]

" أما بعد، فعليك بتقوى الله ، وخشيته ، ومراقبته ، ومزايلة سخطه؛

---

(1) المقدمة ، لابن خلدون، ص ٣٣٨وما بعدها، بدائع السلك في طبائع الملك ، لأبي عبد الله محمد بن الأزرق الأندلسي ٢:٦٨٨ .

(2) الأعلام ، للزركلي ٣:٢٢١ .

(3) انظر :أدب البنوة ص١٨٩ .

(4) تاريخ الطبري ٨:٥٨٤-٥٨٥ ، الكامل في التاريخ ، لابن الأثير ٦:١٢٤ ، مقدمة ابن خلدون ص ٣٣٩، مختصر أخبار الخلفاء ص٤٣، كتاب بغداد لابن طيفور ٦:٣٦، بدائع السلك في طبائع الملك ، لأبي عبدالله محمد بن الأزرق الأندلسي ٢:٦٨٨-٦٩٨ ، جمهرة رسائل العرب ٣:٤٠٦-٤١٦.

فإن الله قد أحسن إليك ، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده، وألزمك العدل عليهم ، والقيام بحقه فيهم ، والذب عنهم ، والدفع عن حريمهم وبيضتهم [1] ، والحقن لدمائهم ، والأمن لسبيلهم ، وإدخال الراحة عليهم في معايشهم ".

إذ ركز في هذه المقدمة على تقوى الله وطاعته لأنها رأس الصلاح وأُس التوفيق والنجاح . وأتبعها بعد ذلك بالتذكير بواجب الرعية على الراعي من حيث : الرأفة بهم ، والعدل بينهم ، وحمايتهم ،والدفاع عنهم وعن ديارهم ، والحرص على توفير أساليب الأمن والأمان والاستقرار والراحة لهم .

ولما كان الناس على دين ملوكهم - كما تقول العرب - ولأن عيون الرعية - دائماً - منعقدة في تصرفات الراعي ، وليكون الراعي قدوة صالحة لرعيته فقد وجه طاهر بن الحسين ولده إلى المواظبة على أداء الفرائض والسنن ، واقتفاء آثار السلف الصالح ، وتحكيم كتاب الله في كل أمر من أموره فقال :

" وليكن أول ما تلزم به نفسك المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس ، ثم أتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله ﷺ،واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ،وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه ،ولزوم ما انزل الله في كتابه من أمره ونهيه ، وآثر الفقه وأهله ، فإن أفضل ما تزين به المرء الفقه في دين الله، والطلب له ، والحث عليه ".

ونظراً لأهمية " الاقتصاد "[2] في حياة الأفراد والأمم ؛ لأنه من أسباب

---

[1] بيضة القوم : حماهم .

[2] القصد والاقتصاد : الاعتدال والتوسط .

التوفيق والسعادة والهناءة ، ولأنه يوافق تعاليم الشريعة وينعكس أثره الإيجابي على حياة الفرد والمجتمع أو حياة الراعي والرعية ، فقد خاطب ابنه قائلاً :

" وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها ، فليس شيء أبين نفعاً ، ولا أحضر أمناً، ولا أجمع فضلاً من " القصد" ، والقصد داعية إلى الرشد، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق قائد إلى السعادة ،وقوام الدين ،والسنن الهادية بالاقتصاد ، فآثره في دنياك كلها .

واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز، ويحصن من الذنوب ، وإنه لن تحوط نفسك ومن يليك ولا تستصلح أمورك بأفضل منه؛ فأته واهتدِ به تتم أمورك ، وتزد مقدرتك ، وتصلح خاصتك وعامتك " .

ثم تركز هذه " الوصية " على بعض الخصال المعنوية التي تُستصلح بها الرعية ، وتحسن بها أحوال الراعي فتخاطب الموصى بما يلي:

" وأحسن الظن بالله – عز وجل – تستقم لك رعيتك ، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستدم به النعمة عليك ،واجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، يُغنك ذلك عن اصطناعهم ورياضتهم .

ولا يَجِدَنْ عدو الله (الشيطان) في أمرك مفخرا ؛ فإنه إنما يكتفي بالقليل من وهنك [1] ؛ فيدخل عليك من الغم في سوء الظن ما ينغصك لذاذة عيشك ".

ومن زاوية أخرى يتناول طاهر بن الحسين خصال الراعي الكفء مؤكداً على " حسن الظن " مبرزاً آثاره النفسية في حياة الراعي الخاصة وعلاقته

---

[1] الوهن : الضعف.

بالعامة من أتباعه وأعوانه ، ويؤكد أهمية مباشرة الراعي لأمور الرعية ؛ لأن ذلك أدعى للدين وأحيا لسنة رسول الله ﷺ ، وإصابة لنهج السلف الصالح ؛ فيقول :

" واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة ، وتُكفى به ما أحببت كفايته من أمورك ، وتدعو به الناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها لك، ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء ، والحياطة للرعية ، والنظر فيما يقيمها ويصلحها ؛ بل لتكن المباشرة لأمور الأولياء، والحياطة للرعية ، والنظر في حوائجهم ، وحمل مؤوناتهم آثر عندك مما سوى ذلك ؛ فإنه أقوم للدين وأحيا للسنة " .

وبعد أن أكد طاهر بن الحسين أهمية تقوى الله وطاعته ، وركز على أساليب حفظ الرعية واكتساب رضاها ، التفت في بناء شخصية الحاكم إلى المقومات الشخصية والصفات الذاتية فقال :

" واملك نفسك عند الغضب ، وآثر الوقار والحلم ، وإياك والحدة والطيرة والغرور فيما أنت في سبيله ".

وفي سبيل علاقة الراعي بالآخرين يحذر ابنه من بعض الصفات وبعض الموصوفين بها فقال :

"ولا تحقرنْ ذنباً، ولا تمايلن حاسداً : ولا ترحمن فاجرا، ولا تداهن غاويا، ولا تحمدن مرائياً، ولا تحقرن إنساناً، ولا تردن سائلا فقيرا، ولا تجيبن باطلا، ولا تلاحظن مضحكا، ولا تخلفن وعدا، ولا تزهون فخرا، ولا تظهرن غضبا، ولا تأتين بذخا ، ولا تمشين مرحا، ولا تركبن سفها ".

ويستمر الوالد في توجيه ولده إلى سلوك مسالك الخير في سياسة الرعية، معتمداً على حنكته وخبرته فيؤكد أهمية إخلاص النية ، والتقويم الذاتي، مبرزاً أهمية حفظ اللسان عن كل عيب ، معززا أفكاره ومضامينه بالأدلة الواضحة قائلاً :

" وأخلص نيتك في جميع هذا ، وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسئول عما صنع ، ومجزي بما أحسن ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وأقصِ أهل النميمة ؛ لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنميمة خاتمتهما ، وأحب أهل الصدق والصلاح ، وأعن الأشراف بالحق ، وواصل الضعفاء ،وصل الرحم ، وإياك أن تقول : إني مُسَلّط أفعل ما أشاء؛ فإن ذلك سريع بك إلى نقص الرأي، واعلم أن الملك لله يعطيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ودع عنك شره النفس ، ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تُدَّخر وتكتنز البر والتقوى ، والمعدلة ، واستصلاح الرعية ، وعمارة بلادهم ، والتفقد لأمورهم ، والحفظ لدهمائهم ، والإغاثة لملهوفهم ".

وتأكيداً لأهمية الفطنة للحاكم وأهمية اليقظة للراعي ؛ فقد أكد طاهر ابن الحسين ما أكده الخلفاء من قبل لولاة عهودهم من حسن اختيار الأتباع واستمرار متابعتهم ،والى التفكر والتدبر في الأمور قبل إمضائها ، فقال :

" واجعل في كل كُورة [1] من عملك أمينا يخبرك أخبار عمالك ، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله ".

وفي ضرورة عدم إطلاق يد " الأمين " الذي يراقب العمال ، وأهمية

---

[1] الكورة : المدينة ، أو البقعة التي تجتمع فها المساكن والقرى ، وجمعها كور .

استطلاع مدى الفائدة من مهمته وجه ولده قائلاً:

" وإن أردت أن تأمره بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك ؛ فإن رأيت السلامة فيه والعافية فأمضه ؛ وإلا فتوقف عنه، وراجع أهل البصر والعلم ، ثم خذ فيه عدته ".

ويفلسف أهمية رأيه السابق بقوله :

" فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره قد واتاه على ما يهوى فقواه ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره ".

وفي أصول معاملة الأتباع ، وأهمية ذلك في نشر الأمن والاستقرار يوجه طاهر بن الحسين ولده إلى ضرورة الاهتمام بالجند من الناحيتين المعنوية والمادية فيقول :

" وتفقد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبهم، وأدر عليهم أرزاقهم ، ووسع عليهم في معاشهم ؛ ليذهب بذلك الله فاقتهم ، ويقوم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم في طاعتك .

وَحَسْبُ ذي السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله وحيطته وإنصافه "

و لم يغفل طاهر بن الحسين أمر " القضاء " في وصيته لولده ؛ لما للقضاء من دور بارز في استقرار الأمور وانتشار الأمن والأمان فيقول :

" واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور ؛ لأنه ميزان الله الذي تعتدل عليه الأحوال في الأرض ، وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية، وتأمن السبل ، وينصف المظلوم، ويأخذ الناس حقوقهم ".

واستكمالاً لأمر القضاء يوجه الموصي ولده إلى أهمية درء الحدود بالشبهات والجرائم بالعقوبات بناء على القواعد الفقهية القائمة على مصادر التشريع الإسلامي فيقول:

" وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم ، وما استحقوه ، ولا تعطل ذلك ولا تهاون به ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة؛ فإن في تفريطك في ذلك لما يفسد عليك حسن ظنك .

واعزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب الشبه والبدعات ؛ يسلم لك دينك ، وتقم لك مروءتك ".

واستكمالاً لما ذكره قبلاً عن " الاقتصاد " يعود طاهر بن الحسين لوضع خطة اقتصادية ليتبعها ولده بما يتناسب مع الثوابت الإسلامية فيقول :

" واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت في الخزائن [1] لا تثمر ، وإذا كانت في إصلاح الرعية ، وإعطاء حقوقهم ، وكف المؤونة عنهم ؛ نمت وربت ، وصلحت به العامة ، وتزينت الولاة ، وطاب به الزمان ، واعتقد فيه العز والمنعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ، ووفّر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف رعيتك من ذلك حصصهم ، وتعهد ما يصلح أمورهم ومعايشهم".

ثم يفلسف البعد الوظيفي للمال من خلال دوره في اصطناع الأعوان وتأليفهم ، مع التأكيد على الدور السلبي للشح فيقول :

" فاجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب ، ولتعظم حسبتك فيه ؛ فإنه يبقى من المال ما أنفق في سبيل حقه .

---

[1] ذخرت في الخزائن :حفظت فيها لوقت الحاجة .

وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت في أمر رعيتك من الشح.

واعلم أنك إذا كنت حريصاً وكنت كثير الأخذ قليل العطية ؛ فإن رعيتك إنما تعتقد على محبتك[1] بالكف عن أموالهم ، وترك الجور عنهم ، ويدوم صفاء أوليائك لك بالإفضال عليهم ، وحسن العطية لهم.

فاجتنب الشح ، واعلم أنه أول ما عصى به الإنسان ربه[2] ، فَسَهِّل طريق الجود بالحق ، واجعل للمسلمين كلهم من نيلك حظًّا ونصيبا، وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد ، فأعدده لنفسك خلقاً، وارض به عملاً ومذهباً ".

ويختتم طاهر بن الحسين وصيته لابنه بتذكيره بأهمية إعادة النظر في هذه الوصية لتفهمها وتنفيذ ما فيها سائلاً المولى -عز وجل - التوفيق والعون والسداد لولده فيقول :

" وتفهم كتابي إليك ، وأكثر النظر فيه ، والعمل به ، واستعن بالله على جميع أمورك .

وأنا أسأل الله أن يحسن عونك وتوفيقك ، وأن ينزل عليك من فضله ورحمته حتى يجعلك أفضلهم نصيباً ، وأوفرهم حظًّا ، وأسناهم ذكراً وأمراً ، وأن يهلك عدوك ومن ناواك وبغى عليك ، حتى تستعلي أمرك بالعز والقوة والتوفيق ، إنه قريب مجيب ".

---

[1] تعتقد على محبتك :تثبت، وتشتد .

[2] قال الليث بن سعد :بلغني أن إبليس لقي نوحاً – عليه السلام – فقال له إبليس : اتق الحسد والشح ؛فإني حسدت آدم فخرجت من الجنة ، وشح آدم على شجرة واحدة منع منها حتى خرج من الجنة .(العقد الفريد ٢: ١٧٢-١٧٣).

وهكذا فإن إعادة النظر في هذه الوصية ، وإجالة الفكر فيها توضح أن عناية كاتبها كانت منصبة على رسم المنهج السياسي المتكامل الذي يمكن أن يكون دستوراً واضحاً في تدبير أمور الحكم لا في عصرها فحسب ؛ بل في كل زمان ومكان ؛ لأنها حافظت على طاقتها التأثيرية رغم تطاول القرون ومر العصور ، وقد استطاعت أن تستنهض تراثنا العريق ليؤدي دوره في حقل مناهج (أسلمة) العلوم بعامة والعلوم الإدارية بخاصة ، ومن ثم تصبح هذه " الوصية " ركيزة معرفية لمنهج العلوم السياسية ، واستطاعت أن تحقق مقولة القائلين : بأن طاهر بن الحسين استطاع أن يقود الممالك بقلمه كما قاد الجيوش بسيفه.[1]

وما من شك في أن هذه " الوصية " قد ترجمت خبرة منشئها وحنكته وحصيلة فكره وعقله الواعي المتأمل في شئون الحياة وأسرارها ، ولكن المدقق في مضامينها يجزم بأنها قد تأثرت تأثراً واضحاً بالوصايا والحكم الفارسية التي ترجمت أو شاعت في العصر العباسي وبخاصة وصايا أردشير أو " عهد أردشير ".

وقد جاءت هذه " الوصية " في غاية الإحكام لصدورها من قلب صادق ، وعاطفة جياشة بالمحبة ؛ إلا أنها عُرضت بكل سهولة وبساطة بعيداً عن العناية اللغوية والتزويق اللفظي الذي شاع بين كُتاب العصر ومفكريه .

ومن الوصايا التي تطالعنا في العصر العباسي وصية جعفر بن محمد الصادق (لقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب مطلقاً ، وقد أخذ عنه العلم جماعة منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك)[2] التي أوصى بها ابنه موسى الذي كان من سادات بني هاشم ومن أعبد أهل زمانه ، واحد كبار العلماء الأجواد[3] ، إذ

---

[1] انظر : أدب البنوة ،ص ١٩٥ .

[2] الأعلام ، للزركلي ٢:١٢٦ .

[3] نفسه ٧:٣٢١ .

أوصاه بعدد من الفضائل النفيسة والاجتماعية انطلاقاً من الثوابت الإسلامية في تربية الناشئة وإعدادهم ، إذ قال :[1]

" يا بني ، اقبل وصيتي ، واحفظ مقالتي فإنك إن حفظتها تعش سعيداً وتموت حميداً.

يا بني ، ، من رضي بما قسم الله له اتهم الله في قضائه ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره ، ومن استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه" .

ويرتكز على عدد من الحكم التربوية في الجوانب الاجتماعية فيقول :

"يا بني ، من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته ، ومن سل سيف البغي قتل به ، ومن احتفر لأخيه بئراً سقط فيها ، ومن داخل السفهاء حُقر ، ومن خالط العلماء وُقِر ، ومن دخل مداخل السوء اتهم ".

وعن أهمية إعطاء كل ذي حق حقه من التقدير والاحترام ، وضرورة معرفة الإنسان لمكانته وحدوده يقول :

" يا بني ، إياك أن تُزري بالرجال فَيُزرى بك ، وإياك والدخول فيما لا يعنيك فَتَذُل لذلك ".

وعن أهمية التمسك بالثوابت الإسلامية ، وأهمية تطبيق السنن النبوية في التنشئة الاجتماعية يخاطبه قائلاً :

" يا بني ، كن لكتاب الله تالياً ، وللإسلام فاشياً ، وبالمعرفة آمراً ، وعن المنكر ناهياً، ولمن قطعك واصلاً ، ولمن سكت عنك مبتدئاً، ولمن سألك معطياً ، وإياك والنميمة فإنها تزرع الشحناء في قلوب

---

(1) حلية الأولياء ٣:١٩٥-١٩٦ ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د.ت).

الرجال ، وإياك والتعرض لعيوب الناس ، فمنزلة التعرض لعيوب الناس بمنزلة الهدف"[1] .

ويترجم جعفر الصادق خبرته وحنكته في تعامله مع الناس فيؤكد لابنه أن طلب الجود لا يثمر إلا لدى الأجواد الأشراف الذين ينتمون إلى أعرق الأصول فيقول :

" يا بني ، إذا طلبت الجود فعليك بمعادنه ، فإن للجود معادن، وللمعادن أصولاً، وللأصول فروعاً ، وللفروع ثمراً ، ولا أصل ثابت إلا بمعدن طيب " .

ويعاود في اختتام الوصية التركيز على العادات الاجتماعية التي تجسد خبرته في التعامل مع الآخرين ، فيقول :

" يا بني ، إذا زرت فزر الأخيار ، ولا تزر الفجَّار ؛ فإنهم صخرة لا ينفجر ماؤها ، وشجرة لا يخضر ورقها ، وأرض لا يظهر عشبها ".

وأما محمد بن عبيد الله بن عمرو ،المعروف بالعتبي ، وهو أديب ، كثير الأخبار ، حسن الشعر ، له تصانيف منها : الأخلاق ، وأشعار الأعاريب[2]، فقد أوصى ابنه عبد الرحمن بوصية ركز فيها على بناء الشخصية الذاتية لابنه انطلاقاً من بعض الوصايا الاجتماعية ، والاهتمام بالجانب الديني في تربية الناشئة ،إذ قال :[3]

---

[1] يعني :أن من تعرض لعيوب الناس ؛فقد جعل – بصنيعه ذلك – من نفسه هدفاً لهم .

[2] الأعلام ، للزركلي ٦:٢٥٨-٢٥٩.

[3] جمهرة وصايا العرب ، لمحمد نايف الديلمي ،٣:١٩١ .

" يا بني ، إني أتركك مع من لا يتركك ، فاكحل عيونهم بحُسْنٍ منك تقطع ألسنتهم عنك ، وكن لنفسك تكن لك ، وخذ من كل زمان محاسن ما فيه ، وأنت قليل فاتق الله تكن به كثيراً ، واعلم بأنك تخرج بموتي عن سعة عُذر إلى ضيق مداراة ، فضع الأمور مواضعها تضعك موضعك ، واجعل دنياك صلة لآخرتك ، ولا ترض لها بها عوضاً من الآخرة ؛ فإن الله لم يرضها عقاباً لمن سخط عليه ، ولا ثواباً لمن رضي عنه ، وانظر بناتي، فوصيتي فيهن بما أوصى سعيد بن العاص في بناته ".[1]

ومن أبرز الوصايا الاجتماعية والتربوية في هذا العصر وصية الخطاب ابن المعلى المخزومي القرشي الذي وجهها لابنه ، ومهد لها بمقدمة استمال بها قلبه واستثار بها عواطفه إذ قال بعد أن حثه على تقوى الله وطاعته وتجنب محارمه: [2]

" ... وإني قد وسمت لك وسما ، ووضعت لك رسما ، إن أنت حفظته ووعيته ، وعملت به ملأت أعين الملوك ، وانقاد لك به الصعلوك ، ولم تزل مرتجى مشرفا يحتاج إليك ، ويُرغب إلى ما في يديك ؛ فأطع أباك ، واقتصر على وصية أبيك ، وفرِّغ لذلك ذهنك ، واشغل به قلبك ولبك... " .

ثم يوجهه إلى بعض الأخلاق الشائعة وبعض "السلوك" الذي ينبغي إلى أن يتنبه إليه في حياته وعلاقاته بأبناء مجتمعه فيقول :

"... وإياك وهذر الكلام ، وكثرة الضحك والمزاح ، ومهازلة الإخوان ؛ فإن ذلك يذهب البهاء ، ويوقع الشحناء ، وعليك بالرزانة

---

(1) انظر وصية سعيد بن العاص في ص١٧٣،١٧٤ من هذه الدراسة ، ووصيته في بناته أن يتكفل أبناؤه بزواجهن للأكفاء.

(2) الوصايا الخالدة، جمع وتحقيق عبد البديع صقر ومصطفى جبر، ص ٢٣٠-٢٤٠، مطابع العروبة بقطر ١٣٨٦هـ.

والتوقر ، من غير كبر يوصف منك ، ولا خيلاء تحكي عنك .

والقَ صديقك وعدوك بوجه الرضى ، وكف الأذى من غير ذلة لهم ولا هيبة منهم ، وكن في جميع أمورك في أوسطها ؛ فإن خير الأمور أوسطها ، وقلل الكلام ، وافشِ السلام ، وامشِ متمكنا قَصْدًا ، ولا تَخَطَّ برجلك ، ولا تسحب ذيلك ، ولا تلوِ عنقك [1] ، ولا رداءك، ولا تنظر في عِطْفِك ، ولا تكثر الالتفات ، ولا تقف على الجماعات ، ولا تتخذ السوق مجلسا ، ولا الحوانيت مُتَحَدَّثا ، ولا تكثر المراء ، ولا تُنازع السفهاء ، فإن تكلمت فاختصر ، وان فرحت فاقتصر" .

وفي آداب الجلوس وآداب المجالس قال :

" وإذا جلست فتربع ، وتحفظ من تشبيك أصابعك وتفقيعها ، والعبث بلحيتك وخاتمك ، وذؤابة سيفك [2] . وتخليل أسنانك ، وإدخال يدك في أنفك، وكثرة طرد الذباب عنك ، وكثرة التثاؤب والتمطي ، وأشباه ذلك مما يستخفه الناس منك ، ويغتمزون به فيك .

وليكن مجلسك هاديا ، وحديثك مقسوما، واصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك ، بغير إظهار عجب منك ، ولا مسألة إعادة ، وغضَّ عن الفكاهات من المضاحك والحكايات ، ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك ، ولا عن فرسك ، ولا عن سيفك ، وإياك وأحاديث الرؤيا؛ فإنك إن أظهرت عجباً بشيء منها طمع فيها السفهاء، فولدوا لك الأحلام ، واغتمزوا في عقلك ،ولا تَصَنَّعَ تَصَنُّعَ

---

[1] كناية عن الكبر والخيلاء.

[2] ذؤابة السيف: علاقته .

المرأة ، ولا تَبَدَّل تَبَدُّل العبد ، ولا تَهْلُب لحيتك ولا تُبَطِّنها [١] ، وتوقَّ كثرة الحفِّ ونتف الشيب وكثرة الكحل ، والإسراف في الدهن ، وليكن كحلك غِبًّا، ولا تُلحَّ في الحاجات ، ولا تخشع في الطلبات "

وعن حفظ المال وصيانة " الثروة " وجه ولده مبالغا في إسرارها فقال:

" ولا تُعلم أهلك وولدك - فضلا عن غيرهم- عدد مالك ؛ فإنهم إن رأوه قليلاً هُنت عليهم ، وإن كان كثيرا لم تبلغ به رضاهم، وأخفهم في غير عنف ، ولِنْ لهم في غير ضعف ..".

وفي رسم سياسة التعامل مع الآخرين وجه ولده قائلاً :

ولا تُهازل أمتك ، وإذا خاصمت فتوَقَّرَ ، وتحفَّظ من جهلك ، وتجنب عن عجلتك، وتفكَّر في حُجَّتك ، وأرِ الحاكم شيئا من حِلمك، ولا تَحَفَّز على ركبتيك ، وَتَوَقَّ حُمرة الوجه ، وعرق الجبين ، وإن سُفِّه عليك فاحلم ،وإذا هدأ غضبك فتكلَّم ، وأكرم عرضك ، والقِ الفضول عنك ، وإنْ قَرَّبك سلطان فكن منه على حد السِّنان [٢] ، وإن استرسل إليك فلا تأمن من انقلابه عليك ، وارفق به رفقك بالصبي ، وكلمه بما يشتهي ، ولا يحملنك ما ترى من إلطافه إياك، وخاصته بك،أن تدخل بينه وبين أحد من ولده وأهله وحشمه ، وإن كان لذلك منك مستمعا ، وللقول منك مطيعا ؛ فإن سقطة الداخل بين الملك وأهله صَرْعَةٌ لا تنهض ، وذلَّة لا تُقال ، وإذا وَعدْتَ فحقِّق ، وإذا حدَّثت فاصدق ، ولا تجهر بمنطقك [٣] كمنازع الأصم ، ولا تُخافت به كتخافت الأخرس ، وتخَيَّر محاسن القول بالحديث المقبول ، وإذا حدثت

---

[١] هلب الشعر : نتف ما غلظ منه . وتبطين اللحية : ألا يؤخذ مما تحت الذقن والحنك من الشعر .

[٢] أي كن دقيقا في معاملته ، وكن يقظا في التعامل معه .

[٣] منطقك : نطقك وكلامك .

بسماع فانسبه إلى أهله ، وإياك والأحاديث العابرة المُشَنَّعة التي تنكرها القلوب ، وتقف لها الجلود [1] ، وإياك ومُضَعَّف الكلام مثل : نعم ، نعم ، ولا ، لا ، وعَجِّل عَجِّل، وما أشبه ذلك".

وبعد أن يوجه " الخطاب " ولده إلى بعض العادات الاجتماعية والسلوكية التي تتعلق بآداب الطعام ، والسواك، وآداب الصداقة والأصدقاء يستعرض بعض " الحكم " والمضامين التربوية التي تذكرنا بالوصايا الجاهلية إذ قال:

".. واعلم أن الجشع يدعو إلى الطبع، والرغبة كما قيل تدق الرقبة ، ورب أكلة تمنع أكلات ، والتعفف مال جسيم ، وخلق كريم ، ومعرفة الرجل قدره ، تشرف ذكره ، ومن تعدى القدر هوى في بعيد القعر ، والصدق زين ، والكذب شين ، ولَصِدقٌ يُسرع عطب صاحبه، أحسن عاقبة مِنْ كذبٍ يسلم عليه قائله ، ومعاداة الحليم خير من مصادقة الأحمق ، ولزوم الكريم على الهوان خير من صحبة اللئيم على الإحسان ...

إلى أن يقول :

تشبه بأهل العقل تكن منهم ، وتصَنَّع للشرف تدركه ،واعلم أن كل امرئ حيث يضع نفسه ، وإنما ينسب الصانع إلى صناعته ، والمرء يُعرف بقرينه، وإياك وإخوان السوء فإنهم يخونون من رافقهم ، ويحزنون من صادقهم ، وقُربُهم أعدى من الجرب ، ورفضهم من استكمال الأدب ، واستخفار المستجير لؤم ، والعجلة شؤم ، وسوء التدبير وهن .."

---

[1] تقف لها الجلود : تقشعر لسماعها.

ثم يعود إلى علاقة ولده بالآخرين فيرسم له خبرته بالإخوان والأصدقاء موضحاً طريقته في التعامل معهم فقال:

" والإخوان اثنان : فمحافظ عليك عند البلاء ، وصديق لك في الرخاء ، فاحفظ صديق البلاء ، وتجنب صديق العافية ، فإنهم أعدى الأعداء.

ومَنْ اتبع الهوى، مال به الردى، ولا يعجبك الجهل من الرجال ، ولا تحتقر ضئيلا كالخِلال [1] ؛ فإنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، ولا ينتفع به بأكثر من أصغريه "

ويستعرض بعد ذلك عدداً من الوصايا الاجتماعية ، والحكم التي تضبط السلوك فيقول :

" وتوقَّ الفساد ، وإن كنت في بلاد الأعادي ، ولا تفرش عرضك لمن دونك ، ولا تجعل مالك أكرم عليك من عرضك ، ولا تكثر الكلام فتثقل على الأقوام ، وامنح البِشرَ جليسك ، والقبول ممن لاقاك.

وإياك وكثرة التبريق والتزليق ؛ فإن ظاهر ذلك ينسب إلى التأنيث ، وإياك والتصنع لمغازلة النساء، وكن متقرِّبا متعززا ، منتهزا في فرصتك ، رفيقا في حاجتك ، منثبتا في حملتك ، والبس لك دهر ثيابه ، ومع كل قوم شكلهم.." .

وبعد أن يوجه إلى ولده نصائحه في كيفية اختيار " الزوجة" ويترجم خبرته في طباع النساء وأصنافهن يختتم وصيته بالدعاء لولده ويستودعه الله قائلاً:

" جعلك الله – يا بني – ممن يقتدي بالهدى ، ويأتَمَّ بالتُّقى ،

---

[1] الخِلال (بكسر الخاء) : العود الذي تخلل به الأسنان ، ويقصد الرجل النحيف البالغ في النحافة .

ويتجنب السخط ، ويحب الرضى .

والله خليفتي عليك ، والمتولي لأمرك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على محمد ، نبي الهدى ، وعلى آله وسلم تسليما كثيرا".

ولدى استعراضنا للوصايا في العصر العباسي نجد أن من المستحسن أن نقف مع بعض الوصايا ذات الخصوصية في أن كلا منها تمثل شريحة معينة من شرائح المجتمع ، وأنها تحمل مضامين واتجاهات خاصة ، ومنها :

وصية الإمام أبي حنيفة النعمان (أحد أعلام الحديث الذين اشتهروا بضبطه وإتقانه وصحة روايته ، وصاحب المذهب الفقهي المشهور ، توفي سنة ١٤٩هـ) التي وجهها لابنه " حماد " ؛ فجاءت ممثلة لشخصية الإمام أبي حنيفة الذي وصفه الإمام الشافعي بقوله :" الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة " ، والذي اتفق الأئمة الحفاظ الذين أرخوا لرجال الحديث على جلالته وفضله ، وأثنوا على علمه وضبطه ، إذ خاطب ابنه حماداً بادئاً وصيته بمقدمة قصيرة لتهيئته وشرح صدره لاستماع وصيته ونصحه ، إذ قال :[1]

" يا بني ، ، أرشدك الله ، وأيدك ، أوصيك بوصايا إن حفظتها وحافظت عليها رجوتُ لك السعادة في دينك ودنياك ، إن شاء الله:....."

ثم يعرض الإمام وصاياه على ابنه واحدة تلو الأخرى حتى بلغت غايتها ، وهي عشرون وصية ، بدأها بوصية الله إلى عباده[2]، ووصية رسول

[1] وصية الإمام أبي حنيفة –رحمه الله– لابنه حماد ، ميكروفيلم رقم ٩٦٣٣ دار الكتب المصرية ، مجاميع طلعت رقم ٢٢٠ ص ١٨-١٩.

[2] قال تعالى :﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾ (سورة العنكبوت آية ٨).

الله ﷺ إلى ابن عباس – رضي الله عنهما –[1] إذ قال الإمام أبو حنيفة :

" ... **أولها : مراعاة التقوى بحفظ جوارحك من المعاصي خوفاً من الله ، والقيام بأوامره تعالى** ".

ويحذره من الاستمرار في الجهل ، وبخاصة في مجال العمل أو الكسب فقال :

"... **الثاني : ألا تستقر على جهل ما تحتاج إلى عمله** ".

وفي الوصية الثالثة يوجهه إلى حسن اختيار الأقران والأصحاب لما لذلك من أثر في حياة الإنسان ، حتى قالوا :

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فإن القرين بالمقارن يقتدي

وقالوا :" الصاحب ساحب " .

فقال الإمام في وصيته :

"... **والثالث : ألا تعاشر من لا تحتاج إليه في دينك ودنياك** " .

وفي تعامله مع الآخرين يوجهه إلى أن يتصف بالموضوعية والعدل ، وأن ينصف الآخرين من نفسه ، وأن يعطيهم حقهم كاملاً ، وإذا كان له "حقٌّ" فليتسامح وليغفر وليصفح وليتجاوز إلا في حالات الضرورة . ويحذره من معاداة الآخرين ويحثه على بذل الجهد للاستغناء عن الناس إذ قال :

"... **والرابع : أن تُنصف من نفسك ولا تنتصف إلا بالضرورة**" .

"... **والخامس : ألا تعادي مسلماً ولا ذميًّا ، والسادس : أن تقنع من الله –تعالى – بما رزقك من مال وجاه ، والسابع : أن تحسن**

[1] خاطب رسول الله ﷺ ابن عباس قائلاً :" .. احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك ..".

التدبير فيما في يدك استغناء عن الناس. والثامن : ألا تستهين عن أعين الناس عليك " .

ويتابع الإمام وصاياه لابنه راسماً له سبيل التعامل مع الناس وأصول الانتفاع بخيرهم والابتعاد عن شرهم فيقول :

"...والتاسع : أن تقمع نفسك من الخوض في الفضول ، و العاشر : أن تلقى الناس مبتدئاً بالسلام ، محسناً في الكلام ، محباً لأهل الخير ، مدارياً لأهل الشر "

وامتثالاً لهدى رسول الله ﷺ : فقد وجه الإمام إلى أن يبقى لسانه رطبا بذكر الله ، وأن يكثر من الاستغفار إذ قال :

"...والحادي عشر: أن تكثر ذكر الله -تعالى - والصلاة على رسول الله ﷺ ، والثاني عشر : أن تشتغل بسيد الاستغفار ، وهو قوله عليه السلام :" سيد الاستغفار :اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعنا . أبوء بنعمتك عليَّ ، وأبوء بذنبي ؛ فاغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت "[1] من قالها حين يمسي فمات من ليلته دخل الجنة" .

ويُذَكر الإمام ابنه بـ " الحصن الحصين " الذي وجه إليه رسول الله ﷺ في حديث أبي الدرداء -رضي الله عنه - إذ قال الإمام :

وعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - حين قيل له : قد احترق بيتك ، قال : ما احترق للكلمات التي سمعتهن من رسول

---

[1] الحديث في صحيح البخاري (باب الدعاء) وفي سنن الترمذي ، والنسائي ، وأحمد بن حنبل (المعجم المفهرس ٤:٥٣٩).

الله ﷺ من قالها أول نهار لم تصبه مصيبة حتى يمسي ، ومن قالها آخر النهار لم تصبه مصيبة حتى يصبح :

" اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت ، عليك توكلت ، وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله -العلي العظيم -.

أعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً .

اللهم، إني أعوذ بك من شر نفسي ومن كل ذي شر ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم "[1] ثم يحثه على الإكثار من قراءة القرآن لما لذلك من الفضل في الدنيا والآخرة لقوله ﷺ :

" من أراد الدنيا فعليه بالقرآن ، ومن أراد الآخرة فعليه بالقرآن ، ومن أرادهما معاً فعليه بالقرآن " فخاطبه قائلاً :

"... والثالث عشر : أن تواظب على قراءة القرآن كل يوم وتهدي ثوابها إلى رسول الله ﷺ ووالديك ، وأساتيذتك ، وسائر المسلمين ".

ويترجم الإمام خبرته وحنكته في اختبار " الناس " ومعرفة خفاياهم وخباياهم في أن يوجه ولده إلى الاحتراز من الأصدقاء والأصحاب أكثر من الخصوم والأعداء ، وإلى الاحتفاظ بأسراره الخاصة وحسن الجوار : إذ قال :

---

[1] الحديث في صحيح مسلم (باب الذكر) ، ورواه أبو داوود (باب الأدب) ، والترمذي (باب الدعاء)وأحمد بن حنبل (الفهرس ٦:٤٦٨) .

"... والرابع عشر: أن تتحرز من أصحابك أكثر من أعدائك؛ إذ قد كثر في الناس الفساد ، فعدوك من صديقك مستفاد ، والخامس عشر : أن تكتم سرك وذهابَك وذهبَك ومذهبك ،والسادس عشر : أن تُحسن الجوار ، وتصبر على أذى الجار ".

وفي ختام وصيته يوجه الإمام أبو حنيفة ولده إلى ضرورة التمسك بمذهب أهل السنة، ويحثه على إخلاص النية لله ، ويحثه على أن يعمل بخمسة أحاديث جامعة لفضائل الأعمال فيقول :

"... والسابع عشر : أن تتمسك بمذهب أهل السنة والجماعة، وتجتنب عن أهل الجهالة وذوي الضلالة ، والثامن عشر : أن تخلص النية في جميع أمورك ، وتجتهد في أكل الحلال على كل حال ، والتاسع عشر : أن تعمل بخمسة أحاديث لتنخبها من خمسمائة ألف حديث : الأول : إنما الأعمال بالنيات[1] ، والثاني : من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه[2] ، والثالث :لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه[3]، والرابع: إن الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن الكثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا

---

[1] حديث عمر بن الخطاب المشهور :" إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه " انظر، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث٧:٥٥).

[2] رواه الترمذي (في باب الزهد) ، وابن ماجه (باب الفتن).

[3] رواه مسلم (باب الإيمان) والبخاري (باب الإيمان) والنسائي (باب الإيمان) وأحمد بن حنبل (انظر: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ١:٤٠٧).

فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب ، والخامس : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده "[1] .

ويختم وصاياه بوصية تلخص حال المؤمن الذي يبقى بين خوف ورجاء فيحث ولده على أن يكون بين الخوف والرجاء في كل أحواله ، وفي جميع أوضاعه ، وأن يحسن الظن بخالقه ، وأن يُقبل عليه بقلب سليم فيقول :

" ... والعشرون :أن تكون بين الخوف والرجاء في حال صحتك ، وتموت بحسن الظن بالله وغلبة الرجاء وبقلب سليم ، إنه غفور رحيم ".

وهكذا فقد اعتمد الإمام أبو حنيفة في كل مضامينه وتوجيهاته على القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، ولم يعزز وجهه نظر أو فكرة من أفكار وصيته بمثل أو حكمة أو ما اعتاده " الحكماء " من الاستشهاد بالقصص والأشعار ؛ وإنما بقي في إطار ما تميز به من ضبط وإتقان للحديث النبوي الشريف ، ومن فقه ، وقد صدق من قال فيه : سمعت يحيى بن معين يقول:"وكان أبو حنيفة ثقة لا يحدث بحديث إلا بما يحفظه ، ولا يحدث بما لا يحفظه " [2] .

وما من شك في أن هذه " الوصية " تشي بعلم أبي حنيفة واهتمامه إذ ركزت على علاقة " الإنسان " بربه دون أن تركز على علاقة الأنا بالآخر ، وكما قالت العرب : فإن " كل إناء بما فيه ينضح "[3]

وتمثل هذه " الوصية " نموذجاً لتنشئة الأبناء في إطار الشريعة الإسلامية

---

[1] الحديث متفق عليه (باب الإيمان).

[2] القائل هو محمد بن سعد العوفي ،انظر : تهذيب الكمال .

[3] مثل عربي.

انطلاقاً من تعاليم القرآن الكريم وأنوار السنة النبوية الشريفة .

ومنها وصية الإمام الشافعي (محمد بن إدريس ، ولد بغزة ، وقيل بعسقلان سنة ١٥٠هـ ، ونشأ في مكة وتلقى تعليمه الشرعي فيها ، وعني باللغة والشعر ، وسمع الحديث على جماعة من الأئمة والمشايخ ، وقرأ الموطأ على مالك، وأخذ عنه علم الحجازيين ، كما أخذ عنه الفقه ، انتقل إلى العراق واجتمع بكثير من علمائها الذين أخذوا عنه العلم ، ومنهم أحمد بن حنبل ، ثم إلى مصر وصنف بها كتاب " الأم " ، وقد نقلت له كتب التراث كثيراً من الحكم والمواعظ والأشعار ، وتوفي في مصر سنة ٢٠٤هـ[١] ، التي وجهها لابنه من منطلق تربيته تربية صحيحة قائمة على منهج التربية الإسلامية ، المبنية على التحلي بصفات الرجولة الكاملة التي تجمعها المروءة ، إذ خاطبه قائلاً:[٢]

" والله لو علمت أن الماء البارد يثلم مروءتي ما شربته إلا حاراً حتى أفارق الدنيا ".

وتتمثل خصوصية هاتين " الوصيتين " في أنهما تمثلان نموذجاً لفئة العلماء الأبرار الذين تميزوا بالتمسك بالأخلاق الحميدة ، وشدوا على القيم الإسلامية بالنواجذ في ذلك الخضم المائج من حيوات الترف واللهو والغناء ؛ حيث شاع الفالوذج وتوابعه ، ذلك الأنموذج الذي يرى أن مكارم الأخلاق جزء لا يتجزأ من الدين ، ويرى أن " القدوة " أبرز أسلوب من أساليب التربية القائمة على إيجاد التوازن الحقيقي بين التنظير والتطبيق .

ومن الشرائح الاجتماعية الأخرى التي نقف عند وصاياها في هذا العصر ، شريحة النساء اللاتي أسهمن في إسداء النصح والإرشاد لأبنائهن لئلا

---

[١] البداية والنهاية ، لابن كثير ٩:٢٥١ وما بعدها ، مكتبة المعارف ، بيروت .(د.ت) .
[٢] المخلاة ، لبهاء الدين العاملي ،ص ٧، مطبعة البابي الحلبي بمصر ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.

يظن أن دور المرأة العربية المسلمة كان دوراً سلبيًّا في تربية الأبناء ، فها هو صاحب الأمالي (أبو علي القالي) يروي عن أبان بن تغلب (أحد رجال الحديث)، أخذ عنه أبو جعفر الباقر ، وموسى بن عقبة ، توفي سنة ١٤١هـ)[١] قوله : شهدت أعرابية وهي توصي ولداً لها يريد سفراً وهي تقول له:[٢]

" أي بني ، اجلس أمنحك وصيتي ، وبالله توفيقك ؛ فإن الوصية أجدى عليك[٣] من كثير عقلك .

أي بني ، إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة وتفرق بين المحبين، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً[٤] ، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام ، وقلما اعتورت[٥] السهام غرضاً إلا كلمته[٦] ، حتى يهي[٧] ما اشتد من قوته ، وإياك والجود بدينك والبخل بمالك .

وإذا هززت فاهزز كريماً يلن لهزتك ، ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها، ومَثّل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ؛ فإن المرء لا يرى عيب نفسه ، ومن كانت مودته بِشْرُهُ وخالف ذلك منه على مثل الريح في تصرفها .

---

[١] تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلاني ٩٣:١ دار صادر ، بيروت .

[٢] الأمالي، للقالي ٧٩:٢ ، البيان والتبيين ٢٩٢:٣ ، وزهر الآداب ، للحصري٢: ٤٣٨-٤٣٩ ، جواهر الأدب ، لأحمد الهاشمي ص ١٥٨-١٥٩ .

[٣] أجدى عليك : أنفع لك.

[٤] الغرض :الهدف .

[٥] اعتورت : تداولت ، وأصابت مرة بعد مرة .

[٦] كلمته :جرحته.

[٧] يهي : يضعف ،وفعله: وهى، يهي، وهيا.

وإياك والغدر فإنه أقبح ما تعومل به ، وعليك بالوفاء ففيه النماء .

والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم ، ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحلة ريطتها وسربالها .

انهض على اسم الله "[1] .

ولا تقف خصوصية هذه " الوصية " عند كونها صدرت عن امرأة ؛ بل تتعدى ذلك إلى رسم صورة واضحة للمرأة العربية الواعية في ذلك العصر ؛ إذ جاءت الوصية متكاملة ؛ فقد بدأت بمقدمة أوضحت البعد القيمي للوصية ؛ لتكون أقدر على إثارة الانتباه وشد الذهن حين قالت :"... فإن الوصية أجدى عليك من كثير عقلك " .

وبعد هذه الإثارة توالي الأم العربية الواعية غرس الفضائل الإنسانية في نفس وليدها قبل أن يخطو خطواته الأولى في سبيله ؛ لتكون تلك الفضائل سلاحاً له في غربته ومنهجاً يلتزم به كلما تعامل مع الآخرين بأي طريقة من طرائق التعامل حين بدأت بتحذيره من النميمة بطريقة تترجم نظرتها الصائبة في العلاقات الإنسانية بقولها :" إياك والنميمة ، فإنها تزرع الضغينة وتفرق بين المحبين ".

ولتخفيف أعباء السفر وصعوباته عن الوليد حذرته أمه من التعرض للعيوب وفلسفت نتائج التعرض للعيوب بطريقة تشي بنضج فكري يقيس الأمور بأشباهها إذ قالت:" وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً ، وخليق ألا يثبت

---

[1] هناك اختلاف يسير في ألفاظ الوصية وعباراتها بين المصادر التي أوردتها .

الغرض على كثرة السهام، وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يهي ما اشتد من قوته ".

وفي جملة قصيرة تختزل الأم العلاقة بين الجود والبخل من خلال معيار دقيق لقياس العلاقات الإنسانية الخاصة بهاتين الصفتين بقولها :" وإياك والجود بدينك والبخل بمالك " .

وتتابع إرشاداتها من خلال معرفة دقيقة لطبيعة النفس البشرية وحبها للمال إذ تقول :" وإذا هززت فاهزز كريماً ؛ فإن الكريم يهتز لهزتك ، وإياك واللئيم ؛ فإنه صخرة لا يتفجر ماؤها ".

وفي رسم معادلة دقيقة أخرى تبني الوالدة علاقة بين الغدر والوفاء كأبرز مستلزمات صلات المودة والإخاء في الغربة فتقول :" وإياك والغدر فإنه أقبح ما تعومل به ، وعليك بالوفاء ؛ ففيه النماء " .

وفي سبيل التقويم الذاتي تحث الأم على أهمية رصد محاسن الآخرين لمقارنتها والعمل على تقليدها واكتسابها ، ورصد عيوب الآخرين للتخلي عن أمثالها تقول :" ومَثِّل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه " وعللت هذا الأسلوب بقولها : فإن المرء لا يرى عيب نفسه ، ومن كانت مودته بشره وخالف ذلك منه فعله ".

ومن الوصايا ذات الخصوصية تستوقفنا الوصية الشعرية التي أوصى بها طُريح بن إسماعيل الثقفي الذي نشأ في دولة بني أمية ومدح الوليد بن يزيد بن عبد الملك بأرقى أشعاره حتى عده كثير من المؤرخين شاعراً أمويًّا[1] ، مع أنه مدح كلاًّ من أبي جعفر المنصور والمهدي في العصر العباسي ، وتوفي

---

[1] انظر : شعراء أمويون ، القسم الثالث ، دراسة وتحقيق نوري السعيد ص ٣١٤، والوصايا في الأدب العربي القديم، ص ١٠٩ إذ أدرجته الدكتورة سهام الفريح ضمن شعراء العصر الأموي .

سنة١٦٥هـ[1] ، فقد أوصى ابنه الصلت الذي كان يكنى به قائلاً :[2]

يا صَلْتُ ، إن أباك رهنُ منيةٍ ... مكتوبة لا بد أن يلقاها
سلفت سوالفها بأنفس من مضى ... وكذلك يتبع باقياً أُخراها
والدهرُ يوشك أن يُفرق رية ... بالموت ، أو رحل تشتُّ نواها
فإذا خُصصتَ بنعمة ورزقتها ... من فضل ربك منة تغشاها
فابغِ الزيادة في الذي أعطيته ... وتمام ذاك بشكر من أعطاها
وإذا جلست من النديِّ فلا تصل ... لهم الحديث بقصة تعياها
حتى تثقفها وتحكم وعيها ... فتبينها كحديث من أحصاها
وإذا عتبت على امرئ في خُلة ... ورأيته قد ذل حين أتاها
فاحذر وقوعك مرة في مثلها ... فيبث عنك نضوحها وثناها
واترك مصاحبة اللئام ... ترك المخوفة بالردى عدواها

وتأتي ميزة هذه الوصية الشعرية من أنها صيغت صياغة مناسبة ؛إذ عالجت قضاياها معالجة رزينة هادئة دون مبالغة أو انفعال ؛ إذ بدأ منشئها بتأكيد حقيقة الموت وقرب الفراق على سنة من سبق من الأشخاص والأمم إذ قال:

يا صلت إن أباك رهن منية ... مكتوبة لا بد أن يلقاها
سلفت سوالفها بأنفس من مضى ... كذلك يتبع باقياً أخراها

---

[1] انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٢:٥٦٨ ، معجم الأدباء ، لياقوت الحموي ١٢:٢٢-٥٢، سمط اللآلي ، للراجموني ص ٧٠٥، الأغاني ٤:٣٠٩ .

[2] الأغاني ٤:٣١٠، نزهة الأبصار ، لابن درهم ١:٣٧٨ .

والدهر يوشك أن يفرق ريبة بالموت ، أو رحل تشت نواها

وأمام نعم الله التي لا تحصى يقف الموصي وقفة إيمانية مرتكزة على قوله تعالى ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ إذ قال :

فإذا خصصت بنعمة ورزقتها من فضل ربك منة تغشاها

فابغ الزيادة في الذي أعطيته وتمام ذاك بشكر من أعطاها

ويحرص الشاعر على بيان آداب الحديث من حيث الإلمام بما يقال لئلا يعرض المتحدث نفسه للنقد والتجريح والاستهزاء بقوله :

وإذا جلست مع الندي فلا تصل هم الحديث بقصة تعياها

حتى تثقفها وتحكم وعيها فتبينها كحديث من أحصاها

وكأني به في هذا المعنى قد نظر إلى قول عبد الله بن جعفر الطالبي الذي ينسب إلى طرفة بن العبد في قوله :[1]

إذا كنت في حاجة مرسلاً فأرسل لبيباً ولا توصه

إلى أن يقول :

ولا تذكر الدهر في مجلس حديثاً إذا أنت لم تحصه

ونص الحديث إلى أهله فإن الأمانة في نصه

وكم من فتى عازب لبه وقد تعجب العين من شخصه

وآخر تحسبه أنوكا ويأتينك بالأمر من فصه[2]

ويتفق الشاعر في أبياته الأخيرة مع الأم السابقة في وصيتها لابنها

---

[1] جواهر الأدب ، للهاشمي ٦٦٣، وتنسب الأبيات إلى صالح بن عبد القدوس ، والزبير بن عبد المطلب ، (التذكرة السعدية ١:٣٥٣ ، الجمهرة ١:٩٨ ، تحفة الوزراء للثعالبي ص ٣٦، بهجة المجالس ١:٢٧٨، الحماسة ص ١٩٨).

[2] الأنوك : الأحمق .وفص الأمر : حقيقته .

من حيث استقباح عيوب الآخرين وتجنبها إذ يقول :

وإذا عتبت على امرئ في خلة ... ورأيته قد ذل حين أتاها
فاحذر وقوعك مرة في مثلها ... فيبث عنك نضوحها وثناها
واترك مصاحبة اللئام ودعهم ... ترك المخوفة بالردى عدواها

ومن الوصايا الشعرية تطالعنا وصية أبي العتاهية الذي أكثر من شعر المواعظ والوصايا والحكم ؛ فخص ولده بوصية شعرية جاء فيها : [١]

اسلك بنيَّ مناهج السادات ... وتخلقنَّ بأشرف العادات
لا تلهينك عن معادك لذة ... تفنى وتورث دائم الحسرات
إن السعيد غدا زهيد قانع ... عند الإله بأخلص النيات
أقم الصلاة لوقتها بشروطها ... فمن الضلال تفاوت الميقات
وإذا اتسعت لرزق ربك فاتخذ ... منه الأحل لأوجه الصدقات
في الأقربين وفي الأباعد تارة ... إن الزكاة قرينة الصلوات
وارع الجوار لأهله متورعا ... بقضاء ما طلبوا من الحاجات
واخفض جناحك إن منحت إمارة ... وارغب بنفسك عن ردى اللذات

وقد حرص أبو العتاهية في هذه الوصية على إيجاد التوازن في حياة ابنه عن طريق الالتزام بالفضائل والأخلاق والالتزام بالثوابت الشرعية كالصلاة والزكاة لينال خيري الدنيا والآخرة .

ومن الملاحظ أن هذه الوصية تمثل أسلوب أبي العتاهية الذي كان

---

(١) ديوان أبي العتاهية ، ص ٢٧ مطبعة اليسوعيين ، بيروت وديوانه ،ص ٧٩ دار بيروت للنشر والتوزيع ، بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، وأبو العتاهية ، أخباره وأشعاره ، لشكري فيصل ، ص ٥٩ دمشق ١٩٦٥م.

يشتقه اشتقاقاً من لغة الحياة اليومية ببغداد ، وهو أسلوب ابتعد فيه عن الغرابة والتعقيد ، كما ابتعد فيه عن العجمة ؛ إذ يؤثر عنه قوله : [1] " **الصواب لقائل الشعر أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعري ، ولا سيما الأشعار التي في الزهد ..".**

وفي مجال التربية الاجتماعية أسهم الشعر في العصر العباسي بتنشئة الأبناء وتوجيههم إلى فضائل الأخلاق ، ومن ذلك قول مسعر بن كِدام بن ظهير الهلالي العامري (الذي كان من ثقات أهل الحديث ، وكان يقال له " المصحف" لعظم الثقة بما يرويه [2]، وقد توفي بمكة سنة ١٥٢هـ [3] إذ قال يوصي ولده كدام بالبعد عن المزاح ويحذره من الجهل[4]:

ولقد حبوتك يا كدام نصيحتي ... فاسمع مقال أب عليك شفيق
أما المزاح مع المراء فدعهما ... خلقان لا أرضاهما لصديق
إني بلوتهما فلم أحمدهما ... لمجاور جار ول الرفيق
والجهل قد يضع الفتى في قومه ... وعروقه في الناس أي عروق
حتى تراه مجانبا ذا بغضة ... في الحي غير محبب مرموق

إذ أرشد ولده إلى أهمية سماع نصيحته لأنه حريص على مصلحته ، راغب في تحقيق رفعته وعلو منزلته ، ثم حذره من المزاح والمراء لما لهما من آثار سلبية لا يرضاها الوالد لنفسه ولا لجاره ولا لصديقه أقلها ما ذكره الشاعر في

---

(١) الأغاني ، لأبي الفرج ٤: ٧٠، والعصر العباسي الأول ، لشوقي ضيف ص ٢٥٢ ط ٣ دار المعارف بمصر .

(٢) الأعلام ، للزركلي ٨: ١٠٩.

(٣) في الكواكب الدرية (ص ١٦٨) أن وفاته كانت سنة ١٥٥هـ، وفي خلاصة التهذيب (ص ٣٢٠) أنه مات سنة ١٥٣هـ (الأعلام ٨: ١٠٩)

(٤) عيون الأخبار ، لابن قتيبة ١: ٣٦٧، والمنهج المسبوك في سياسة الملوك ، لعبد الرحمن الشيزري ص ١٩١، مع اختلاف بينهما في بعض الألفاظ وعدد الأبيات .

قولـه : [1]

وإيـاك إيـاك المـزاح فـإنـه ... يجرئ عليك الطفل والدنس النذلا

ويذهب مـاء الوجـه بعد حيائـه ... ويعقبـــه مــن بعـد عــزتــه ذلا

إذ فلسـف هـذا الشـاعر آثـار المزاح السـلبية علـى الإنسـان ؛ حيـث يقلـل قيمته ويجـرئ عليـه الصغير والحقـير ، ويورثـه الـذل والهـوان .

وحـذر مسـعر بـن كـدام - أيضـاً - ولـده مـن الجهـل ؛ لأنـه يضـع قيمـة صاحبـه مهمـا كـانت أصولـه ومكانتـه في قومـه ، وهـذا المعنـى الـذي أفـاده الشـاعر في قولـه :

العلم يرفع بيتاً لا عمـاد لـه ... والجهل يهدم بيت العز والشـرف

وقـد أدرك الحكمـاء الآثـار السـلبية للمـزاح فخصـه الشيـزري ببـاب مـن أبـواب كتابـه إذ قـال :[2]

" اعلـم أن المـزاح شـاغل عـن الأمـور المهمـة ، مذهـل عـن النوائـب الملمـة ، يذهـب الهيبـة والوقـار ، وليـس لمن وسـم بـه مقـدار ، يزيـح عـن الحقـوق ، ويفضـي إلى العقـوق ، ويوغـر صـدور الأصحـاب ، ويجـانب محاسـن الآداب ، ويذهـب البهـاء ، ويجرئ السـفهاء ، أولـه حـلاوة ،وآخـره عـداوة " .

قـال عمـر بـن عبـد العزيـز - رضـي الله عنـه - :" **اتقـوا المـزاح فإنـه حمقـة تـورث الضغينـة** "[3] .

---

[1] عيون الأخبار ، لابن قتيبة ١: ١٩٠.

[2] النهج المسلوك في سياسة الملوك ص ١٨٩-١٩٠ .

[3] القول في أدب الدنيا والدين ،ص ٢٩٨، وفي إحياء علوم الدين ١٢٨:٣ ، ولفظـه :"اتقـوا الله وإيـاكم والمزاح فإنـه يورث الضغينة ويجر إلى القبح "(النهج المسلوك ص ١٨٩ الحاشية رقم ٢).

وقال أكتم بن صيفي :" **المزاح يذهب البهاء والمهابة فاحذروه** ".

وأوصى مسلم بن قتيبة أولاده فقال :" **لا تمازحوا فيستخف بكم نظراؤكم ويجترئ عليكم أكفاؤكم ، وهو مسلبة ، مقطوعة للصحبة ، أوله فرح وآخره ترح** .

وقيل:" **إذا مازح السلطان هان عند رعيته ، وإذا سفه ذهبت حرقته**"[1] .

وقيل في منثور الحكم :" **مَنْ قَلَّ عقله كثر هزله** " **وقيل : المزاح معضل الداء عزيز الدواء** .

وقيل: "**خير المزاح لا يُنال ، وشره لا يقال** ".

وقال سعيد بن العاص لابنه :" **يا بني ، لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدني فيجترئ عليك** ".

وكان يقال :" **لكل شيء بذر ، وبذر العداوة المزاح** ".

أنشدني بعضهم :

اترك مزاح الرجال إن مزحوا ... لم أر قوماً تمازحوا سلموا

يفني مزاح الفتى مروءته ... ورب قول يسيل منه دم ".

وتبرز الموضوعية والواقعية في نظرة الشيزري إلى " المزاح " فيقول :[2]

" **واعلم أن النفوس متى سلك بها الجد ، وألزمت به سئمت منه وضجرت ، واستثقلت حمل الحق ، وربما أفضى بها ذلك إلى ضيق الصدر وسوء الخلق ، فينبغي أن يريحها بقليل المزاح ويسير الدعابة**

---

[1] ينسب القول لسعيد بن العاص في إحياء علوم الدين ٣:١٨٢ ، وكذلك في بهجة المجالس ٥٦٧:(النهج المسلوك ص١٩٠ حاشية رقم ٢).

[2] النهج المسلوك ،ص ١٩١-١٩٢.

وليكن كما قال أبو الفتح البستي :[1]

أفد طبعك المكدور بالجد راحة يجم[2] ، وعلله بشيء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما تعطي الطعام من الملح

وقال ، ﷺ :" إني لا أمزح ولا أقول إلا حقا" وقال سعيد بن العاص لابنه :

" يا بني اقتصد في مزاحك فإن الإفراط فيه يذهب بالبهاء ويجرئ عليك السفهاء ، والاقتصاد منه بالكيلة يبغضك إلى أصحابك ومؤنسيك ، فامزح معهم ، وليكن بمقدار ما يحصل لهم به الأنس منك من غير إفراط " وليحذر مع هذا الشرط أن يمازح الآدمي عدوه فيصير ذلك طريقاً إلى إعلان المساوئ ، فقد قال بعض الحكماء : "**إذا مازحت عدوك أظهرت عيوبك**".

ونظراً لما خضعت له المجتمعات الإسلامية من تغير وتطور في العصر العباسي فقد تهيأت للحركة العلمية والثقافية أسباب التقدم والارتقاء ، وزادت العناية بالوصايا والنصائح والعظات .

ولما عد المؤرخون والأدباء العصر العباسي العصر الذهبي للعلوم والآداب والسياسة ؛ فإننا لا نبالغ إذا عددناه العصر الذهبي للوصايا أيضاً ؛ إذ برز حرص الخلفاء والوزراء والأمراء على إيصاء أبنائهم وإخوانهم ، وظهرت

---

[1] ديوان أبي الفتح البستي ص ٣١٤ (البستي هو صاحب القصيدة المعروفة باسم عنوان الحكم).ومطلعها :

زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران

ومنها قوله: أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

(انظر القصيدة في جواهر الأدب ٦٧٠، طبقات الشافعية الكبرى ، للسبكي ١: ٤، أبو الفتح البستي حياته وشعره للدكتور محمد مرسي الخولي ٣١٣-٣١٧، قصيدة عنوان الحكم لعبد الفتاح أبو عدَن)

[2] يجم : يرتاح ، وفي بعض المخطوطات " ترحه" بدل " يجم " (النهج المسبوك ،ص ١٩١ الحاشية رقم ٨).

الوصايا الموجهة إلى الوزراء والولاة والكتاب بشكل واضح ، ونشأت وصايا عامة في الصداقة والصديق . وتطورت وصايا الخلفاء إلى القواد والأمراء في الأمور الحربية والسياسية والإدارية ، وتقدمت وصايا الخلفاء والكتاب إلى المؤدبين والمعلمين ، وبدا حرص ولاة الأمر على الإفادة من علوم الآخرين وتجاربهم ، إذ استجاب العلماء والأدباء لتحقيق تلك الرغبة ؛ فوضعوا لهم ما أرادوا ؛ فهذا عبد الرحمن بن عبد الله الشيزري يقول في مقدمة كتابه " نهاية الرتبة في طلب الحسبة ": " **فقد سألني من استند لمنصب الحسبة وقُلّد النظر في مصالح الرعية .. أن أجمع له مختصراً كافياً في سلوك منهج الحسبة على الوجه المشروع ليكون عماداً لسياسته وقواما لرياسته .. وسميته نهاية الرتبة في طلب الحسبة** " [١]

ومن ذلك أن الخليفة العباسي جعفر المتوكل بن محمد المعتصم قد أمر حال سماعه بكتاب " سر الأسرار " أو " السياسة والفراسة في تدبير الرئاسة " لأرسطاليس الذي ألفه لتلميذه قائد اليونان الأكبر الإسكندر ذي القرنين ، بالبحث عنه ، وأرسل في طلبه حتى عثر عليه المترجم الفيلسوف الطبيب " يوحنا ابن البطريق" الذي كتب إلى المتوكل عند ظفره بالكتاب قائلاً : [٢]

" **فلم أدع هيكلاً من الهياكل التي أودعت الفلاسفة فيها أسرارها إلا أتيته ، ولا عظيماً من عظماء الرهبان الذين لطفوا بمعرفته ، وظننت أن مطلوبي عنده إلا قصدته ، حتى وصلت إلى هيكل الشمس**

---

[١] نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، لعبد الرحمن الشيزري ، تحقيق السيد الباز العريني ، ص ٣ ط ٢ ، دار الثقافة ببيروت ١٩٨١م.

[٢] سر الأسرار ، لأرسطاليس ، تقديم سامي سلمان الأعور ، ص ٨، دار العلوم العربية ، بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

الذي كان قد بناه اسقلابيس لنفسه فظفرت منه بناسك مترهب ذي علم بارع ، وفهم ثاقب ، فتلطفت له ، واستنزلته ، وعملت الحيلة عليه، حتى أباح لي مصاحف الهيكل [1] المودعة فيه ؛ فوجدت من جملتها المطلوب الذي نحوه قصدت وإياه ابتغيت ".

وقال : فصدرت إلى الحضرة المنصورة ظافراً وتشرفت بعون الله وتأييده . وسعد أمير المؤمنين وجده في نقله وترجمته ، ونقلته إلى اللسان اليوناني واللسان الرومي واللسان العربي ."

وهكذا فقد أسهمت تلك الكتب في تطور المفاهيم السياسية والإدارية في العصر العباسي ، وقد حاول بعض الأمراء إيجاد تقاليد أو مفاهيم جديدة تبرز تمركز السلطة بأيديهم من خلال كتابات ذات أصول يونانية وهلينستية وفارسية ساسانية وهندية مثلت المراحل المتتالية من تاريخ الأمة الإسلامية تحقيقاً مناسباً لمتطلبات العصر وكان غرضها إصلاحيًّا نفعيًّا ، فجاءت في صيغ وصايا ونصائح أخلاقية وأمثال وحكايات ومأثورات كان من أبرزها "قابوس نامة " الذي ألفه الأمير قابوس بن زياد في أواخر أيامه لخص فيه تجاربه الشخصية ، وصور واقع الحياة ، وأهداه لولده وخلفه "كيلانشاه" ليكون دستوراً له ومرشداً ، وقد وزعه في أربعة وأربعين بابا ، يعالج بعضها آداب الملك ونظام القيادة ، وشرائط الوزارة والكتابة، وآداب المنادمة ، وأبوابا في الزواج ، وآداب الحمام ، ونصائح انو شروان ، وتربية الولد.. وقال في مقدمته : [2]

" .. اعلم يا بني أني قد هرمت ، وغلب علي الضعف .. فلما

---

[1] مصاحف الهيكل : مجلداته وكتبه . والمصحف : مجلد أو كتاب يضم مجموعا من الصحف المكتوبة .

[2] مرايا الأمراء ، مع تحقيق كتاب قابوس نامة " النصيحة " للدكتور محمد أحمد دمج ، ص ٢٢٣/٢٢٤، مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع ط ١ سنة ١٤١٤هـ /١٩٩٤م.

وجدت يا بني اسمي في دائرة الراحلين ، ورأيت من المصلحة ، قبل أن يصل كتاب عزلي أن أدون كتابا في ذم الزمان ، والاستمتاع بالذكر الجميل ، وأقدم لك منه نصيباً بموجب الحب الأبوي ، حتى تنظر بنفسك في كلامي بعين العقل قبل أن تسحقك يد الزمان ، وتنال بهذه النصائح الرفعة وطيب الذكر في الدارين .

وإياك أن يتخلف قلبك عن قبول هذه النصائح ، فقد أديت ما عليَّ من واجب الأبوة ، فإذا لم تحسن الإفادة من قولي فقد يكون هناك آخرون يغتنمون سماعه والعمل به ، ولو أن طبيعة الأيام مجبولة على ألا يعمل ابن بنصح أبيه لشغله في باطن الشباب ، تجعل ظنهم من قبيل الغفلة يحملهم على أن يروا علمهم أسمى من علم الشيوخ ، ومع أن هذا كان معلوماً لي فإن الحب الأبوي لم يسوغ لي السكوت ، فما وجدته بطبعي جمعت منه بضع كلمات في كل باب ، ودونت ما كان أوجب وأفضل في هذا الكتاب ؛ فإن تحقق منك العمل فبها، وإلا فأكون قد أديت شرط الأبوة ، وقد قيل : ليس على القائل أكثر من الكلام؛ فإن لم يكن السامع مشترياً [1] فلا ضير ".

ويتابع جامع هذه النصائح محاولته في إقناع ولده واستمالته لسماع نصحه والإفادة من وصاياه في حياته قائلاً:

" اعلم يا بني أن المرء قد جبل على أن يكد ويسعى ، ليخلف ما يكون قد أصاب في الدنيا لأعز أقربائه ، وقد أصبت من الدنيا هذا الكلام ، وأنت أعز إنسان عندي .

فلما أزمعت الرحيل ؛ بعثت إليك بما كان من نصيبي ؛ لكيلا

---

[1] يقصد : راغباً في سماع النصيحة مقبلاً عليها.

تكون متابعاً هواك ، وتجنب ما لا يليق ، وتحيا حياة خليقة بأصلك الطاهر ؛ فإنك ذو أصل شريف وكريم الطرفين من كلا الجانبين ".

ويزيد الناصح من حفز ولده على سماع نصائحه والعمل بها ، ويستفزه لذلك قائلاً: [1]

تنبه يا بني أن يوم رحيلي قريب ، وسيكون مجيؤك على إثري قريباً ، واعلم أن هذه الدنيا مزرعة من خير وشر ، وما تزرع تحصد ، ولا يأكل أحد حصيده في مزرعته ، بل يأكله في العمار ، والعمار هو الدار الباقية ، وللرجال الصالحين في هذه الدار همه الأسود ، وللطالحين همة الكلاب ، فإن الكلب يأكل حيث يصيد ، والأسد يأكل في مكان آخر ، ومكان صيدك هذه الدار الفانية ، وطريق ذلك طاعة الله – عز وجل– .

ومثل الذي يطلب الله كمثل النار مهما تنكسها تطلب العلو والازدياد، والذي يبتعد عن طريق الله وطاعته كالماء ؛ كلما ترفعه يطلب الانحدار .."

وبهذا فإن أبرز معالم التطور الذي خضعت له " الوصايا " في العصر العباسي أن هذه " الوصايا " لم تعد تقتصر على عبارة أو فقرة تحمل الوعظ والإرشاد فحسب ؛ بل تعدت ذلك حتى غدا فن الوصايا فنًا أدبيًا يُخصص له مبدعوه رسائل وكتباً ومجلدات .

ومما لا شك فيه أن إرهاصات هذا التطور قد ظهرت لدى عبد الله بن المقفع حين وضع رسائله :

---

[1] " النصيحة " ، قابوس نامة ، ص ٢٢٤.

- الأدب الكبير .
-الأدب الصغير .
-اليتيمة في الرسائل.
-آثين نامة (كتاب الرسوم) أو الآداب .
-الأدب الوجيز للولد الصغير .

وهي مجموعة رسائل في " الأدب " والتربية " تشتمل على كثير من النصائح المفيدة والمواعظ الهامة التي لا يستغنى عنها " الإنسان في حياته " وقد ألفها ابن المقفع في تأديب ولده وتعليمه [1] كما يرى بعض المؤرخين ، أو ألفها في الوعظ والإرشاد للعامة ، و لم يخص بها شخصاً بعينه ، كما يرى أكثر من درسوا تلك الآثار الأدبية لابن المقفع[2] ، لما تشتمل عليه تلك الرسائل من مطالب عظيمة ، ووصايا قيمة لا يستغني عنها الصغار ولا الكبار وحتى الشيوخ المحنكون والعقلاء الكاملون .

ونظراً لشهرة " الأدب الكبير " و" الأدب الصغير " وانتشارهما في أنحاء العالم العربي ؛ فإننا نقف عند رسالة هامة هي " الأدب الوجيز للولد الصغير" لابن المقفع التي ذكر مترجمها الأستاذ محمد غفراني " أنها رسالة نفيسة ممتعة كانت مجهولة من بين تراث ابن المقفع ، وقد شاءت الصدفة العجيبة أن يفقد الأصل العربي لهذه الرسالة ، و لم يبق منه إلا ترجمة فارسية قام بها أحد أعلام الإسلام وجهابذة الفرس ، وهو الفيلسوف الإيراني " نصير الدين الطوسي" ....

---

[1] الأدب الوجيز للولد الصغير ،لابن المقفع ، تعريب وتحقيق محمد غفراني الخراساني ، ص ٦، عالم الكتب القاهرة (د.ت).

[2] انظر ما نقله المرجع السابق ص١٣ عن الأستاذ ملك الشعراء بهار في كتاب " سبك شناسي" ج٢، ص ١٥٩ ، وعن الأستاذ عباس إقبال في مقدمته لرسالة " الأدب الوجيز " .

واليوم أقوم ولأول مرة بترجمة هذه الرسالة من الفارسية إلى العربية التي سوف تعتز - ولا شك - بها ، وتقول بلسان عربي :" هذه بضاعتنا ردت إلينا".

وقد نشرت الترجمة العربية لهذه الرسالة عن عالم الكتب بالقاهرة في مائة وعشرين صفحة ، وضمت عدداً من المطالب الأخلاقية التي وجهها منشئها لابنه ، وحملت روح ابن المقفع وأسلوبه مما يعيدنا إلى " الأدب الكبير " و"الأدب الصغير " اللذين عرفناهما لابن المقفع .

ويمهد ابن المقفع لرسالته بمقدمة رائعة تهيئ ذهن ابنه المتلقي للإقبال على هذه " الوصايا " والعمل على الإفادة منها ؛ إذ أكد أن هذه " الوصايا " واجب من واجبات الأبوة ، وأنها حق من حقوق ابنه عليه ؛ وأنها وسيلة من وسائل إصلاح الأبناء ، وسيلة من الوسائل التي تدعو الأبناء للإحسان للآباء ، مؤكداً أن هذه " الوصايا " لن تحقق أهدافها ولن تبلغ مرادها إلا بتوفيق الله وإرادته ، وأنها وسيلة من وسائل الأخذ بالأسباب إذ قال:[1]

" أي بني ، لما بشرني المولى تعالى بوجودك ، ومَنَّ عليَّ بعطائك ، وقد أبلغك إلى هذه السن والدرجة والحد والرتبة ، بأن صرت مستعداً لقبول الآداب ، وقابلاً لعدة الفضل ؛ فقد وجب عليَّ أن أؤدي شكراً للخالق - عز وعلا - على هذه الموهبة الهنية ، والعطية السنية ؛ وبمقتضى الكلام الرباني ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ أطلب بأداء الشكر مزيد الاستمتاع والانتفاع ببقائك ، وأبدي نظراً شافياً وفكراً كافياً في الاجتهاد مع نفسي ، وبذل المجهود من أجلك ؛ حتى تتعظ بأنوار آدابي وتكسب حظًّا تستطيع أن تنتفع وتتمتع به ، فيكون ذلك

---

[1] رسالة " الأدب الوجيز للولد الصغير " ص ٣-٤ .

حجة إشفاق أبوتي عليك ، وقضاء لحق بنوتك الذي أوجبه الله -تعالى- عليَّ كأب ، ويكون في المستقبل داعياً وموجباً لأن تبرَّ بي وتحسن إليَّ جزاء ذلك ، وتحترز طريق العقوق والعدوان ، وتعمل بحكم ﴿ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ [1] وتساعدني في أموري ، ولا تضن بالمعونة والمؤاتاة والمسامحة والمواساة في كل ما يسنح ويعرض ...واعلم بأني لا أعرف أحداً وإن أدبوه وهذبوه بالمواعظ المتواترة ، والنصائح البالغة ، والإرشاد المحض ، والهداية الخالصة، والتعليم بالشفقة يستطيع الانتفاع بذلك ، وتثمر وتفيد في تخريجه[2] تلك المواعظ والنصائح ، ويصير قادراً على اقتباس فوائدها ، واغتراف مواردها دون أن يساعده التوفيق الإلهي ، ويدله على قبول تلك الآداب [كما قال الشاعر]:[3]

إذا لم يعنك الله فيما تريده ... فليس لمخلوق إليه سبيل

وإن هو لم يرشدك في كل مطلب ... ضللت ، ولو أن السماك دليل

وتتوالى بعد ذلك وصايا ابن المقفع الأخلاقية والسلوكية والاجتماعية لابنه في واحد وخمسين فصلاً منها :

- ليكن الله نصب عينيك دائماً

- مقابلة الشدائد بإيمان قوي .

- الإقبال على تعلم الآداب بعزيمة صادقة .

- اختيار الأصدقاء وتجنب مجالسة أهل السوء .

- الرزق بيد الله .

---

(1) الآية ٦٠ من سورة الرحمن .

(2) تخريجه : تعليمه .

(3) ينسب البيتان لأبي العتاهية .

- اطلب سعادة الآخرة .

- تفقد مصالحك ودبر أمورك .

- الصدق .. الصدق .

- الصمت وترك اللغو .

- احترس من مكر الأعداء .

- احذر الحسد .

- تحمل شدائد الحياة .....

إذ يتضح شمول هذه " الوصايا "وترتيب معانيها بين الجانب الروحي، والجانب الخلقي والجانب التعليمي .

وليتضح أسلوب الوصايا الذي جمع التوفيق بين العاطفة والعقل ، والاعتماد على البرهان العقلي ، والقياس المنطقي ؛ أنقل الفصل السادس والعشرين من الرسالة الذي يحث على التثبت والأناة في قضاء حاجات الناس واستمالة قلوبهم ، إذ قال:[1]

" أي بني ، إذا سألك سائل فعليك بالتثبت والتأني في جوابه ؛ لتكون إجابتك عن تدبير وبصيرة ، وإذا أردت أن تسأل من أحد مسألة فاستحضر في ذهنك أولا نقضه[2] الذي سيكون لازماً على سؤالك ومقالك ، وفكّر في ردٍّ ودفع نقضه واعتراضه حتى تكون قد أعددت في فهمك من قبل جواب المعارضة والمناقضة ، وتسير على وفق الصواب ، وتصل إلى مرادك ومطلوبك ، وتستطيع أن تأمن من الهفوة والعثرة .

---

[1] الأدب الوجيز للولد الصغير ص ٦٤-٦٦ .

[2] نقضه : رده .

قدِّر لرجللك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقاً عن غرة زلقا[1]

واعلم أنه لا وسيلة قط في استمالة الناس وتألف قلوبهم وتقريب الخواص والعوام تدريجياً إلى محبتك وألفتك مثل أن تلتزم قبل كل شيء باتباعهم ، وتحوِّل نفسك إرضاءهم كليًّا أو جزئيًّا ، وتُؤْثر هواهم ومرادهم على هواك ومرادك ؛ ليمارسوا نفس الطريقة والسنة على سبيل الاقتداء بك ، وتوطد من الجانبين قواعد المصافاة والمؤاخاة ، وحيثما ينازعك إنسان ويأبى عليك نجح مطلوبك ، ويكون ميله على غير بغيتك وخلاف إرادتك ؛ فلا تكره نفسك على اتباع عادته ، ولزوم طريقته ، وتابعه بتكلف وجهد حتى تحوله بالرفق و التدريج عن رأيه وعزيمته ، وتأتي به على سمت هواك ومرادك وتصل إلى مطلوبك ومقصودك و تجد في النهاية سعيك وفضيلة رأيك محمودين وناجحين .

ولا تجالس الناس ولا تعاشرهم على خلاف طريقتهم وعادتهم، ولا تكلف ما يبدو فوق طاقتهم ولا يتأتى في استطاعتهم ، ولا تجز التماس ذلك منهم فينفر منك الجليس دائماً ، وإن حملت شخصاً وكلفته فوق طاقته يصير مرهقاً ومكدوراً بتحمله وتجشمه فيجتنب صحبتك ، ومن ثم تبقى وحيداً من الإخوان والخلان ، ولا يكون لك مؤنس تطلب الراحة بصحبته ومحبته ، ولا يبقى صديق تستأنس بمودته ، وكل من لا يكون له أصدقاء وإخوان لا يعده الناس من أهل المروءة ، وكل من لا مروءة [عنده] لا يكون مبعث أمل لهم في شأن ، وقد جاء في قول الحكماء :

" المروءة : الجمع بين الدين والدنيا ، والتوقي من سخط الخالق وذم المخلوقين " أي أن المروءة هي أن تجمع بين مصالح الدنيا

---

[1] البيت لأبي العتاهية ، الزلق : المكان المبتل بالماء .

وفرائض الدين ، بحيث لا تدع بالإخلال طريقاً إلى أحدهما ، وتكون على حذر من غضب الخالق ومذمة الناس ".

فهذا الفصل قد ضم دستوراً للتعامل مع الناس ، بدءاً من الحث على الأناة والحلم والتريث ، والتدبر والتفكر عن مخاطبتهم، سواء أكان " المرء " سائلاً أم مجيباً . ومروراً بالحذر والحيطة والتفكير في العواقب ، مستشهداً بقول الشاعر:

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها   فمن علا زلقاً عن غرة زلقا.

مع التركيز على أهمية مخاطبة الناس على قدر عقولهم ومخاطبتهم بما يفهمون ، وأهمية اتباع قواعد المصافاة والمؤاخاة ، وألا يكون " المرء " إمعة يتبع الناس في إحسانهم وزللهم ، بل عليه أن يوطن نفسه على اختيار الطريق السوي وأن يكون قدوة للآخرين في اتباع الحق وإقناعهم لاتباعه .

وأخيراً يركز هذا الفصل على أهمية " المروءة " في حياة الإنسان ، مؤيداً رأيه بتوضيح معناها لدى الحكماء ؛ جامعاً في تفسيرها بين الجانبين الروحي والخلقي ، كما فعل في هذا الفصل إذ جمع فيه بين التركيز على الجانب الروحي والخلقي والتعليمي في أساليب التعامل مع " الآخر " وأصول النجاح في علاقته به .

ومن كتب الوصايا في العصر العباسي " الوصية المباركة " للإمام موفق الدين ابن قدامة المقدسي التي جمع فيها كثيراً من العظات البالغة ، والفوائد القيمة، والنصائح الجمة ، والأمور المهمة ، وجمع فيها من خيري الدنيا والآخرة الشيء الكثير ، وهي وصايا وجهها إلى أحد إخوانه الصالحين ، حيث أوضح ذلك بقوله:[1]

---

[1] صدرت الوصية بتحقيق الدكتور محمد يوسف الشربجي ، عن دار الكلم الطيب بدمشق ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .انظر : الوصية المباركة ص ٧١-٧٢ .

"... فقد سألني بعض إخواني الصالحين أن أكتب له وصية ، فامتنعت من ذلك ، لعلمي أني غيرمستوص في نفسي ، ولا عامل بما ينبغي ، ثم بدا لي أن أجيبه إلى مسألته ، رجاء ثواب قضاء حاجة الأخ المسلم ، ودعائه لي ، وأن يجري لي أجراً إذا عمل بوصيتي ، وأن أكون من الدالين على الخير حين عجزت عن عمله ؛ لأكون بدلالتي عليه كفاعله[١] ، والأعمال بالنيات ، وما توفيقي إلا با لله عليه توكلت وإليه أنيب ..."

وقد سار في هذه الوصية على نهج الإمام الغزالي الذي كتب وصية إلى تلميذه تحت عنوان " رسالة الإمام الغزالي إلى تلميذه " أيها الولد " بعد أن طلب ذلك التلميذ من الإمام الغزالي أن يزوده بنصائحه وخبراته في هذه الحياة ، وأن يرسم له السلوك القويم في طلب العلم الموصل لسعادة الدارين ، ورضا الله - تبارك وتعالى- فكانت تلك الرسالة التي مزجت بين تربية الروح وتربية الجسد مزجاً لا انفصام لإحداهما عن الأخرى وحوت من الدرر أعلاها ، ومن التوجيهات أسماها .

ومن الآباء الذين محضوا أبناءهم نصائحهم و خصوهم بوصاياهم ، وزينوا المكتبة العربية بمؤلفاتهم الحافظ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الذي ألف رسالة تحت عنوان " لفتة الكبد إلى نصيحة الولد " افتتحها بمقدمة أوضح فيها سبب تأليف الرسالة ، فقال :[٢]

" الحمد لله الذي أنشأ الأب الأكبر من تراب ، وأخرج ذريته من

---

[١] إشارة إلى قول رسول الله ﷺ :" الدال على الخير كفاعله ".

[٢] لفتة الكبد إلى نصيحة الولد ،لابن الجوزي ، تحقيق الدكتور عبد الغفار سليمان البنداري ، ص ١٧-٢١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧ م .

الترائب والأصلاب ، وعضد العشائر بالقرابة والأنساب ، وأنعم عليّ بالعلم وعرفان الصواب ، وأحسن تربيتي في الصبا وحفظني في الشباب، ورزقني ذرية أرجو بوجودهم وفور الثواب ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾

أما بعد :

فإني لما عرفت شرف النكاح ، وطلب الأولاد ، ختمت ختمة، وسألت الله - تعالى - أن يرزقني عشرة أولاد فرزقنيهم ، فكانوا خمسة ذكور وخمس إناث ، فمات من الإناث اثنتان ومن الذكور أربعة ، فلم يبق من الذكور سوى ولدي أبي القاسم ؛ فسألت الله -تعالى - أن يجعل فيه الخلف الصالح ، وأن يبلغ به المنى والمناجح ، ثم رأيت منه نوعاً من التواني عن الجد في طلب العلم ، فكتبت له هذه الرسالة أحثه بها وأحركه على سلوك طريقي في كسب العلم ، وأدُلُّه على الالتجاء إلى الموفق - سبحانه وتعالى - مع علمي بأنه لا خاذل لمن وفق ولا مرشد لمن أضل ، ولكن قد قال تعالى :﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[1] وقال :﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾[2] . . ." .

ثم أتبع ذلك بسبعة عشر فصلاً توزعها الجانب الروحي ، والجانب الخلقي ، والجانب التعليمي ، والجانب السلوكي ، ومنها :

- فصل في تمييز الآدمي بالعقل .

- فصل في معرفة الله -تعالى - بالدليل .

- فصل في الانتباه للنفس والندم على ما مضى .

---

(1) سورة العصر ، آية ٣.

(2) سورة الأعلى ، آية ٩.

- فصل في وجوب عدم اليأس .

- فصل في الصلاة بعد الدرس .

- فصل في العزلة .

- فصل في صيانة العرض .

- فصل في صحة التقوى .

- فصل في تعليم السلوك .

- فصل في حسن المداراة للخلق .....

ومما جاء في فصل العزلة قوله :[1]

" وعليك بالعزلة فهي أصل كل خير ، واحذر من جليس السوء ، وليكن جلساؤك الكتب والنظر في سير السلف ، ولا تشتغل بعلم حتى تُحكم ما قبله ، وتلمح سيرة الكاملين في العلم والعمل ، ولا تقنع بالدون ، فقد قال الشاعر :[2]

ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

واعلم أن العلم يرفع الأراذل ؛ فقد كان خَلْق كثير من العلماء لا نسب لهم يُذكر ، ولا صورة تستحسن[3] ، وكان عطاء بن أبي رباح أسود اللون ، مستوحش الخلقة ، وجاء إليه سليمان بن عبد الملك – وهو خليفة – ومعه ولداه ؛ فجلسوا يسألونه عن المناسك ، فحدثهم وهو معرض عنهم بوجهه ، فقال الخليفة لولديه : قوما ولا تنيا ولا تتكاسلا في طلب العلم ، فما أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود،

---

(1) لفتة الكبد إلى نصيحة الولد ، ص ٤٥-٤٦ .

(2) البيت للمتنبي ، ديوانه ٤:١٤٥ .

(3) أي لم يكونوا ملاح الوجوه ، ولا جميلي الصورة .

وكان الحسن مولى (أي مملوكاً) ، وابن سيرين ومكحول وخلق كثير، وإنما شرفوا بالعلم والتقوى ".

إذ وجه ولده إلى عدم طلب " العزلة " بشكل مطلق وأكد على أهمية الحيطة والحذر والإقلال من صحبة الأشرار.

وقد أكد أن " العزلة " أصل كل خير ؛ لأنها عند انتشار الفتن سنة الأنبياء ، وعصمة الأولياء ، وسيرة الحكماء والأولياء ، ولأنها تتحتم حين لا يكون سبيل للنجاة إلا بها ؛ ذلك لأنها الوسيلة الأخيرة التي يبقى بها المسلم بواقي استطاعته لعباده الله - تعالى - فقد روى البخاري[1] ومسلم[2] من حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رجل : أي الناس أفضل يا رسول الله ؟، قال : "مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله " قال :" ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه " .

وقد قال ابن الأعرابي : حدثنا أبو يحيى بن أبي مسرة ، قال: حدثنا سعيد بن المنصور ، قال : حدثنا ابن المبارك ، قال : حدثنا يحيى بن أيوب ، عن عبيد الله بن زحر ، عن علي بن يزيد ، عن القاسم (عبد الرحمن الدمشقي ، صاحب أبي أمامة)عن أبي أمامة (الباهلي) قال : قال عقبة بن عامر الجهني : يا رسول الله ، ما النجاة ؟ قال : ليسعك بيتك ، وأمسك عليك دينك ، وابك على خطيئتك".[3]

---

[1] صحيح البخاري ١١:٢٨٤ .

[2] صحيح مسلم ١٨٨٨، وانظر : لفتة الكبد ص ٤٥-٤٦ الحاشية رقم ٤ .

[3] أخرجه الترمذي في كتاب الزهد ، وقال حسن صحيح .

وعن عكرمة ، قال : حدثني عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : بينما نحن حول رسول الله ﷺ إذ ذَكَر الفتنة أو ذُكرت عنده ، فقال ﷺ : [1]

" إذا رأيتم الناس مرجت عهودهم ، وخفت أماناتهم ، وكانوا هكذا ، وشبك بين أصابعه ، قال فقمت إليه ، فقلت : كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك ؟ فقال ، ﷺ : الزم بيتك ، واملك عليك لسانك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر ، وعليك بأمر الخاصة ، ودع عنك أمر العامة ".

وليتضح مفهوم " العزلة " الاحتياطية التي أرادها الموصي حث ولده على إدامة النظر في العلوم النافعة ،والاطلاع على سير السلف الصالح ليقتفي أثرهم ويتخلق بأخلاقهم من حيث زيادة الطموح وعدم الرضا بالقليل من العلم أو الجاه لما لذلك من أثر إيجابي في تقدم المرء ورفعة مكانته.

ومن الجدير بالذكر أن الإمام الحافظ أبا سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي (المتوفى سنة ٣٨٨هـ) وقد وضع كتاباً تحت عنوان " العزلة " وهو كتاب أدب وحكمة وموعظة ، كان مؤلفه قد أتمه بناء على طلب بعض إخوانه ، وفيه يدعو إلى العزلة والإقلال من الصحاب ومخالطة الناس، والميل إلى التفرد ، معبراً عن ذلك بأسلوب منطقي يعتمد على البراهين والحجج وضرب الأمثلة ، والإتيان بالشواهد ، والقصص ، مع تقسيم الموضوع إلى أبواب محددة تصبجميعها في باب العزلة . [2] لذا فليس غريباً أن يحتذي ابن الجوزي حذو

---

[1] أخرجه العراقي في الإحياء ٢:٢٣٢ ، وقال : أخرجه أبو داوود والنسائي بإسناد حسن .

[2] العزلة ، لمحمد بن محمد الخطابي البستي ، تحقيق ياسين محمد السواسي ، ص ٣٩-٤٠، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

البستي في الحث على " العزلة " وأن يسير على نهجه في فهم المقصود من "العزلة".

ولا نستطيع أن نتجاوز الوصايا في العصر العباسي دون أن نشير إلى لون من ألوان الفلسفة راج استخدامه في المشرق العربي الإسلامي ، وعرف بأسماء عديدة: فسمي بالفلسفة السياسية العملية ، أو الحكمة العملية السياسية ، وسمي بعلم تدبير المنازل ، كما عرف بنصائح الملوك أو " مرايا الملوك ".

وتكشف جميع هذه الألفاظ والعناوين مضامين الحكمة السياسية ، وتبين أبعادها وقضاياها ومسائلها ، إنها في الحقيقة (كما وصفها الدكتور محمد أحمد دمج)[1] : فلسفة حياة ، تعلم الناس الفضيلة والأخلاق الفردية ، وتبحث في آداب السلوك والتعامل ، وتتناول السياسة العملية النفعية ، فترشد الحكام والأمراء والقادة ،وتعودهم على اتباع تقاليد الحكم وقواعد السياسة ، كما تساعد الحاكم المتنفذ في أن يقبض على السلطة بيده لأطول مدة ممكنة.

وتتناول تلك المؤلفات قضايا الاجتماع والاقتصاد والسياسة المدنية ، بما فيها تربية الأبناء والأزواج والخدم ، وغيرها من القضايا التي كان يعبر عنها بأسلوب وعظي حكمي يقوم على الإرشاد والنصيحة والموعظة ،ويقدم الحكايات والمضحكات ، ولا يغفل النوادر والأقوال المأثورة .

وقد بدأ هذا التيار بترجمات " كليلة ودمنة " أو أساطير بيدبا لعبد الله ابن المقفع . وبكتاب " التاج" المنسوب للجاحظ[2] وتطرق الكندي إلى موضوع السياسة العملية في رسالة أخلاقية وجهها لولده حذره فيها من البخل وعدم

---

[1] مرايا الأمراء ، د. محمد أحمد دمج ، ص ٩-١٠، مؤسسة بحسون ، دار المنال ، بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

[2] التاج في أخلاق الملوك ، للجاحظ، تحقيق فوزي عطوي ، دار صعب ، بيروت (د.ت)؛وقد حققه أحمد زكي باشا، المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩١٤هـ .

السؤال [1] ، وبحث إخوان الصفا - أيضاً - في سياسة الزوجة والولد والخدم ، وأوصوا الحكام والقواد ببعض الوصايا الأخلاقية ، وألزموهم ببعض قواعد السلوك وآداب السياسة [2] ، وأفرد كل من الفارابي وابن سينا رسالة في السياسة ؛ تضمنت رسالة الأول جملة من الوصايا التي يعم نفعها على كل من يستعملها من الناس ، أما الثاني فقد كشف في رسالته " السياسة المدنية " شروط سياسة الزوجة والولد والخدم [3] ، واهتم مسكوية بموضوع السياسة المدنية عبر كتابه " تهذيب الأخلاق " [4] ومن خلال كتابي " أخلاق ناصري " و " أخلاق محتشمي " ظهرت اهتمامات نصير الدين الطوسي بموضوع الحكمة العملية[5] وفي كتاب " سراج الملوك " لخص الطرشوشي المفاهيم السياسية والأخلاقية ؛ إذ صور أخلاق الملوك وعادات حكام الدول وآداب الوزراء والعمال ، وحدد شروط القضاء وآداب التعامل مع الجند ، وقد نَسَّق آراءه وأفكاره على شكل مواعظ ووصايا ساقها إلى أصحابها المعنيين بأسلوب مناسب.[6]

وللغزالي كتاب " التبر المسبوك في نصيحة الملوك " جمع فيه كثيراً من الحكايات والمأثورات عن المسلمين وعلماء الفرس وحكماء الهند وقدمها على

---

[1] مرايا الأمراء ، للدكتور محمد أحمد دمج ، ص ١٠.

[2] نفسه ، وقد صدرت رسائل إخوان الصفا عن دار صادر ببيروت ، وسر الأسرار ، لإخوان الصفا ، تحقيق أحمد التريكي ، دار الكلمة الطيبة ، بيروت ١٩٨٣م، وهو مجموعة من القواعد في السياسة والقوانين المنظمة لسلوك الحاكم العادل ، وإرشادات تفيد السلطان في الحرب والسلم .

[3] نفسه ١٠-١١، صدرت " رسالة في السياسة للفارابي " بنشر الأب لويس شيخو ، بيروت ١٩٠ هـ ، وصدرت " رسالة في السياسة لابن سينا " عن مجلة المرشد ، ببغداد سنة ١٩٢٩م.

[4] صدر كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، لمسكويه ، عن مكتبة الحياة ببيروت ط ٢ سنة ١٩٧٨م .

[5] مرايا الأمراء ،ص ١١ .

[6] صدر كتاب " سراج الملوك "للطرشوشي ،بعناية أنطوان غندور ، المطبعة الوطنية بالإسكندرية ١٢٨٩هـ .

صورة نصائح ووصايا نافعة ومواعظ مفيدة.[1]

وأما كتاب " سلوك المطاع في عدوان الأتباع " لابن ظفر الصقلي ، فقد قدمه مؤلفه لقائد القواد في صقلية أبي عبد الله محمد علوي القرشي ووزعه في خمس سلوانات ، استعرض خلالها عدداً من الحكايات والمأثورات والأقوال الهادفة التي استوحاها من تاريخ الإسلام وتجارب ملوك وحكماء الهند والفرس ، واستخرج منها مغزى أخلاقيًّا ورسم منهجاً سلوكيًّا في التعامل مع الأعوان والأتباع والإخوان .[2]

وأما كتاب " العهود اليونانية " فقد وضعه أحمد بن يوسف بن الداية، واستله من كتب أفلاطون السياسية ، ووزعه في ثلاثة عهود :عهد الملك لابنه ، كشف له فيه طرق تأديب النفس وأساليب التعامل الناجح مع الرعية وأركان الدولة والعلماء ، وعهد الوزير لابنه تحدث فيه عن آداب الوزارة وصفات الوزير، وشروط العلاقة بالملك وبالعامة ، وعهد العامي إلى ولده ، ويتضمن جملة منالنصائح والإرشادات المنظمة للسلوك المهني. [3]

وفي كتاب " الحكمة الخالدة " نسق مسكويه جملة من حكم الهند والفرس ، وآداب ووصايا العرب والروم بطريقة تفيد الأحداث والأدباء وأهل العلم.[4]

---

[1] التبر المسلوك في نصيحة الملوك ، تحقيق د. محمد أحمد دمج ، المؤسسة الجامعية للدراسات ، بيروت ١٩٨٧م . وانظر، النهج المسلوك ، للشيزري ، تحقيق د. محمد أحمد دمج ،ص ٢٠-٢١ .

[2] سلوان المطاع في عدوان الأتباع ، لابن ظفر الصقلي ، القاهرة ١٩٧٨م .

[3] العهود اليونانية (في الفلسفة السياسية عند العرب) لأحمد بن يوسف بن الداية ، تحقيق عمر المالكي ،ط ٢ الشركة الوطنية للتوزيع ، الجزائر ١٩٨٠م . انظر المنهج المسلوك في سياسة الملوك ، للشيزري ، تحقيق د. محمد دمج ص ٣٠ .

[4] الحكمة الخالدة ، لمسكويه ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ،ط ٢ دار الأندلس ، بيروت ١٩٨٠م .
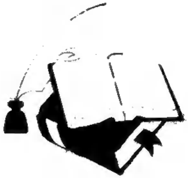
فكُتّـاب هـذه " الوصايـا " قـد حرصـوا علـى أن يتوجهـوا لأولي الأمـر بالنصـائح والمواعـظ ليسترشـدوا بهـا في سياسـة الملـك وتدبـير الرعيـة ، وضمنوهـا كثـيراً مـن الحكايـات والأمثـال ذات الـدلالات الواضحـة والمغـزى النـافع ، ممـا يمكـن أن يفيد منـه الأبـاء والأبنـاء والسـلاطين والرعايـا علـى مـر العصـور .